استخدام الكومبيوتر في دراسة اللغة:
معالجة المصطلحات القانونية

بقلم : باولو برانكا

انحصر استعمال الكومبيوتر في اول الامر على ميدان الرياضيات واجراء الاحصاءات العلمية والادارية لكننا شاهدنا في السنوات الاخيرة تطورا كبيرا في هذا المجال اذ اصبح الاعلام التقني يطبق في جميع المجالات المختلفة كمعالجة المعطيات اللغوية وغير العددية .

لقد سجلت تكنولوجية الكومبيوتر ارقاما قياسية جديدة وقدمت لنا وسائل واجهزة حديثة ومفيدة لدراسة اللغة في مظاهرها المختلفة .

الدراسات اللغوية التي تجري بمساعدة الكومبيوتر تتسم في الوقت الحاضر بأهمية كبيرة تزداد بصورة مطردة مع مرور الزمن وان تعددت انواعها وطرق البحث المتبعة واختلفت اهدافها المنشودة والاتجاهات الدراسية المعتمدة .

يستعمل بعض الباحثين الكومبيوتر في محاولاتهم لترجمة النصوص القديمة المكتوبة بلغات غير معروفة ، والبعض الآخر يدرس لغة كاتب ما عن طريق تحليل الكلمات المستعملة في مؤلفاته بهدف ادراك المعاني الدقيقة لمضمون افكاره ولتحليل اسلوبه الادبي .

اما النوع الثالث فيقوم بمعالجة المعلومات اللغوية بواسطة الكومبيوتر بطريقة خاصة وهي تنظيم المعطيات التي تضع تحت تصرف الباحث جميع الوثائق المخزونة في الذاكرة ذات الميزات المعينة والتي تحتوي على كلمة ما او على مجموعة من الكلمات الواردة في النصوص موضوع البحث .

تكمن صعوبة تنظيم مثل هذه البنوك في تزويد المستعمل (المستهلك) بقائمة « كلمات دليلية » تشتمل على مجموعة من الكلمات الاخرى المتعلقة بها من ناحية المفهوم الذي تعبر عنه الكلمات الاولى ، لان قائمة الكلمات الدليلية هي الوسيلة الاساسية لاجراء الدراسات والبحوث اللغوية بالاعتماد على بنك المعطيات .

قائمة الكلمات الدليلية هي عبارة عن معجم مرتب على شكل شبكة من الكلمات المتشابهة المعنى والمفهوم ، الامر الذي يجعل عملية البحث في بنك المعطيات اسهل واسرع . تسمى هذه القائمة THESAURUS ثيزاوروس وما هي الا دليل البحث الضروري لاجراء الدراسات المختلفة .

اذا اردت على سبيل المثال البحث بواسطة الكلمة الدليلية « بيت » سيزودك الكومبيوتر بجميع الوثائق التي ترد فيها الكلمات الآتية :

« بيت ، دار ، منزل ، مسكن ، وشقة الخ . . . » لانها تتصل بصورة وثيقة بمعنى كلمة « بيت » .

بالاضافة الى هذه العلاقة الافقية بين الكلمات هناك ايضا علاقة عمودية ، وذلك عندما توجد كلمة ما في مستوى اعلى وتشتمل على معان اخرى : مثلا « حيوان » تشتمل على حيوانات من فصائل مختلفة « كالدواب والطيور و الاسماك » . . . وكلمة « معدن » تضم العديد من المعادن المختلفة « كالذهب والفضة والحديد » وغيره .

تهدف دراستنا في ميدان المصطلحات القانونية الى تطبيق امكانيات تكنولوجية الكومبيوتر على بحث لغوي الهدف منه هو اعداد قاموس خاص للمصطلحات القانونية ايطالي - عربي - فرنسي ، وترتيب وتنظيم المعلومات بحيث يمكن ادراجها في بنك المعطيات .

قام بتصميم هذا المشروع الاستاذ فرانشيسكو كاسترو استاذ القانون والشريعة في جامعة البندقية ، وهو المدير المشرف على البحث .

لقد امضى الاستاذ كاسترو ومساعدوه عدة سنوات في اعداد وتحضير آلاف البطاقات للمصطلحات القانونية من ترجمة ودراسة الكثير من النصوص القانونية العربية المعاصرة .

بالاضافة الى ترجمة العبارات والكلمات العربية الى اللغة الايطالية والفرنسية ، تحتوي البطاقات على رقم المواد والبنود القانونية التي وردت فيها .

هذه المعلومات ليست هامشية بالنسبة لدراستنا التي تأخذ بعين الاعتبار انتشار المصطلحات والمفاهيم القانونية في العالم العربي اجمع وتقارن الاستعمالات المختلفة لتلك المصطلحات القانونية المتبعة في الدول العربية .

يحاول هذا البحث تغطية احتياجات مختلفة : ليست لغوية فقط وانما تاريخية وفلسفية ايضا لان المسائل القانونية متشعبة الفروع ومتعلقة بمجالات عديدة .

تتميز هذه الدراسة اذن بالمعلومات التاريخية والجغرافية التي تحتوي عليها والتي يمكن ان تشكل مرجعا مهما للباحثين الى جانب اعداد معجم المصطلحات الدارجة الاستعمال في النصوص القانونية العربية المعاصرة .

بدون اي شك فأن هذا البحث سيلقي اضواء جديدة على تطور بعض المصطلحات بصورة خاصة وعلى الناحية اللغوية بصورة عامة بسبب العلاقات المتبادلة الوثيقة الصلة التي تربط الميدان اللغوي بالميدان الاجتماعي .

نقوم في الوقت الحاضر بتسجيل هذه المعطيات على اسطوانات مغنطيسية بواسطة كومبيوتر أوليفتيّ أ . م . 20 ، الخاص بمعالجة النصوص التي تشتمل على حروف عربية ولاتينية في نفس الوقت ، ونقوم بتسجيل الالفاظ والمصطلحات العربية بالشكل الوافي لاستبعاد اي التباس .

سيتم البحث عن المعطيات والمعلومات المسجلة بواسطة « الكلمة الاصلية » وهذا يعني انه اذا طلب من الكومبيوتر تزويد جميع البطاقات التي ترد فيها كلمة « شركة » مثلا ، سيعرض الكومبيوتر البطاقات التي تشتمل على كلمات « شركة ، الشركة ، للشركة ، شركات ، الشركات ، للشركات » دون الاخذ بالاعتبار السوابق او اللواحق او موقع الكلمة في الجملة .

ومن الممكن ايضا البحث باستعمال الكومبيوتر عن الكلمات المشتركة . الهدف من تسجيل الكلمات وتخزينها في الكومبيوتر بواسطة الحروف الجذرية هو ترتيبها حسب حروفها الهجائية الالفبائية في المعجم من ناحية واعداد شبكة كلمات متعلقة ومرتبطة في معانيها لا في كتابتها من ناحية ثانية .

القصد من هذا البحث هو استقصاء ادق واعمق المعاني للنصوص القانونية العربية بواسطة قائمة المصطلحات الخاصة بهذا المجال وتحديد استعمالها في انحاء العالم العربي باسهاب ، علاوة على دراسة تطابقها مع الالفاظ القانونية الاجنبية .

لا شك ان استخدام الكومبيوتر في هذا الميدان سيسهل كثيرا عملية معالجة المصطلحات القانونية العربية الى جانب امكانية مقارنتها مع باقي المصطلحات القانونية المستعملة في مختلف الانظمة القضائية المعتمدة في الدول الاجنبية غير العربية .

وفي النهاية بامكاننا القول بأن اللغة العربية بفضل تركيبها المنطقي التوافقي تعطي امكانيات غير محدودة لاجراء الدراسات والتحاليل اللغوية التوافقية والاشتقاقية عليها بتطبيق التكنولوجية الاوتوماتيكية .

باولو برانكا

(ميلانو)

أحيحة بن الجُلاح

أخبـاره وأشعـاره

جمعهـا وحقّقهـا

صالح البكّاري والطيّب العشّاش

قائمة المصادر والمراجع (*)

1 ـ الأزهري : التهذيب ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (981/370) تهذيب اللغة ، تحقيق عبد العظيم محمّد ، الدّار العربية للتأليف والترجمة .

2 ـ الاصبهاني : الأغاني ، أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي الاصفهاني كتاب الأغاني (356 هـ/967) 20 جزءا وآخر للفهارس طبعة مصورة عن طبعة بولاق بيروت 1970/1390 .

3 ـ الأصمعي : الأصمعيات ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (828/216) الأصمعيات ، تحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ط 1 دار المعارف مصر 1964 .

4 ـ ابن الانباری : الزاهر ، أبو بكر محمد بن القاسم الانباری (940/328) الزاهر في معاني كلمات الناس دار الرشيد للنشر بغداد 1980/1399 .

(*) جمعنا في هذه القائمة ما اعتمدناه من مصادر ومراجع لمحاولة جمع اشعار احيحة بن الجلاح ودراستها وقد اختصرنا بالنسبة الى كل منها رمزا واضحا هو الذي استعملناه في هوامش الدراسة وتخريج الاشعار وهو يجمع بين ما يدل على اسم المؤلف وعنوان الكتاب وقد حرصنا على ان نذكر بالنسبة الى القدماء الاسم كاملا مشفوعا بسنة الوفاة بالتاريخين الهجري والميلادي والعنوان كاملا مشفوعا بذكر دار النشر وتاريخه حتى تحصل للقارىء صورة اقرب ما تكون الى الكمال عن المصادر والمراجع وقد اعتمدنا في قسم تخريج الاشعار الترتيب التاريخي.اما في هذه القائمة فالمعتمد هو الترتيب الابجدي باعتبار اسم المؤلف دون مراعاة ابو وابن فيه .

5 ـ ابن الانبارى : الطوال ، ابو بكر محمد بن القاسم الانبارى (940/328) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات تحقيق عبد السلام محمد هارون دار المعارف مصر 1969 .

6 ـ البحتري : حماسة ، ابو عبادة الوليد بن عبيد البحتري (897/284) كتاب الحماسة ، تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعي ط 2 دار الكتاب العربي بيروت 1967/1387 .

7 ـ البستاني : الدائرة ، فؤاد افرام البستاني ـ دائرة المعارف (قاموس لكل فنّ ومطلب) م 7 : بيروت 1967 .

8 ـ البطليوسي : اقتضاب ، عبد الله بن محمد بن السّيد البطليوسي (1127/521) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن قتيبة .

9 ـ البغدادي : خزانة ، عبد القادر بن عمر البغدادي (1682/1093) خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ، المطبعة السلفية ومكتبتها ـ القاهرة 1347 .

10 ـ البكري : مقال ـ ابو عبيد : عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري (1094/487) فصل المقال في شرح كتاب الامثال تحقيق احسان عباس وعبد المجيد عابدين ، دار الامانة مؤسسة الرسالة بيروت 1971/1391 .

11 ـ بلاشير : ادب ، ريجيس بلاشير ـ تاريخ الادب العربي ، 3 اجزاء ، مطبعة ميزونوف ، باريس 1952 ـ 1964/1966 .

12 ـ الجاحظ : بخلاء ـ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (869/255) كتاب البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ، ط دار المعارف مصر 1963 .

13 ـ الجاحظ : بخلاء ـ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (869/255) كتاب البخلاء ، ترجمة الى الفرنسية بقلم شارل بلا ، ط ميرونوف باريس 1951 .

14 ـ الجاحظ : بيان ـ ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (869/255) كتاب البيان والتبيين ـ تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط 2 1960/1380 مكتبة الخانجي بمصر ـ ومكتبة المثنى بغداد .

15 ـ الجاحظ : حيوان ـ ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (869/255) كتاب الحيوان/7 اجزاء ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ـ مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر ط 1 1945/1364 .

16 ـ الجواليقي : المعرب ـ ابو منصور موهوب بن احمد بن محمد بن الخضر الجواليقي (1155/540) المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم تحقيق احمد محمد شاكر ، ط 2 دار الكتب القاهرة 1969/1389 .

17 ـ ابن حجر : الإصابة : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (1449/852) الاصابة في تمييز الصحابة ، دار نهضة مصر ، دت .

18 ـ ابن ابي الحديد : شرح النهج ـ عز الدين ابو حامد هبة الله بن محمد ، ابن الحسن ابن ابي الحديد المدائني (655 ، 1257/56) ، شرح نهج البلاغة ـ تحقيق محمد ابو الفضل ـ ط 2 دار احياء الكتب العربية مصر 1965/1385 .

19 ـ ابن حمزة : التنبيهات ـ علي بن حمزة البصري (985/375) كتاب التنبيهات على اغاليط الرواة (مع المنقوص والممدود للفراء) تحقيق عبد العزيز الميمني الراجكوتي ـ دار المعارف بمصر 1967/1387 .

20 ـ الخالديان : اشباه ـ ابو بكر محمد وابو عثمان سعيد ابنا هاشم (990/380) و (1001/391 م) كتاب الاشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهليّين والمخضرمين ، تحقيق السيد محمد يوسف ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 1958 .

21 ـ الزبيدي : تاج ـ محمد مرتضى الزبيدي (1970/1205) تاج العروس من جواهر القاموس ـ بيروت د ت .

22 ـ زمخشري : ربيع ـ محمود بن عمر الزمخشري (1144/538) ربيع الابرار ونصوص الاخيار ـ تحقيق د سليم النعيمي ، مطبعة العاني ـ بغداد 1976 .

23 ـ السكري : الهذليين ـ ابو سعيد الحسن بن الحسين السكري (888/275) كتاب شرح اشعار الهذليين ، تحقيق عبد الستار فراج ومحمود محمد شاكر ط مكتبة دار العروبة ـ القاهرة 1384 هـ .

24 ـ ابن سلام : طبقات ـ محمد بن سلام الجمحي (846/231) طبقات فحول الشعراء ـ تحقيق محمود محمد شاكر ط المدني ـ القاهرة 1974 .

25 ـ ابن سيدة : المخصص ـ ابو الحسن على بن اسماعيل الاندلسي المعروف بابن سيدة (1066/458) المخصص ـ المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ـ بيروت .

26 ـ السيوطي : الاتقان ـ جلال الدين عبد الرحمان بن ابي بكر السيوطي (1505/911) الاتقان في علوم القرآن ط 2 1941/1360 مطبعة حجازي بالقاهرة .

27 ـ السيوطي : در ـ جلال الدين عبد الرحمان بن ابي بكر السيوطي (1505/911) الدر المنثور في التفسير المأثور ، دار الثقافة بيروت د . ت .

28 ـ ابن عبد البر : بهجة ـ ابو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البرالنمري القرطبي (463/1071) بهجة المجالس وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس تحقيق محمد مرسي الخولي ، الدار العربية للتأليف والترجمة مصر 1962 .

29 ـ ابن عبد ربه : العقد ـ ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسي (328/940) تحقيق احمد امين ، احمد الزين ، وابراهيم الابياري ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة 7 اجزاء في طبعات متعددة بدون اختلاف في سنوات مختلفة .

30 ـ العسكري : الصناعتين ـ ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (395/1005) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر ـ تحقيق على محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر ط 1 ـ 1371/1952 .

31 ـ ابن فارس : مقاييس ـ ابو الحسين احمد بن فارس بن زكرياء ، معجم مقاييس اللغة (395/1004) ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ط 1 القاهرة 1366 .

32 ـ ابن قتيبة : ادب ـ ابو محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري (276/889) ادب الكتاب تحقيق محمّد محي الدين الحميد ، م . السعادة مصر 1963 .

33 ـ ابن قتيبة : عيون ـ ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (276/889) كتاب عيون الاخبار . ط 1 = 1346/1928 ، دار الكتب المصرية القاهرة .

34 ـ القرشي : جمهرة ـ ابو زيد محمد بن الخطاب القرشي (بداية ق 10/4) جمهرة اشعار العرب في الجاهلية والاسلام ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة 1967 .

35 ـ المبرد : الكامل ـ ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (899/286) كتاب الكامل ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم والسيد شحاتة ، مطبعة نهضة مصر القاهرة 1756/1376 .

36 ـ المعري : الغفران ـ ابو العلاء المعري (1058/449) رسالة الغفران ـ تحقيق بنت الشاطي ، دار المعارف مصر 1963 .

37 ـ المغربي : المجمع ، أحيحة بن الجلاح ، مجلة المجمع العلمي العربي دمشق 1922/ص ص 8 ـ 17 .

38 ـ المفضل : الفاخر ـ ابو طالب المفضل بن سلمة بن عاصم (903/291) كتاب الفاخر ، تحقيق عبد العليم الطحاوى القاهرة 1960/1380 .

39 ـ ابن منظور : اللسان ـ ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ـ ابن منظور (1311/711) لسان العرب ـ طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

40 ـ ابن منظور : مختار ـ ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (1311/711) مختار الاغاني في الاخبار والتهاني تحقيق ابراهيم الابياري ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة 1965/1385 .

41 ـ ابن منقذ : لباب ـ اسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني (1188/584) لباب الآداب ، تحقيق احمد محمد شاكر ، الطبعة الرحمانية بمصر 1935/1354 .

42 ـ النحاس : المشهورات ـ ابو جعفر محمد بن محمد النحاس (950/338) شرح القصائد التسع المشهورات ، تحقيق احمد الخطاب دار الحرية بغداد 1973/1393 .

43 ـ النهشلي : الممتع ـ عبد الكريم النهشلي القيرواني (1015/404) اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله ، تقديم وتحقيق الدكتور منجي الكعبي ، الدار العربية للكتاب تونس ليبيا 1978/1398 .

44 ـ ياقوت : بلدان ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (1227/626) معجم البلدان ، دار صادر دار بيروت ـ بيروت .

أشعار أحيحة بن الجلاح في مصادرها

المؤلف	الكتاب	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	
1 نافع	سؤالات		*																	1
2 الاصمعي	الاصعيات				*															1
3 ابن سلام	طبقات		*																	1
4 الجاحظ	بخلاء						*						*	*						3
5 الجاحظ	بيان	*					*							*				*		3
6 الجاحظ	حيوان																			1
7 ابن قتيبة	ادب															*				1
8 ابن قتيبة	عيون													*						1
9 البحتري	حماسة												*	*				*		4
10 المبرد	الفاضل						*											*		1
11 المفضل	الفاخر							*												1
12 القرشي	جمهرة												*							1
13 الظيرى	تفسير		*																	1
14 ابن دريد	جمهرة									*			*							3

أشعار أحيحة بن الجلاح في مصادرها

القطعة		1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	
المؤلف	الكتاب																			
15 الازهري	تهذيب								*											1
16 ابن الانباري	الزاهر												*							1
17 ابن الانباري	السبع الطوال								*											1
18 ابن عبد ربه	العقد													*						1
19 ابن النحاس	التسع المشهورات								*											1
20 الاصفهاني	الاغاني	*		*							*			*			*			5
21 علي بن حمزة	التنبيهات															*				1
22 الخالديان	الاشباه												*							1
23 الجوهري	الصحاح								*											1
24 ابن فارس	مقاييس								*				*							2
25 النهشلي	الممتع				*									*						2
26 المعرى	الغفران												*							1
27 ابن سيدة	المخصص		*																	1
28 ابن عبد البر	بهجة					*														1
29 البكري	مقال											*	*							2
30 البطليوسي	الاقتضاب															*				1
31 الزمخشري	ربيع												*							1
32 الجواليقي	المعرب															*				1
33 ابن الشجري	حماسية		*																	1
34 ابن منقذ	لباب						*										*			2
35 ياقوت	بلدان					*						*		*	*					4
36 ابن ابي الحديد	شرح النهج												*				*			2
37 ابن منظور	اللسان								*				*	*						3
38 ابن منظور	المختار							*					*							2
39 السيوطي	الاتقان		*																	1
40 السيوطي	الدر المثور		*																	1
41 البغدادي	خزانة	*																		1
42 الزبيدي	التاج								*											1

أخبار أحيحة بن الجلاح

لعلّ قدم زمان أحيحة بن الجلاح (1) ووجود سميّ له على الأقل وامتداد عقبه ممن تكنّى باسمه سبب هذا الخلط الشديد في اسم الرّجل وسلسلة آبائه وفي الزمن الذي عاش فيه ، كما أورد ذلك صاحب الاصابة (2) . ومع ذلك فإنّه بالإمكان أن نتبيّن اسم الرجل ونسبه ونتفا من اخباره .

فهو أحيحة بن الجلاح بن حريش ، ويقال الحريس ، (3) بن جحجبي (4) بن كُلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس . هكذا ورد متسلسلا في الاصابة والاشتقاق والسّيرة . وزاد عليه القرشي منفردا بنسبته الى حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الازد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان (5) . وأمّا سائر المصادر فإنّها تقتصر على اسمه واسم أبيه أو على أحدهما . وفي حين اردف الزمخشري اسمه بقوله

---

(1) المشهور أحيحة (وهو تصغير أَحّة بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره) بن الجلاح (والجلاح من الجلح وهو انحسار الشعر عن مقدم الرأس أو السيل الجارف) انظر في تفصيل ذلك : ابن دريد : الاشتقاق (أوس) ؛ ابن منظور اللسان (أحح ، جلح) المغربي : مجلة 9) .

(2) ابن حجر الاصابة I 37 ـ 38 .

(3) ابن هشام : السيرة I 137 .

(4) هذه لم ترد في القرشي : الجمهرة 646 .

(5) المرجع نفسه .

الأوسي (6) ، فإن اصحاب اللسان والتاج وخزانة الأدب عدّوه من الانصار ، وهي تسمية إسلامية تفيد إدراكه للإسلام . وهذا وهم من جملة ما نبّه عليه صاحب الإصابة من أوهام ، وعقب عليه بكونه لا يجوز إلاّ اذا كانت هذه النسبة تساهلا في اللفظ لمّا كان من القبيل المذكور ، وصار لهم هذا الاسم كالنسب ، فذكر في جملتهم لأنّه من إخوانهم .

وإذا كان من المستحيل تاريخ ولادته لانعدام الاشارات المفيدة ، فإن خبر إحدى زيجاته يدلّ على أنه لم يتجاوز مولده مطلع القرن السادس الميلادي على أقصى تقدير : فقد ذُكر أنّه تزوّج سلمى بنت عمرو الخزرجية التي خلف عليها بعده هشام بن عبد مناف فولدت له عبد المطلب جدّ رسول الله (ص) . وأمّا تاريخ وفاته ، فلا تغنينا المصادر بشأنه شيئا أيضا ما عدا قول صاحب الإصابة إنّه مات قبل أن يولَد النبي صلّى الله عليه وسلّم بدهر .

وقد كانت سلمى هذه من بني النجّار من الخزرج ، وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرّجال إلاّ وأمرُها بيدها ، اذا كرهت من رجل شيئا تركته (7) . وقد ولدت لأُحَيْحة عمرا ، وبه تكنّى (8) . وعمرو هذا هو الذي ذُكرفيمن روي من الصحابة ، كما أشار الى ذلك ابن حجر . واورد المرزباني في موشّحه هذا العلم ، وقال إنّه مخضرم ، وأنشد له شعرا (9) . والغالب على الظنّ أنه غير ابن أحيحة ، كما نبّه اليه صاحب الإصابة . على أن لأحيحة شعرا في رثاء ولد له (ق 9) وله شعر آخر يخاطب به بنيه (ق 13) .

---

(6) الزمخشري : ربيع 584 .

(7) الاصبهاني : الأغاني (ثقافة) XV 40 .

(8) النهشلي : الممتع 47 ؛ البغدادي خزانة II 23 .

(9) المرزباني : موشح .

وكان أحيحة سيّدا في الأوس ، موسرا ، صنعا للمال (10) . صاحب زرع وأملاك . وقال عنه الاصبهاني إنه كان له تسعة وتسعون بعيرا (لعلّها بئرا) كلّها ينضح عليها ، في حين جعلها ابن عبد ربّه ثلاثمائة بالزّوراء وحدها (11) . وهي أرض كانت له سمّيت ببئر كانت فيها (12) . وذكر ياقوت أيضا أن له أرضا ، سمّاها قرية حَنَذَ ، تقع بأعراض المدينة ، وفيها نخل لا يتأبر أحيحة إلّا منها (13) . وذكر له أرضا أخرى سمّاها قبابة ، وارضا سمّاها قنابة (14) . وربّما كانت أرضا واحدة صحّف اسمها ، وتحرّف عند بعض المتأخرين فصار الغابة (15) ويتبيّن يسر الرّجل أيضا من امتلاكه حِصْنَيْن ، هما المُسْتَظِلُّ والضَّحْيَانُ ، وكأنه اتخذ الأوّل للتبرّد والثاني للتشمّس ، وقد أشار إليهما في شعره (ق 15) . وقد أنفق عليهما من حرّ ماله الذي اجتمع له من إصلاحه وضمّه إذ كان يقول : « التمرة الى التمرة تمر » كما يقال : « الذود إلى الذَّوْدِ إبِلٌ » (16) . وقد دخل بستانا له فمرّ بتمرة فلقطها فعوتب في ذلك فقال نفس القول (17) .

ولعل هذا التصرف الاقتصادي في أمواله هو الذي جعل أهل زمانه ينسبونه الى البخل . فقد أورد المبرد (18) خبرا يؤكد تبخيل الرجل حيث قال: إنه كان إذا هبّت الصبا طلع أطمه فنظر الى ناحية هبوبها ثم يقول لها : هبّي

---

(10) الاصفهاني : الأغاني (ثقافة) XV 39 .

(11) ابن عبد ربّه : العقد II 338 .

(12) ياقوت : بلدان II 954 [زوراء] .

(13) ياقوت : بلدان II 348 [حنذ] .

(14) نفسه III 46 ، [ضحيان] ؛ IV179 [قنابة] .

(15) البغدادي : نفسه ؛ المغربي 15 ؛ البستاني 342 .

(16) الهنشلي ، نفسه 47 ؛ البكري : مقال 280 .

(17) ابن عبد ربّه : نفسه .

(18) المبرّد : الكامل III 61 ـ 62 .

هبوبك فقد أعددت لك ثلاثمائة وستين صاعا من عجوة ، أدفع الى الوليد منها خمس تمرات ، فيردّ عليّ منها ثلاثا لصلابتها بعد جهدٍ ما يلوك منها اثنتين .

وذكر الاصفهاني أيضا أنّه كان شحيحا على ماله (19) . ولئن ذكره الجاحظ في كتاب البخلاء فإنّه لم يبخله . وربّما كان ذلك لأنّ الجاحظ لم يشأ أن يخالف مقصده من تأليف كتابه ، بتبخيل عربي ، ولو كان بخيلا فعلا ، أو أنّ أحيحه لم يكن بخيلا ، كما تدل على ذلك معاملته لعساكر تبع التي كانت تحاصره في حصنه « ثلاثا يقاتلهم بالنّهار ويرميهم بالنبل والحجارة ، ويرمي إليهم بالليل بالتّمر » (20) .

أمّا أخباره فتقتصر على أحداث قليلة ، منها خبره مع تبع المتقدم ، أبي كرب بن حسّان بن تبع الحميري الذي جمع رؤوس سكان يثرب ليقتلهم ثأرا لابنه الذي خلفه على المدينة ، وكان أحيحة أحدهم ، فلم يغترّ بمخاتلة تبع إياه ، ففاز بنفسه (21) . ومنها أيضا خبر يتعلق بمشاحنة من مشاحنات الأوس والخزرج المعروفة ، وما كان أحيحة ليحرز النجاة فيها لولا تحصّنه بأطمه الذي بناه سنمار غلامه على بعض الروايات (22) بحجارة سود وبنى عليه نبرة بيضاء مثل الفضّة ، ثم جعل عليها مثلها يراها الرّاكب من مسيرة يوم أو نحوه . وكانت هذه الحادثة سبب تطليقه لزوجته المذكورة ، بعد أن أنذرت قومها من الخزرج بما كان أحيحة يدبّر لهم ، وتدلّت من الحصن ليلا لتبليغ أهلها ذلك ، فسمّيت المتدلّية (23) .

---

(19) الاصفهاني : الأغاني XV 39 .

(20) الاصفهاني : الاغاني XV 35 .

(21) يراجع تفاصيل الخبر في الاغاني : نفسه 33 ـ 35 .

(22) السكّري : الهذليين II 746 ؛ وعنه نقل الجواليقي : المعرّب : 195 .

(23) انظر التفاصيل في : الاصفهاني : نفسه .

ومنها أيضا أنه كان صديقا لقيس بن زهير بن جذيمة العبسي . ولما وقع الشرّ بين قيس وبني عامر خرج الى المدينة ليتجهّز لقتالهم بعدما قتل خالد بن جعفر زهيرا والد قيس ، وطلب من أحيحة أن يبيعه درعا ليست بيثرب درع مثلها أو أن يهبها له ، فأبى أحيحة أن يهبه إياها مخافة لوم بني عامر ، لاسيّما أن خالد بن جعفر قد سبق له أن مدح أحيحة بالعزّ ومنع الجار والكرم وسائر الفضائل (24) .

ملاحظات حول أشعار أحيحة بن الجلاح

الملاحظ : ان هذا السيّد ، على ما كان له من منزلة اجتماعيّة ، لم يرد في المصادر التي بين أيدينا أنّ له ديوانا أو أنّ أشعاره قد جمعت .

وقد لاحظ بلاشير (25) « أن الاشعار القليلة المنسوبة إليه لا يمكننا قطعا أن نأخذها مأخذ الجدّ ، على أنه من الممكن افتراضا أن نرى في أحيحة ممثّلا لنادٍ شعري قد ازدهر بيثرب حوالي منتصف القرن السادس » ومهما يكن من أمر فقد رأينا من المفيد أن نجمع هذه « الاشعار القليلة » معلقين عليها من حيث شكلها ومضمونها وقد حصلنا 18 قطعة ينسب بعضها (26) الى ابن قيس بن رفاعة وابي قيس بن الأسلت وهما شاعران جاهليّان يثربيّان . وقد بينّا في جدول مصادر المقطوعات ، فذكرنا عموديا المصادر وقد رتبناها ترتيبا تاريخيّا وذكرنا أفقيّا القطع ، وتشير علامة + الى ورود القطعة المعنيّة بالأمر في المصدر المقابل لها .

ويستنتج من الجدول ان القدماء بداية من القرن الثالث خاصة قد استشهدوا باشعاره كما يستنتج ان اهتمامات هؤلاء القدامى كانت متنوعة اذ

(24) المفضل : الفاخر 162 .

(25) بلاشير : أدب 340/2 .

(26) المقطوعتان 2 و 8 .

فيهم الأدباء واصحاب الاختيارات ، امثال الجاحظ خاصة في البخلاء ، وابن قتيبة والمبرد وابن عبد ربّه والنهشلي ، واللغويون وأصحاب المعاجم اللغوية والجغرافية مثل ابن دريد وابن منظور والزبيدي وياقوت . ولئن لم يعتن به من المعاصرين عناية خاصة بعض اصحاب كتب تاريخ الادب امثال بروكلمان وزيدان فان بلاشير قد خصّه على عادته مع الشعراء ـ المقلّين او المغمورين ـ بفقرة ترجم له فيها وحاول في ايجاز تقييم انتاجه . ولعل محاضرة المغربيّ وفصل دائرة معارف البستاني من اوفى ما كتبه عنه المعاصرون . وقد اعتمدنا كل ذلك قبل اعدادنا هذا العمل لدراسة اشعار الشاعر وجمعها بعد الترجمة له .

ب : 1 ـ هيكل المقطوعات

قد تمكننا من جمع ما ينسب الى احيحة من اشعار ورتبناها حسب الجدول التالي ، ووضعنا في الوادي الأوّل عدد الابيات حسب ترتيب تنازليّ ، وفي الثاني عدد المقطوعات ، وفي الثالث ارقامها ، وفي الرابع مجموع الابيات .

عدد الأبيات	عدد المقطوعات	أرقام المقطوعات	مجموع الأبيات
24	1	12	24
7	2	13 ـ 1	14
5	1	7	5
4	2	11 ـ 4	8
3	3	17 ـ 10 ـ 6	9
2،5	1	14	2،5
2	3	18 ـ 5 ـ 3	6
1	4	16 ـ 15 ـ 8 ـ 2	4
0،5	1	9	0،5
	18	18	73

فالملاحظ ان لأحيجة اذا ما اعتبرنا أنّ القصيدة تتكون من سبعة ابيات فما فوق ، ثلاثَ قصائد أطولُها قصيدة ذات اربعة وعشرين بيتا . اما بقية الاشعار فقد تضمنتها خمس عشرة مقطوعة مما يدل على غلبة المقطوعات على القصائد ، ولسائل ان يتساءل هل هذه خاصية مميّزة له تدلّ على قِصَر النفس ام ان ما وصلنا لا يعدو كونه بقيّة قصائد ؟ على أن اكثر القطع جاءت متكاملة او موحّدة الموضوع ، وهي في الحكمة على الاغلب . ولم يرد في هذه الاشعار الا قصيدة واحدة تبدو خاضعة لنموذج القصيدة التقليدية . فالقطعة رقم 1 تشتمل على قسم في النّسيب (1 ـ 4) وقسم في الفخر (5 ـ 7) واذا اخذنا بالراي الثاني امكننا ان نعُدّه من ممثّلي الشعر القديم . فهل في البحور التي استعملها ما يؤكد هذا الحكم ؟ وفيما يلي جدولها .

جــدول البحــور

البحر	عدد القطع وارقامها
الوافر	5 (2، 4، 7، 10، 12)
الرجز	3 (9، 14، 18)
البسيط	2 (6، 13)
المنسرح	2 (1، 5)
الطويل	1 (11)
مجزوء الكامل	1 (17)
الخفيف	2 (3، 15)
السّريع	1 (8)
الرمل	1 (16)
9 بحور	18

نرى انه استعمل تسعة بحور يحتلّ فيها الوافر المرتبة الاولى ولا يرد الطويل ـ وهو أمرٌ جدير بالملاحظة ـ الا مرة واحدة ، كما يجدر ان نلاحظ ورود بحور قليلة الاستعمال عادة في عصر هذا الشاعر مثل المنسرح والسّريع والخفيف ولعل ذلك يدلّ على عدم خضوع الشاعر الى المألوف في عصره . فهل يتأكّد هذا الحكم باعتبار القوافي ؟ وفي ما يلي جدولها .

جـدول القوافـي

القافية	عدد القطع وارقامها
اللام	6 (11، 12، 13، 14، 15، 16)
الفاء	3 (8، 9، 10)
الباء	1 (1)
التاء	2 (2، 3)
الدال	1 (4)
الراء	1 (5)
السين	1 (6)
العين	1 (7)
النون	1 (17)
الياء	1 (18)

استعمل الشاعر عشرة حروف رويًّا تحتل اللام فيها ثلث المقطوعات ويليها الفاء في ثلاث قطع والتاء في قطعتين ، وبقية الحروف في قطعة واحدة . وهي حروف سهلة المخارج وليس فيها صعب النطق الا العين ولعل سهولتها هي التي يسّرت استعمالها وهذا أمر مالوف عند شعراء الحضر المتميّزين عن شعراء البدو بالميل الى المالوف من القوافي .

مـضـامـيـن أشـعـار أحـيـحـة

يسهل تصنيف القطع المنسوبة الى أحيحة بن الجلاح تصنيفا حسب المضامين فاذا ما استثنينا ق 9 التي يصف فيها نباتا شائكا و ق 11 التي يرثي فيها ابنه فإن الغرضين الاساسيين الغالبينْ على أشعاره هما غرضا الفخر والحكمة .

اما الفخر فقد جاء في القطع 2، 5، 7، 8، 18، . وهي تهمّ فخره بالحلم والاباء والسلاح وكثرة النخيل والمال .

وأمّا الحكمة فقد تضمنتها القطع 4 ، 6 ، 12 ، 13 ، 14 ، 15 ، 17 ، وقد اشار في القطع 14 ، 15 ، 17 ، الى أن جليل الامور قد يكون من صغيرها والى وجوب لزوم الحذر ثم الى فضل الصمت على المنطق .

أمّا سائر القطع فان الحكمة فيها تحوم حول قيمة المال . فقد ابرز في القطعة الرابعة وخاصة في البيت الثاني شدّة تعلق المرأة ببعلها اذا كان ذا مال . وقد ذهب به تأكيده قيمة المال في تفضيله على قرابة كل ذي قربي وذي رحم اذ الغني من استغنى عن الناس ، كما يتبين ذلك في القطعة السادسة . ويتبين القارىء من تفصيل مضامين مختلف مقطوعاته ان الشاعر يولي المال منزلة هامة . وهذه ظاهرة مرتبطة بحياته الاجتماعية اذ انه يثربي وبتجربته الشخصية كما سبق ان اشرنا الى خصومته مع امرأته .

ملاحظات ختامية :

ويتضح من مجموع هذه القطع باعتبار شكلها ومضمونها على حد السواء ان الشاعر اقرب الى الحضر منه الى البدو . فاصطناع المال والضن به بل وتقديسه ـ وهو الموضوع الغالب على الاشعار ـ ظاهرة حضرية . ثم ان صياغة هذه الاشعار ـ وقد خرجت في جملتها على قالب القصيدة التقليدي ـ جاءت في لغة سهلة تميزها عن اشعار البدو وسنة الصحراء .

وهذه ميزة تجعل اشعار احيحة بن الجلاح جديرة بالعناية . وفي ذلك عناية بالشعر الحضري القديم الذي يبدو ان عوامل كثيرة قد تظافرت بعد الاسلام على اهماله وليس اقلها جزالة الشعر البدوي وقوّته .

أشعار أحيحة بن الجلاح

- 1 -

(المنسرح)

1 يَشْتَاقُ قَلْبِي إِلَى مُلَيْكَةَ لَوْ أَمْسَتْ قَرِيبًا مَنْ يُطَالِبُهَا
2 مَا أَحْسَنَ الجِيدَ مِنْ مُلَيْكَةَ وَاللَّبَاتِ إِذْ زَانَهَا تَرَائِبُهَا
3 يَا لَيْتَنِي لَيْلَةً إِذَا هَجَعَ النَّاسُ وَنَامَ الكِلَابُ صَاحِبُهَا
4 فِي لَيْلَةٍ لَا يُرَى بِهَا أَحَدٌ يَسْعَى عَلَيْنَا إِلَّا كَوَاكِبُهَا
5 لِتَبْكِنِي قَيْنَةٌ وَمِزْهَرُهَا وَلْتَبْكِنِي قَهْوَةٌ وَشَارِبُهَا
6 وَلْتَبْكِنِي نَاقَةٌ إِذَا رَحَلَتْ وَغَابَ فِي سَرْدَحٍ مَنَاكِبُهَا
7 وَلْتَبْكِنِي عُصْبَةٌ إِذَا جُمِعَتْ لَمْ يَعْلَمِ النَّاسُ مَا عَوَاقِبُهَا

التخريج :

1 الجاحظ : حيوان I 368 (3،2) II ـ 60 (3)
2 الاصبهاني : الاغاني III ـ 119 (1 ـ 4) 120 (1، 5، 7)
3 البغدادي : الخزانة II ـ 19 (4) 20 (1 ـ 7) 21 (2 ـ 4)

اختلاف الروايات :

4 في 2 لا نرى بها احدا/يحكي ..
7 في 1/الناس من ...

- 2 -

(وافر)

1 وَذِي ضِغْنٍ كَفَفْتُ النَّفْسَ عَنْهُ وَكُنْتُ عَلَى مَسَاءَتِهِ مُقِيتًا

التخريج :

1 سؤالات نافع 27 (1) [عن ابن الأنباري الزاهر] ولم نطّلع عليه
2 ابن سلام : طبقات I ـ 289 (1) (ضمن سبعة بيات منسوبة الى ابي قيس ابن رفاعة)
3 الطبرى التفسير V/182 [عن ابن الأنباري الزاهر] ولم نطلّع عليه
4 ابن الانبارى : الزاهر I ـ 188 (1) [الشاعر]
5 ابن سيده : المخصص II ـ 91 (1) [بدون عزو]
6 ابن الشجري : الحماسة I ـ 91 (1) [قيس بن رفاعة ضمن سبعة ابيات]
7 السيوطي : الاتقان : II/70
8 السيوطي : الدار المنثور II ـ 188 (1) [أحيحة بن الانصاري]

اختلاف الروايات :

في 2 : / ... مقيت

في 2 : / ... / واني .. مقيت

ـ 3 ـ

(خفيف)

1 أَخْلَقَ الرّبعُ من سُعاد فأمسى ربعُه مخلِقا كـدرسِ المُلاة
2 باليا بعد حاضرٍ ذي أنيسٍ من سليمى إذ تغتدي كالمهاةِ

التخريج :

الاصبهاني : الاغاني XIII 125 (1 ـ 2) وفيه أنها قصيدة طويلة .

- 4 -

(الوافـر)

1 أَطَعْتُ العِرْسَ فِي الشَّهَوَاتِ حَتَّى أَصَـارتني عَسِيفًا عَبْـدَ عَبْـدِ
2 إذَا مَا جِئْتُهَا قَدْ بِعْتُ عِذْقًا تُعَـانِقُ أَوْ تُقَبِّـلُ أَوْ تُفَـدِّي
3 فَمَنْ نَـالَ الغِنَى فَلْيَصْـطَنِعْـهُ صَنِيعَتَـهُ وَيَجْهَدْ كُـلَّ جُهْـدِ
4 أُعَـلِّمُكُمْ وَقَـدْ أَرْدَيْتُ نَـفْسِي فَمَنْ أَهْدِي سَبِيلَ الرُّشْدِ بَعْدِي

التخريج :

1 الاصمعي : الاصمعيات 33 (1 ـ 4)
2 النهشلي : الممتع 46 (1، 3، 4)

اختلاف الروايات :

3 في 2 : فمن وجد الغنى ... ذخيرته .

- 5 -

(المنسـرح)

1 إنِّي وَالمَشْعَـرِ الحَـرَامِ وَمَـا حَجَّتْ قُرَيْشٌ لَهُ وَمَا شَعَرُوا
2 لَا آخذُ الخُطَّةَ الدَّنِيَّةَ مَـا دَامَ يُرَى مِنْ تُضَارِعٍ حَجَرُ

التخريج :

ياقوت : بلدان I ـ 852 ثم 111II (1 ـ 2) وفيه : 1 : له وما نحروا .

- 6 -

(بسيـط)

1 اسْتَغْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إنَّ الغَنِيَّ مَنِ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ
2 وَالبِسْ عَدُوَّكَ فِي رِفْقٍ وَفِي دَعَةٍ لِبَاسَ ذِي إِرْبَةٍ لِلدَّهْرِ لَبَّاسِ
3 وَلَا تَغُـرَّنْكَ أَضْغَـانٌ مُزَمَّلَةٌ قَدْ يُضْرَبُ الدَّبِرُ الدَّامِي بِأَحْلَاسِ

التخريج :

1 الجاحظ : نجلاء 182 (1 ـ 3)
2 الجاحظ : بيان II ـ 361 (1 ـ 3)
3 البحتري : حماسة 14 (2 ـ 3)
4 ابن عبد البر : بهجة I ـ 213 (1 ـ 2)
5 ابن منقذ : لباب 356 (1 ـ 2)

اختلاف الروايات :

2 في 3 : البس . . ./اطوار . . . وفي 5 . . ./لباس ذي اربة للناس
3 في 5 . . ./ قد يركب

ـ 7 ـ

(الوافــر)

1 أَلَا يَا قَيْسُ لَا تَسْمَنَّ دِرْعِي ... فَمَا مِثْلِي يُسَاوَمُ بِالدُّرُوعِ
2 فَلَوْلَا خُلَّةٌ لِأَبِي جُزَيْءٍ ... وَأَنِّي لَسْتُ عَنْهَا بِالنَّزُوعِ
3 لَأَبْتُ بِمِثْلِهَا عُشْرٍ وَطِرفٍ ... لَحُوقِ الإِطْلِ جَيَّاشٍ تَلِيعِ
4 وَلَكِنْ سَمِّ مَا أَحْبَبْتَ فِيهَا ... فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ يُمْنُ البُيُوعِ
5 فَمَا هِبَةُ الدُّرُوعِ أَخَا بَغِيضٍ ... وَلَا الخَيْلِ السَّوَابِقِ بِالبَدِيعِ

التخريج :

1 المفضل : الفاخر 163 (1 ـ 5)
2 ابن منظور : مختار I ، 360 (1 ـ 4)

اختلاف الروايات :

2 في 2 لابي جويً
3 في 2 انلتكها مصاحبة لطرف
4 في 2 . . . / بمنكر غبن

- 8 -

(سريـع)

1 إِذَا جُمَادَى مَنَعَتْ قَطْرَهَا زَانَ جَنَابِي عَطَنٌ مُعْصِفُ

التخريج :

1 ابن الانباري : السبع الطوال 544 (1)

2 ابن النحاس : المشهورات I 388 (1)

3 الازهري : تهذيب III 15 (1)

4 الجوهري : الصحاح IV 1404 مادة [عطب] (ابو قيس بن الاسلت (وفي الهامش لاحيحه)

5 ابن فارس : مقاييس IV 328 (1)

6 ابن منظور : اللسان [جمد] (بعض الانصار) (1) و [عصف] (وانشد) و [غضف]

7 الزبيدي : التاج [جمد] (1)

اختلاف الروايات

في 3 و 7 ... / مُغضف

في 6 [عصف] / زان جناني

التعليق : في اللسان [جمد] يعني نخلا يقول اذا لم يكن المطر الذي به العشب يزين مواضع الناس فجناني تزيّن بالنخل وفي [غضف] اراد بالعطش ههنا نخيله الراسخة في الماء الكثيرة الحمل .

- 9 -

(متقـارب)

بِأَكْنَافِهِ الشُّوعُ وَالغِرْيَفُ

التخريج :

ابن دريد : الجمهرة III ـ 353.62

ـ 10 ـ

(الوافـر)

1 ألا يـا لهفَ نفسِي أيَّ لهفِ … على أهل الفَقَـارَةِ كـلَّ لهفِ
2 مضـوا قصْدَ السبيـل وخلّفوني … إلى خَلفٍ من الأبْـرام خلفي
3 سُـدًى لا يكتِفُـونَ ولا أراهم … يصـونون امـرأً إن كان يكفي

التخريج :

الاصفهاني : الأغاني XIII 122 (1 ـ 3)

ـ 11 ـ

(الطويـل)

1 ألَا إنَّ عَيْنِي بِـالْبُكَـاءِ تَهَلَّلُ … جَزُوعٌ صَبُورٌ كُلَّ ذَلِكَ تَفْعَلُ
2 فَإنْ تَعْتَـرِينِي بِـالنَّهَارِ كَـآبَةٌ … فَلَيْلِي إذَا أُمْسِي أَمَرُّ وَأَطْوَلُ
3 فَمَا هِبْـرِزِيٌّ مِنْ دَنَـانِيـرِ أَيْلَةٍ … بِـأَيْدِي الـوُشَاةِ نَـاصِعٌ يَتَـأَكَّلُ
4 بِأَحْسَنَ مِنْهُ يَوْمَ أَصْبَحَ غَـادِيًا … وَنَفَّسَنِي فِيـهِ الحِمَـامُ المُعَجَّـلُ

التخريج :

ياقوت : بلدان I ـ 422 [ايلة] (1 ـ 4)

ـ 12 ـ

(الوافـر)

1 صَحَوْتُ عَنِ الصِّبَا وَالدَّهْرُ غُولُ … وَنَـفْسُ المَـرْءِ آوِنَـةً تَـزُولُ
2 وَ لَـوْ أنِّي أَشَاءُ نَعِمْتُ خَـالًا … وَبَـاكَرَنِي صَبُـوحٌ أَوْ نَشِيـلُ
3 وَلَاعَبَنِي عَـلَى الأَنْمَـاطِ لُعْسٌ … عَـلَى أَفْـوَاهِهِنَّ الـزَّنْـجَبِيـلُ
4 وَلَـكِنِّي جَـعَـلْتُ إزَايَ مَـالِي … فَـأُقْلِلُ بَعْدَ ذَلِـكَ أَوْ أُنِيلُ

5 فَهَـلْ مِنْ كَـاهِنٍ أَوْذِي إلاهٍ ... إذَا مَـا حَانَ مِنْ رَبٍّ أُفُولُ
6 يُـرَاهِنُنِي فَيَـرْهَنُنِي بَنِيـهِ ... وَأَرْهَنُـهُ بَـنِيَّ بِهَـا أَقُـولُ
7 وَمَـا يَـدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ ... وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ الغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ
8 وَمَا تَدْرِي وَإِنْ أَلْقَحْتَ شَوْلًا ... أَتَلْقَحُ بَعْدَ ذَلِـكَ أَمْ تَحِيلُ
9 وَمَا تَدْرِي ، إذَا ذَمَّرْتَ سَقْبًا ... لِغَيْرِكَ أَمْ يَكُونُ لَـكَ الفَصِيلُ
10 وَمَـا تَدْرِي وَإِنْ أَجْمَعْتَ أَمْرًا ... بِـأَيِّ الأَرْضِ يُدْرِكُـكَ المَقِيلُ
11 لَعَمْرُ أَبِيكَ مَـا يُغْنِي مَقَامِي ... مِنْ الفِتْيَـانِ أَنْجِبَـةٌ حُفُـولُ
12 يَـرُومَ وَلَا يُقَلِّصُ مُشْمَعِلًّا ... عَنِ العَـوْرَاءِ مَضْجَعَهُ ثَقِيلُ
13 تَبُـوعُ لِلْحَلِيلَةِ حَيْثُ كَـانَتْ ... كَـمَا يَعْتَـادُ لِقْحَتَـهُ الفَصِيـلُ
14 إذَا مَـا بِتُّ أَعْصِبُهَـا فَبَـاتَتْ ... عَلَيَّ، مَكَانَهَا، الحُمَّى النُّسُولُ
15 لَعَـلَّ عِصَابَهَـا يَـأْتِيكَ حَرْبًا ... وَيَـأْتِيهِمْ بِعَوْرَتِـكَ الـدَّلِيـلُ
16 وَقَـدْ أَعْدَدْتُ لِلْحَدْثَانِ حِصْنًا ... لَـوْ أَنَّ المَرْءَ تَنْفَعُـهُ العُقُولُ
17 طَوِيلَ الـرَّأْسِ أَبْيَضَ مُشْمَخِرًّا ... يَلُوحُ كَـأَنَّـهُ سَيْـفٌ صَقِيـلُ
18 جَـلَاهُ القَيْنُ ثُمَّتَ لَمْ تَشِنْـهُ ... بِشَـائِنَـةٍ ، وَلَا فِيـهُ فُلُولُ
19 هُنَـالِـكَ لَا يُشَـاكِلُنِي لَئِيمٌ ... لَـهُ حَسَبٌ أَلَفُّ وَلَا دَخِيـلُ
20 وَقَـدْ عَلِمَتْ بَنُـو عَمْـرٍو بِـأَنِّي ... مِنَ السَّـرَوَاتِ أَعْدَلُ مَـا يَمِيلُ
21 وَمَـا مِنْ إِخْوَةٍ كَثُـرُوا وَطَابُوا ... بِنَـاشِئَـةٍ ، لِأُمِّـهِـمُ الهُبُـولُ
22 سَتَثْكُـلُ ، أَوْ يُفَـارِقُهَا بَنُـوهَا ... سَرِيعًـا ، أَوْ يَهُمُّ بِهِمْ قَبِيـلُ
23 تَفَهَّمْ أَيُّهَـا الـرَّجُـلُ الجَهُـولُ ... وَلَا يَذْهَبْ بِكَ الرَّأْيُ الوَبِيـلُ
24 فَـإِنَّ الجَـهْـلَ مَحْمَلُهُ خَفِيفٌ ... وَإِنَّ الحِلْمَ مَحْمَـلُهُ ثَقِيـلُ

التخريج :

1 الجاحظ : نجلا 182 (1 ـ 4)

2 البحتري : حماسة 124 (7) و 125 (10،8) و 228 (21 ـ 22)

3 القرشي : جمهرة I ، 21 (7) و II، 646 ـ 650 (1 ـ 22)
4 ابن دريد : جمهرة III 141 (7)
5 ابن الانباري : الزاهر I 239 (7) [قال الشاعر]
6 الخالديان : الاشباه I 16 (20 ، 16 ، 11 ، 5 ، 7 ، 10 ، 9 ، 8)
7 ابن فارس : مقاييس II 360 (9) III326 (11) 70VI (16)
8 المعري : الغفران 554 (1)
9 البكري : مقال 186 (7 ، 10 ، 8)
10 الزمخشري : ربيع I 584 (7 ، 8 ، 10)
11 ابن ابي الحديد : شرح النهج XIX 179 (7 ، 8 ، 10)
12 ابن منظور : المختار I 358 (23 ، 24 ، 11 ، 13 ، 16)
13 ابن منظور : اللسان [عيل] (5 ـ 7 ، 10)

اختلاف الروايات :

1 في 8 ... واللهوغول / ... ملول
4 في 1 ولكني خلقت إذا لمال / فأبخل ...
5 في 4 فمن شاكا هنا او ذا اله / ... من إلّ نزول
في 6 / اذا ما كان من قدر نزول
في 13 / اذا ما كان من ربّي قفول
7 في 4 فما . وفي 10 / ... يعول
8 في 6 : لما.وفي 10 وما تدري اذا.وفي 2 و 4 و 9 و 11 اذا أضربت
10 في 2 و 7 و 9 و 13 اذا أزمعت امرا . وفي 11 : ازمعت سيرا
11 في 7 : لا وابيك لا يغني غنائي / ... زميل كسول
في 6 : ... يغني مكاني / ... زمّيل كسول
في 12 / ... رائحة جهول

12 في 12 نؤوم ما تقلّص مستقلا / عن الغلبات

13 في 12 ... حيث حلت

6 في 7 : ... صعبا وفي 10 ... اصلا

20 في 6 : ... سراة الاوس أنّي / من الفتيان أعدل لا أميل

21 في 6 : اذا ما اخوة / فإنّهم

22 في 6 : / يموت اويرعهم قتيل .

- 13 -

(البسيـط)

1 اسْتَغن أَوْ مُتْ وَلاَ يَغْرُرْكَ ذُو نَشَبٍ ... مِن ابْنِ عَمٍّ وَلاَ عَمٍّ وَلاَ خَالِ

2 يَلْوُونَ مَا عِنْدَهُمْ عَنْ حَقِّ جَارِهِمُ ... وَعَنْ عَشِيرَتِهِمْ والمَالُ بِالـوَالِي

3 فَاجْمَعْ وَلاَ تَحْقِرَنْ شَيْئًا تُجَمِّعُهُ ... وَلاَ تُضِيعَنْهُ يَوْمًا عَلَى حَالِ

4 إنِّي أُقِيمُ عَلَى الزَّوْرَاءِ أَعْمُرُهَا ... إنَّ الحَبِيبَ إلى الإِخْوَانِ ذُو المَالِ

5 بِهَا ثَلاَثُ بِنَاءٍ فِي جَوَانِبِهَا ... فَكُلُّهَا عَقِبٌ تُسْقَى بِأَقْبَالِ

6 كُلُّ النِّدَاءِ إِذَا نَادَيْتُ يَخْذُلُنِي ... إلاَّ نِدَائِي إِذَا نَادَيْتُ يَامَالِي

7 مَا إنْ أَقُولُ لِشَيْءٍ حِينَ أَفْعَلُهُ ... لاَ أَسْتَطِيعُ وَلاَ يَنْبُو عَلَى حَالِ

التخريج :

1 الجاحظ : بخلاء 182 (1 ، 4)

2 الجاحظ : بيان I ـ 361 (1 ، 4 ، 2)

3 ابن قتيبة : عيون I 240 (1 ، 2 ، 4 ، 6)

4 البحتري : حماسة 216 (4)

5 ابن عبد ربّه : العقد II ـ 338 (4 ، 1) و 339 (6)

6 الاصفهاني : الاغاني III 119 (4 ، 5 ، 1) ثم (1 ، 2)

7 النهشلي : الممتع 46 (4 ، 5 ، 1)

8 البكري : مقال 282 (1 ، 4)
9 ياقوت : بلدان II 954 [الزوراء] (1 ـ 7)
10 ابن منظور : اللسان [زور] (4)

اختلاف الروايات :

1 في 4 و 5 و 7 و 9 و 10 ذو نسب
في 7 : ذو حسب
في 5 : فلايغرنك ذو قربي وذو ونشب / من ابن عم ومن ابن عم ومن خال
في 3 / وعن صديقهم والمال بالعال .
2 في 2 و 3 و 6 : ما عندهم من حق اقربهم
4 في 12 و 2 اني اكب وفي 3 : ولا ازال وفي 4 : ولن ازال
في 5 و 7 و 8 : اني مقيم
في 1 و 2 و 3 و 5 و 6 و 7 و 10 / إن الكريم على . . .
5 في 6 و 7 : بها ثلاث بثار
في 6 / في كلها عقب يسعى باقبال

ـ 14 ـ

(الرجز)

1 وَإِنَّمَا النَّخْلُ مِنَ الفسيلِ كَذَلِكَ القَوْمُ مِنَ الأَفِيلِ
2 تَأَبَّرِي يَاخِيرَةَ الفَسِيلِ تَأَبَّرِي مِنْ حَنَذٍ وَ شُولِي
إِذَا ضَنَّ أَهْلُ النَّخْلِ بالفُحُولِ

التخريج :

ابن دريد : الجمهرة III 39 (1)
ياقوت : بلدان [حنذ] II 348 (2 و 3)

- 15 -

(الخفيـف)

1 يَابَنِيَّ التُّخُوم لَا تَظْلِمُوهَـا إنَّ ظُلْمَ التُّخُوم ذُو عُقَّالِ

التخريج : 1 ابن قتيبة : أدب 305 (1) [أشد الاصمعي] « وفي الهامش لأحيحة بن الجلاح يقوله لبنيه »

2 علي بن حمزة : التنبيهات : 296 (1) « وفي الهامش إشارة الى الاقتضاب والى السّيرة . وهو فيها م 1 ، 511 ضمن قصيدة نسبها ابن هشام الى أبي قيس بن أبي أنس »

3 الجواليقي : المعرب 135 (1) [انشد لامراة]

4 البطليوسي : الاقتضاب 386 .

5 اللسان : [عقل] (1)

- 16 -

(رمـل ؟)

1 ليتَ حـظِّي مـن أبي كَـرَبٍ أن يـردّ خـيـرُه خَـبَـلَهْ

التخريج :

الاصبهاني : الأغاني XIII 120 (1) . ورد البيت منثورا ، وقيل إنه ذهب مثلا .

- 17 -

(مجزوء الكامـل)

1 وَالـصَّـمْـتُ خَـيْرٌ لِـلْفَـتَى مَـا لَمْ يَكُنْ عِيٌّ يَشِينُـهْ

2 وَالـقَـوْلُ ذُو خَـطَلٍ إذَا مَـا لَمْ يَكُـن لُـبٌّ يُعِينُـهْ

3 وَالَمـرْءُ قَدْ يَـرْجُو الـرَّجَـاءَ مُـغَـيَّـبًـا والَمـوْتُ دُونَـهْ

التخريج :

1 الجاحظ : بيان I ـ 5 (1 ـ 2) ثم II، 275 (1 ـ 2)
2 البحتري : حماسة 217 (3)
3 المبرد : الفاضل 7 (1 ـ 2)
4 ابن منقذ : لباب 277 (1 ـ 2)
5 ابن ابي الحديد : شرح النهج XIII / 17 (1 ـ 2)

اختلاف الروايات :

1 في 1 ص 275 وفي 4 و 5 أجمل بالفتى وفي 3 : أحسن بالفتى
2 في 5 : لب يزينه

ـ 18 ـ

(رجــز)

1 بَنَيْتُ بَعْدَ مُسْتَظَلٍّ ضَاحِيًا بَنَيْتُهُ بِعُصْبَةٍ مِنْ مَـالِيَـا
2 لِلشَّرِّ مِمَّا يَتْبَعُ القَـوَاضِيَـا أَخْشَى رَكِيبًا أَوْ رَجِيلاً غَادِيَا

التخريج :

البغدادي : خزانة I / 23

صالح البكاري ـ الطيّب العشّاس

ثلاث ترجمات لكتاب فردينان دي سوسير

بقلم : عز الدين المجدوب

حظي كتاب فردينان دي سوسير في الفترة الاخيرة بعناية كبيرة من قبل الباحثين العرب فظهرت له خلال سنتي 1984 و 1985 ثلاث ترجمات وقد تظهر له ترجمة رابعة (1) ولكأن العرب يحاولون تدارك مافاتهم من أمر هذا الكتاب الفذ وقد مضى اليوم على نشره سبعون سنة (2) تداوله فيها الناس وتناهبه الباحثون فكان له من الأثر ما هو معلوم في علم اللسانيات والثقافة العالمية بوجه عام .

وقد يبدو تأخر العرب عن ترجمة هذا الكتاب أمرا غريبا بالنظر الى قيمة الكتاب وخطره ولكن أسبابًا كثيرة تفسّر هذا النقص في المكتبة العربية وربّما تبرّره .

منها جدة هذا العلم الطارىء على العرب فهم لم يكادوا يهتمون به الا أخيرا ولم يقتنع الناس بأهميته وجدواه بالنسبة الى الدراسات اللغوية وغيرها الا في العشريتين السابقتين مع تفاوت بين البلدان العربية وقد كان لا بد من وقت

---

1) عن الدكتور مالك يوسف المطلبي أن الدكتور عبد الرحمان بلحاج صالح يعكف على اعداد الترجمة الكاملة لدروس في اللسانيات العامة . انظر ص 14 من « علم اللغة العام » . تأليف ف. سوسير ترجمة يؤئيل يوسف عزيز ومراجعة النص العربي الدكتور مالك يوسف المطلبي .

2) ظهر الكتاب أول مرة سنة 1916 .

تأنس فيه الأوساط العلمية والجامعيّة بهذا العلم وتشيع فيها مفاهيمه ومناهجه قبل أن يتصدّى الناس لتعريب أمهات مصنفاته ونقل مصطلحاته ، ولا يخفى ما في ذلك من عسر وما يتطلبه من فطنه وصنعه .

وأيضا فان في هذا الكتاب صعابا راجع بعضها الى الفترة التاريخيّة التي شهدت ظهوره وراجع بعضها الآخر الى نشره وما حف به من ملابسات وما كان فيه من قصّة طريفة تجعل ترجمته الى العربية أمرا عسيرا ومركبا شاقا .

ظهر هذا الكتاب قريب العهد من اللسانيات التاريخية أيام كانت المقارنة بين اللغات وأطوارها وما يقوم بينها من علاقات موضوع اللسانيات وقوام ثقافة المختصين فيها لذلك لم نستغرب فيه كثرة الشواهد المستمدة من لغات مختلفة أو الممثلة لأطوار تاريخية مختلفة للغة واحدة . وهي دقائق لا يتيسّر الالمام بها من قبل عامة المثقفين العرب ويعسر ايجاد نظير لها في العربية .

وكان هذا الكتاب كذلك رهين فترة تاريخية معينة وشاهدا من شواهد تطور هذا العلم . فقد وردت فيه مصطلحات عديدة استعملها صاحب الكتاب بمعنى ثم تطور علم اللسانيات فاكسبها محتوى جديدا يخالف مضمونها عند دي سوسير ان لم يناقضه فوجب الالمام بكل ذلك والاحتيال ان أمكن للوفاء لجانبها الوثائقي .

ولم تكن ظروف تأليف الكتاب ونشره أقل صعوبات الكتاب ومزالقه . فهذا كتاب ينسب تجوزا الى فردينان دي سوسير وانما هو من صياغة طلبته وعملهم . نقول ذلك لنلفت الانتباه الى ما كان لطلبته من دور حاسم في تحرير هذا الكتاب واخراجه وما كان لهم فيه من تصرّف شهدت به مقدمة الناشرين . وهي وثيقة أساسية لم يولها اللسانيون دائما ما تستحق من قيمة (3)

3) انظر ص 407 ـ الهامش 16 من Cours de Linguistique Générale F. de Saussure. Edition critique préparée par Tullio de Mauro edi. Payot

وسنرمز اليها بـ : C.L.G

ولم يقدر الناس قيمتها الا بعد ظهور اعمال علمية جليلة (4) عادت الى المصادر المخطوطة وقارنت بينها وبين النص الذي أخرج للجمهور وكشفت عن طريقة الناشرين في العمل ومختلف اجتهاداتهم . ذلك أن فردينان دي سوسير فكر في تأليف هذا الكتاب سنة 1894 (5) ولكنه أعرض عنه في آخر حياته حسب شهادة أحد طلبته سنة 1909 (6) وانما حرص على اخراجه للناس بعد موته اثنان من مريدية هما « شارل بالي وألبار سيشهاى » أرادا أن يحفظا ذكراه من النسيان تخليدا لدروس بديعة كانت له بين سنة 1906/1907 و 1908/1909 و 1910/1911 .

فلما عادا الى مذكراته لم يجدا شيئا من هذه الدروس لأن الرجل كان يرتجل ثم يتلف ما كان يستعين به من جذاذات . ولم يبق لهما من وثيقة يعولان عليها الا ما قيده طلبته .

فجمعا تقييداتهم وقابلا بينها وحققاها وتوفرت عندهما مادة تلك الدروس . الا أنها كانت غير قابلة للنشر على صورتها تلك لغلبة طابع الارتجال عليها . وبعد أخذ ورد قَرَّ قرارهما على أن يقدما انطلاقا من الدرس الثالث وبالاعتماد على كل ما توفر بين ايديهما من موادّ بما في ذلك المذكرات الخاصة ،

---

4) هي :

أ) a) Robert Godel : Les sources manuscrites du cours de Linguistique générale de Ferdiand de Saussure, Librairie DROZ. Genève, Rudolf Engler

ب) b) Cours de Linguistique de F. de Saussure : éd critique Harrassowitz .

ج) والطبعة المحققة التي أعدها توليودى مورو . وقد ظهرت أول مرة بالايطالية .

c) Ferdinand de Saussure, Corso di linguistica generale. introduzione, traduzione e comento di Tullio de Mauro, Bari Edizioni Laterza, 1ère ed. 1967.

وترجمت مقدمة المحقق وهوامشه من قبل لوى جان كالفي Louis-Jean Calvet وقدّم عمل توليودي مورو في كراسات فردينان دي سوسير إيزو بومر Iso BAUMER

انــظر Cahiers de F. de Saussure N° 24-1968 p 85-94

5) أنظر ص 31 من كتاب روبار ڤودال :

Robert Godel : Les sources manuscrites du cours de Linguistique générale de F. de Saussure .

6) نفس المصدر ص 31 .

صياغة جديدة لفكر معلّمهم وخلاصة تأليفية له وهي كما يقولون خلق جديد له (7) .

ولكنّهما لم يوفقا دائما في فهم فكر معلّمهم وفي اعادة صياغته وقد انعكس ذلك على متن الكتاب فكان فيه بعض التردد في المصطلح (8) ولم يخل أحيانا من الغموض والتناقض (9) .

أضف الى كل هذه الصعوبات بعض الاخطاء المطبعية التي تسربت الى النص الأصلي في طبعاته المختلفة (10) .

لهذه الأسباب كلّها يمثل ظهور ترجمات ثلاث لكتاب فردينان دي سوسير حدثا هامّا في تاريخ اللسانيات العربية يمكن أن نقيس به مدى تقدم العرب في هذا العلم ومدى رسوخ قدمه في ديارهم . ولا يكون ذلك الا باستعراض هذه الترجمات وتقييمها ، وذلك موضوع هذا العمل .

كانت هذه الترجمات متفاوتة مختلفة الحظ فيما يطلبه أصحابها منها ومدى وعيهم بأهمية ترجمة هذا الكتاب الى العربية وتقدير للصعوبات التي يمثلها وهي على التوالي :

---

7) « Nous nous sommes arrêtés à une solution plus hardie, mais aussi, croyons - nous , plus rationnelle : tenter une reconstruction, une synthèse, sur la base du troisième cours, en utilisant tous les matériaux dont nous disposions y compris les notes personnelles de F. de Saussure. Il s'agissait d'une recréation d'autant plus malaisée qu'elle devait être entièrement objective.

أنظر ص 9 من : C.L.G.

8) أنظر ص 112 من : R. Godel : Les Sources manuscrites du C.L.G و ص 407 الهامش 13 من C.L.G تحقيق توليودي مورو .

9) مثلما هو شأن مصطلح phonème (صوتم) انظر ص 433 الهامش 111 من C.L.G تحقيق توليودى مورو .

10) أنظر ص 409 الهامش 17 من المصدر السابق .

(1) الترجمة السورية

فردينان ده سوسير
محاضرات في الالنسية العامّة
ترجمة
يوسف غازي ومجيد النصر

أنجز هذه الترجمة استاذان سوريان من أهل الاختصاص في علم اللسانيات (11) ولئن لم يذكر المترجمان الطبعة التي اعتمداها الا أنه يبدو أنهما كانا مطلعين على الطبعة المحققة التي أخرجتها دار بايو سنة 1984 (12) .

وهذه المعطيات تجعلنا نقبل على هذه الترجمة بشيء من الأمل ونتوسم فيها الاتقان والكفاءة . ولكن القارىء سرعان ما يخيب أمله . فهو لا يتقدم في قراءة هذا العمل الا قليلا حتى يقتنع أن ترجمة كتاب دي سوسير قد أنجزت بتسرّع وعجلة تتنافيان مع ما يقتضيه عمل مثل هذا من توقف وتثبت ودقة . فهذه ترجمة لم تكد تخلو فيها صفحة من عيب ولا سلمت من مأخذ .

وليست فوضى المصطلحات وانعدام ثبت يوضح مقابلها بالفرنسية عيب الترجمة الوحيد ، وقد سبقنا الى الاشارة اليه الدكتور مالك يوسف المطلبي (13) وكان ذلك من أهم الأسباب التي دعت دار آفاق عربية الى اصدار ترجمة ثانية لكتاب دي سوسير رغم تقدم الترجمة السورية الى السوق . فأفدح من ذلك تحريفها للنص الأصلي ومناقضة معناه ومقصده في أبسط جوانبه . وقد

---

11) « الدكتور يوسف غازي دكتور دولة في الالسنية الفرنسية من جامعة السربون واستاذ الالسنية الفرنسية في جامعة دمشق » .
والسيد « مجيد النصر يحضر دكتوراه دولة في الالسنية العامة في جامعة السربون » ص 289 من فردينان ده سوسير . محاضرات في الالسنية العامة ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر .

12) فقد حافظا على العلامات التي تشير الى هوامش الطبعة المحققة الفرنسية وان اغفلا ذكر أرقامها .

13) انظر ص 15 وما بعدها من علم اللغة العام . تأليف فردينان دي سوسير ترجمة الدكتور يوسف عزيز . ومراجعة الدكتور مالك يوسف المطلبي .

بلغت العجلة بالقوم أن ترجموا أظهر الاخطاء المطبعية التي يمنع من الوقوع فيها أدنى تأمل في النص . وليس يمكن استقصاء كل الأخطاء وانما هو قليل من كثير ينهض لنا دليلا على ما قلناه ويتمثل في الفقرة التالية :

« La vraie question est de savoir si les changements phonétiques atteignent les mots ou seulement les sons ; la réponse n'est pas douteuse : dans néphos , methu, ankhà etc... c'est un certain phonème, une sourde aspirée indo-européenne qui se change en sourde aspire, c'est l'initial du grec primitif qui se change en h etc..., et chacun de ces faits est isolé indépendant des autres évenements du même ordre, indépendant aussi des mot où il se produit. Tous ces mots se trouvent naturellement modifiés dans leur matière phonique, mais cela ne doit pas nous tromper sur la véritable nature du phonème (14) ».

« والسؤال الحق انما يكمن في معرفة ما اذا كانت التغيرات الصوتية تصيب فقط الكلمات والأصوات (كذا !) وليس الجواب غير يقيني هنا (كذا !) . فما يتغير في الأمثلة methu , nephos ankhà الخ انما هو صوتيم ما أي مجهور هند رآروبي مستنشق (كذا !) متحول الى مهموس مستنشق [سقطت جملة . . .] وكل من هذه الوقائع معزول مستقل عن الاحداث الأخرى ذات الترتيب الواحد (كذا !) كما أنّه مستقل أيضا عن الكلمات التي يحدث فيها .

وتتغير جميع هذه الكلمات في مادتها الصوتية ولكن ومن جهة طبيعية الصوتيم (كذا !) الحقيقية يجب ألا نخدع بكل هذا الذي قلناه (15) .

ويتمثل الخطأ المطبعي في ورود كلمة phonème عوض كلمة phènomène في آخر هذه الفقرة .

Cela ne doit pas nous tromper sur la véritable nature du phonème

الصـــواب :

Cela ne doit pas nous tromper sur la véritable nature du phènomène .

14) أنظر ص 133 من C.L.G .

15) أنظر ص 116 من ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر .

أما الأخطاء الاخرى فقد أشرنا اليها بملاحظة كذا ! ونود أن نقف خاصة على ترجمة عبارة du même ordre « بذات الترتيب الواحد » وهو نقض للمعنى لا يدل على معرفة كافية باللغة الفرنسية خاصة وأنه ليس الخطأ الوحيد .

والصواب ترجمتها بـ« مِنْ نفس القبيل » .

* * *

(2) الترجمة العراقية

علم اللغة العام
تأليف فردينان دي سوسير
ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز
مراجعة النص العربي
الدكتور مالك يوسف المطلبي
نشر دار آفاق عربية بغداد 1985

هذه الترجمة أكثر جدّا وأمانة من الترجمة السابقة وقد بذل صاحبها جهدا مشكورا وراجع النص العربي عنه الدكتور مالك يوسف المطلبي الا أنّها لا تمثل أداة عمل يمكن الاطمئنان اليها لسببين :

أولا : لأنها لم تنطلق من النص الفرنسي الاصلي للكتاب وانما هي ترجمة للترجمة الانقليزية التي أنجزها وايد باسكن سنة 1959 . وبديهي أنه مهما بذل فيها صاحبها من جهد فانها لن تغني عن ترجمة أخرى تعمل انطلاقا من النسخة الاصلية للكتاب وتقف على فكر دي سوسير دون حاجز ولا واسطة .

ثانيا : لتضمنها بعض العيوب الواضحة ونقتصر على أظهرها لأننا لا نستطيع الجزم بمسؤولية الدكتور يوئيل عزيز فيها فقد تعذر علينا مكافحة ترجمته بالنسخة الانقليزية التي اعتمدها لعدم عثورنا عليها .

من ذلك ترجمة physiologique et physiologie بوظائف الاصوات ووظيفي

Les rapports de la linguistique avec la physiologie ne sont pas aussi difficiles à débrouiller : La relation est unilatérale (16)

ان الصلة بين علم اللغة وعلم فسلجة الاصوات (وظائف الاصوات) سهلة التمييز وهذه الصلة من جانب واحد (17)

وكـذلـك :

Pris dans son tout, le langage est multiforme et hétéroclite à cheval sur plusieurs domaines à la fois physique, psysiologique et psychique (18)

« اللسان متعدد الجوانب ، غير متجانس يشتمل على عدة جوانب في آن واحد كالجانب الفيزياوي (الطبيعي) والجانب الفسلجي (الوظيفي) والجانب السايكولوجي (النفسي) » (19) .

كما أخطأ المترجم في نقل مصطلح فونولوجي phonologie فهو عند دي سوسير يعني علم الأصوات لا علم وظائف الاصوات الذي لم ينشأ بعد . وقد فهمه الدكتور عزيز على أساس مضمونه الحديث فترجمه بالنظام الصوتي وهو مضمون غريب عن دي سوسير .

Ainsi les phonologistes anglais, préoccupés de classification plutôt que d'analyse ont pour certains sons des signes de deux et même de trois lettres (20)

فعلماء النظام الصوتي الانقليزي يهتمون بالدرجة الاولى بالتصنيف لا بالتحليل لذا يستخدمون حرفين أو ثلاثة حروف للتعبير عن بعض الأصوات (21) .

---

16) أنظر ص 21 من C.L.G

17) أنظر ص 24 من علم اللغة العام تأليف : ف. دي سوسير ترجمة يوئيل عزيز .

18) أنظر ص 25 من C.L.G

19) ص 24 من علم اللغة العام تأليف ف. دي سوسير ترجمة يوئيل عزيز .

20) أنظر ص 57 من C.L.G

21) أنظر ص 52 من علم اللغة العام تأليف دي سوسير ترجمة يوئيل عزيز .

ونجد قلبا للمعنى في العنوان التالي :

Prestige de l'écriture ; causes de son ascendant sur la forme parlée (22)

« تأثير الكتابة : أسباب تقديمها وفق الشكل المنطوق » (23) .

ونشير أخيرا الى لَبْسٍ يقع فيه القارىء نتيجة ترجمة methode بأسلوب بدل منهج (24) points de methode قضايا أسلوبية (25) .

وبين القضايا الأسلوبية والمنهجية فرق بيّن

* * *

(3) الترجمة التونسية

فردينان دي سوسير
دروس في الالسنية العامة
تعريب صالح القرمادي ـ محمد الشاوش
ومحمد عجينة
الدار العربية للكتاب 1985

أمّا الترجمة التونسية فقد كانت أكثر الترجمات وعيا بقيمة كتاب دي سوسير وأكثرها تقديرا لصعوبة نقله الى العربية . وقد توفر فيها من الاتقان ما يجعلها تمثل حدثا علميا في تاريخ اللسانيات العربية . وهي إذا قدّر لها الرواج الذي تستحق تقرّب بحق فكر دي سوسير الى القارىء العربي وتجعله ماثلا بين يديه بدون واسطة .

---

22)
23) أنظر ص 42 من علم اللغة العام تأليف ف. دي سوسير ترجمة يوئيل عزيز .
24) أنظر ص 200 من C.L.G .
25) أنظر ص 169 من ترجمة يوئيل عزيز .

ولا عجب وقد شجع على هذا العمل وأشرف عليه المرحوم صالح القرمادي . ولسنا بحاجة الى التعريف به (26) ولكننا نودّ أن نلفت الانتباه الى أن الاستاذ القرمادي يمثل حلقة الوصل بين الجامعة التونسية وبين فكر دي سوسير . دليلنا على ذلك اتصاله بالعلامة أندرى مارتيني وأخذه عنه . وقد كان هذا العلامة الوريث الحقيقي لفكر دي سوسير في فرنسا (27) واليه يعود الفضل في ظهور الترجمة الانقليزية الوحيدة لدروس في اللسانيات العامة التي انجزها باسكن (28) .

ولقد بلغ من حرص المترجمين على اتقان هذا العمل أن قضوا فيه ما لا يقل عن سبع سنوات (29) وقد أرادوا منه أن يكون أداة بحث وعمل . لذلك :

- حرصوا على ترقيم الصفحات ترقيما مزدوجا ييسر على الباحث الرجوع الى النص الفرنسي .

- وضبطوا ثبتا عاما للمصطلحات ثلاثي اللغة (عربي ، فرنسي ، انقليزي) مرتبا ترتيبا الفبائيا حسب قائمة المصطلحات العربية .

كما جرّدوا مدخلا فرنسيا وآخر انقليزيا لثبت المصطلحات العام مرتبين ترتيبا ألفبائيا يمكنان الباحث من الوصول الى المصطلح العربي انطلاقا من المصطلح الأجنبي .

- وأدرجوا قائمة في الرموز الصوتية .

وشفعوا الكتاب بمقال قيّم للاستاذ القرمادي بعنوان :

أمهات نظريات ف. دي سوسير

---

26) أنظر تأبين الاستاذ المنجي الشملي له ص 7 من حوليات الجامعة التونسية العدد 21 سنة 1982 .

27) أنظر ص 161 من Georges Mounin : La Linguistique du XX^e siècle, Presses Universitaires de France .

28) أنظر 161 من نفس المصدر .

29) أنظر توطئة الترجمة التونسية ص 7 .

أمّا بالنسبة الى متن الكتاب فقد عربوا ما أمكن من الشواهد كلما بدا لهم المثال العربي المقترح مطابقا للمثال الاصلي من جميع الوجوه (30) وحرصوا من جهة ثانية على تعريب النص واخراجه حسب أساليب العربية في التعبير والاداء وتصرفوا فيه تصرفَ جريءٍ مقتدر ، يعرفه في الاستاذ القرمادي خلطاؤه وطلبته . وفي الجملة فقد غنمت المكتبة العربية بهذا الكتاب أداة عمل صالحة يمكن اعتمادها في البحث والتدريس .

ونحن على تنويهنا بهذا الكتاب نشير الى بعض مواطن النقص التي نرجو أن تتلافى في طبعة قادمة .

وأول ما نشير اليه هو عدم ترجمة مقدمة الناشرين وهي وثيقة أساسية استغربنا عدم ترجمتها للأسباب التي ذكرناها سابقا . وأيا كانت الموانع (وقد تكون قانونية) فمن الواجب الحرص على أن يظهر هذا الكتاب مسبوقا بهذه الوثيقة التي تفسّر نشأته وكيفية إنجازه .

ونقترح ثانيا إضافة فهرسين : فهرس للاعلام وآخر للمفاهيم وهي من الفهارس التي تيسر الانتفاع بهذا الكتاب .

أمّا بالنسبة الى المصطلحات فمما يمكن أن تؤخذ به هذه الترجمة حفاظها على مصطلح ألسنية مقابل linguistique والحال أن ندوة عربية أقرت مقابلا له مصطلح لسانيات ، فكان من الواجب المساهمة في توحيد المصطلح اللساني واستقراره في العالم العربي بالاستجابة الى ما اتفق عليه .

وقريب من ذلك ترجمة langue/parole و langageو idiome بـ لفظ/لغة و كلام و لسان . ذلك أن هذه الترجمة قد حوّرت ترجمة ثنائية Langue/Parole كلام/لغة ـ باقحام مصطلح لفظ مقابلا لـ Parole والحال أن هذه الثنائية قد استقرت فيما نعلم عند أغلب من تناول اللسانيات بالبحث .

---

30) أنظر ص 11 من المصدر السابق .

وقد كنا نودّ أن يحافظ على هذين المصطلحين الشائعين ويجتهد في ترجمة مصطلح Langage فهو الذي يمثل صعوبة وهو الذي لم يستقرّ له مصطلح في العربية . وكان من الممكن ترجمته بكلمة لسان (31) . أما كلمة idiome فنحن لا نحتاجها مثلما نحتاج الى مصطلح Langage ويمكننا التعبير عنها باستعمال كلمة لغة نكرة أو مضافة . ثم ان ف. دي سوسير لم يعتن بها عناية خاصة مثلما اعتنى بالمصطلحات الآنفة الذكر .

ومن ذلك أيضا ترجمة identité باتّحاد بدل الترجمة القريبة بكلمة هوية وقد بدا لنا أن هذا الاجتهاد يدخل الضّيم على نصّ من أهم نصوص الكتاب (32) خاصة وأن كلمة اتحاد قد استعملت لترجمة كلمة union في مواضع عدة من الكتاب (33) .

ومن جهة أخرى فقد سبق أن قلنا ان من صعوبات تعريب هذا الكتاب أن بعض المصطلحات فيه شهدت تطورا وأصبح اللسانيون اليوم يستعملونها بمعنى مخالف للمعنى الذي استعمله فيها ف. دي سوسير وقد ارتأى المترجمون أن يفوا بهذا الجانب الوثائقي في الكتاب فأقبلوا على تلك الاستعمالات الخاصة بصاحبه (34) ولئن بدا ذلك مقبولا بالنسبة الى بعض المصطلحات الداخلية مثل فونولوجيا (وقريبا منها صوتم) لأنها تذكّر بقيمة المصطلح وتطوره داخل شبكة مستقرة من المصطلحات ضمن لغة أجنبية يذكر بها ويحيل عليها ، فان ذلك أقل اقناعا بالنسبة الى مصطلحات عربية وضعت مقابل مصطلح أجنبي . فان هي قدرت على نقل معناه المتداول اليوم بين الباحثين صعب عليها ملاحقة تطوره التاريخي واحتمال معناه الأول منذ سبعين سنة خلت .

---

31) عن الاستاذ المهيري أثناء اشرافه على بحث اعددناه معه .
32) أنظر ص 459 من C.L.G الهامش 216 .
33) أنظر ص 157 من C.L.G وبقابلها ص 174 من الترجمة التونسية .
34) أنظر ص 10 من التوطئة .

من ذلك مصطلح phonétique فهو يعني عندنا اليوم علم الأصوات ويستعمله ف. دي سوسير بمعنى علم الاصوات التاريخي (35) وقد ترجم هنا بعلم الأصوات وقد بدا لنا أن في ذلك مدعاة للبس وأن من الأسلم اضافة نعت تاريخي وإنْ بين معقفين في كل موطن ورد فيه هذا المصطلح حتى نجنب القارىء العربي صعوبة هو في غنى عنها . ولنا أن نتبين ذلك بالمقارنة بين هاتين الترجمتين :

Réciproquement si la comparaison est morphologique je dois l'éclairer par le secours de la phonétique (36) .

والعكس بالعكس فاذا كانت المقارنة مقارنة صرفية وجب أن نوضحها بالالتجاء الى علم الأصوات (37) .

أو :

والعكس بالعكس فاذا كانت المقارنة مقارنة صرفية وجب أن نوضحها بالالتجاء الى علم الأصوات [التاريخي] .

وكـذلـك :

La phonétique et la phonétique tout entière est le premier objet de la linguistique diachronique (38) .

ان أول موضوع من المواضيع الالسنية الزمانية لهو علم الاصوات بل علم الأصوات بتمامه وكماله (39) .

35) أنظر ص 9 من المصدر السابق وكذلك ص 91 من تقديم I. Baumer لكتاب توليودي مورو في Cahiers F. de Saussure n° 24 1968 وص 56 وكذلك الهامش عدد 111 وعدد 115 من C.L.G تحقيق توليودى مورو .
36) أنظر ص 300 من C.L.G .
37) أنظر ص 329 من الترجمة التونسية .
38) أنظر ص 194 من C.L.G .
39) أنظر ص 214 من الترجمة التونسية .

أو :

ان أول موضوع من مواضيع الالسنية الزمانية لهو علم الأصوات [التاريخي] بل علم الأصوات [التاريخي] بتمامه وكماله .

ورغم ما بذله المترجمون من حرص على اتقان هذا العمل فقد تسربت بعض الاخطاء ننبه اليها حتى يقع تفاديها في طبعة لاحقة .

ونبدأ بالتوطئة فقد ضمنها الاستاذان الشاوش وعجينة جملة من رسالة كتبها دي سوسير الى مايي A. Meillet ووقع خطأ في ترجمتها :

والجملة هي التالية :

Cela finira malgré moi par un livre où sans enthousiasme ni passion j'expliquerai pourquoi il n'y a pas un seul terme employé en liguistique auquel j'accorde un sens quelconque (40).

وذلك بوضع كتاب بيّن للناس فيه لم لا يوجد في الالسنية كلمة واحدة يطلقها على معنى غير مضبوط (41).

والصواب عندنا ...... على معنى مضبوط

أمّا بالنسبة الى متن الكتاب فأهم ما نشير اليه هو عدم التفطن الى خطإ مطبعي ظهر في الطبعة الثانية لكتاب دي سوسير سنة 1922 ولم يتم اصلاحه في الطبعات الموالية (42) .

«Ainsi par une grave erreur on confondait en un seul phénomène deux faits disparates, la faute consiste d'une part à prendre le résultat médiat pour l'immédiat (S.R au lieu de Z.R), et d'autre part à poser le

40) أنظر ص 335 من C.L.G وكذلك ص 38 من E. Benveniste : Problèmes de linguistique générale

وكذلك ص 31 من Robert Godel : Les sources manuscrites du cours de linguistique générale de F. de Saussure .

41) أنظر ص 9 من توطئة الترجمة التونسية .

42) أنظر ص 472 والهامش 272 من C.L.G .

phénomène total comme combinatoire alors qu'il ne l'est pas dans sa première partie C.L.G.P. 201 (43)».

والصـــوابُ هو :

Alors qu'il ne l'est que dans sa première partie.

في الترجمة التونسية : والحال أن الطور الاول منها ليس كذلك (44) .

والصواب : والحال أنها ليست تعاملية الا في طورها الاول .

ونشير من ناحية أخرى الى جملة من الترجمات تحتاج حسب رأينا الى مراجعة واعادة نظر وقد اثبتنا النص الفرنسي وترجمة القرمادي وزميليه عجينة والشاوش ثم ما تقترحه بدلا منها .

Il n'en est pas moins vrai qu'une certaine attention est nécessaire pour faire des distinctions de ce genre (45) .

على أن ذلك لا يعني التخلي عن قدر من الانتباه لكي نتمكن من القيام بمثل هذه التميزات (46) .

ونقترح : بيد أن حدّا أدنى من الانتباه ضروري لكي نتمكن من القيام بمثل هذه التمييزات .

«L'acte par lequel, à un moment donné les noms seraient distribués aux choses, par lequel un contrat serait passé entre les concepts et les images acoustiques — cet acte, nous pouvons le concevoir, mais il n'a jamais été constaté (47)».

« ثم ان العملية التي بفضلها قد تكون الاسماء وزعت على الأشياء في وقت ما والتي بفضلها أقيم عقد بين المتصورات الذهنية والصور الاكستيكية انما هي عملية يمكن أن نتصورها الا أنه لم يشاهدها مشاهد قطّ (48) » .

43) أنظر ص 201 من نفس المصدر .
44) أنظر ص 222 من الترجمة التونسية .
45) أنظر ص 43 من C.L.G .
46) أنظر ص 47 من الترجمة التونسية .
47) أنظر ص 105 من C.L.G .
48) أنظر ص 117 من الترجمة التونسية .

ونقترح : .... انما هي عملية يجوز أن نتصورها الا أنه لم يشاهدها مشاهد قطّ .

« La langue étant une institution sociale on peut penser à priori qu'elle est réglée par des prescriptions analogues à celles qui régissent les collectivités (49) » .

لمّا كانت اللغة مؤسسة من المؤسسات الاجتماعية فانه يجوز أن نذهب مسبّقا الى أن اللغة تخضع لتقنيات مماثلة لتلك التي تخضع لها المجموعات البشرية (50) .

لا ندري ان كانت ترجمة prescriptions بتقنيات خطأ مطبعيا أم اجتهادا من المترجمين ، ولم يتبين لنا الوجه فيه خاصة وأنها ترجمت في موضع آخر بالقواعد (51) .

« La place de l'accent s'est trouvée changée sans qu'on y touche (52) » .

تحوّل موضع النبرة بدون اية ممارسة (53) .

ونقترح : تحول موضع النبرة بدون أن يكون لأحد ضلع في ذلك .

Si, outre le point de départ on connaît encore l'évolution parallèle de sons analogues de la même langue , à la même époque on peut raisonner par analogie et tirer une proportion (54) .

« أمّا اذا أمكننا أن نعرف ما مرّت به بعض الاصوات المتجانسة التابعة لنفس اللغة من تطور متواز في نفس الحقبة من الزمن وذلك بالاضافة الى معرفتنا لصورتها الاولى فانه يتسنى لنا آنذاك أن نعمد الى حجة القياس فنستخرج العلاقات التناسبية الخاصة بمثل هذا التطور (55) » .

49) أنظر ص 130/129 من C.L.G .
50) أنظر ص 142 من الترجمة التونسية .
51) أنظر ص 107 من C.L.G وص 119 من الترجمة التونسية .
52) أنظر ص 123 من C.L.G .
53) أنظر ص 135 من الترجمة التونسية .
54) أنظر ص 59 من C.L.G .
55) أنظر ص 65 من الترجمة التونسية .

ونعيب على هذه الترجمة غموضا وترجمة sons analogues بأصوات متجانسة ونقترح :

أمّا إذا أمكننا أن نعرف نقطة الانطلاق [أي الصوت المقابل للحرف المكتوب] وأمكننا كذلك أن نعرف ضمن نفس اللغة ونفس الفترة الزمنية تطور نظيره من الأصوات وكان موازيا لتطوره فانه يتسنى لنا آنذاك أن نلجأ الى القياس ونستخلص نسبة [التغيير الطارئة على ذلك الصوت] .

بقيت مجموعة أخرى من الأخطاء ناتجة عن سهو أو خطإٍ مطبعي .

D'abord l'image graphique des mots nous frappe comme un objet permanent et solide , plus propre que le son à constituer l'unité de la langue à travers le temps (56) .

« السبب الأول هو أن صورة الكلمات في الخط تسترعي انتباهنا من حيث هي شيء ثابت متين وهي أكثر قدرة من الصوت على تشخيص وحدة الكلام عبر الزمان (57) .

والصواب : وحدة اللغة .

Pour toutes ces raisons , il serait chimerique de réunir sous un même point de vue la langue et la parole (58) .

« ولهذه الأسباب جميعها يكون من باب الوهم أن ننظر الى اللغة والكلام معا من وجهة نظر واحدة (59) » .

والصواب : « الى اللغة واللفظ » حسب المصطلحات التي اعتمدها المترجمون .

La vérité synchronique contredit-elle à la vérité diachronique (60) .

---

56) أنظر ص 46 من C.L.G .
57) أنظر ص 50 من الترجمة التونسية .
58) أنظر ص 38 من C.L.G .
59) أنظر ص 42 من الترجمة التونسية .
60) أنظر ص 136 من C.L.G .

فهل الحقيقة الآنية مناقضة للحقيقة التاريخية (61) .

والصواب ... للحقيقة الزمانية حسب المصطلح الذي أقره المترجمون .

Ces vues font mieux comprendre ce qui a été dit p. 100 à propos de l'arbitraire du signe (62) .

وتزيد هذه الاعتبارات في توضيح ما قلناه بشأن اعتباطية العلامة (63)

والصواب : حسب مصطلحات المترجين : اعتباطية الدليل .

Leur origine commune résulte de la matérialité des faits (64) .

أما أصلها المشترك فيستنتج من مادة الشواهد المتعلقة بها (65)

والصواب ـ مادّية الشواهد .

... Permettant de dégager la cause essentielle de la différenciation dans l'espace (66) .

« حتى يساعدنا على استخلاص العمل الجوهري الذي تسبب في التمايز بين أنواع اللغات (67) .

والصواب : استخلاص العامل .

Les signes graphiques n'en sont qu'une image .... (68) .

أما العلاقات الخطية فليست سوى صورة ... (69) .

والصواب : العلامات الخطية .

« C'est dans le domaine intermédiaire des formes insuffisamment étayées par leur entourage que l'analogie novatrice peut déployer ses effets (70) » .

---

61) أنظر ص 148 من الترجمة التونسية .
62) أنظر ص 157 من C.L.G .
63) أنظر ص 174 من الترجمة التونسية .
64) أنظر ص 270 من C.L.G .
65) أنظر ص 294 من الترجمة التونسية .
66) أنظر ص 270 من C.L.G .
67) أنظر ص 294 من الترجمة التونسية .
68) أنظر ص 58 من C.L.G .
69) أنظر ص 64 من الترجمة التونسية .
70) أنظر ص 239 من C.L.G .

والمجال الذي يمكن فيه للقياس أن يقوم بعمله المجدد المبتكر لكلمات جديدة انما هو ذلك المجال الوسط المتكون من صيغ يدعها (كذا !) جوارها تدعيا كافيا (71) .

والصواب : .... من صيغ لا يدعها جوارها تدعيا كافيا .

Aujourd'hui encore des hommes éclairés confondent la langue avec son orthographe .

سقطت هذه الجملة من الترجمة العربية .

Il sont distribués autrment . Les innovations de l' analogie ... (73) .

سقطت الجملة الأولى وصدر الجملة الثانية من الترجمة العربية .

L'analogie principe de rénovation [et de conservation] (74) .

سقط ما بين معقفين من الترجمة العربية .

.... et un sensemble de conventions [nécessaires] (75) .

سقط ما بين معقفين من الترجمة العربية .

Les élements que l'on obtient d'abord par [l'analyse] de la chaine parlée (76) .

سقط ما بين معقفين من الترجمة العربية .

Ne peut-on pas modifier d'un moment à l'autre des lois existantes et [héritées] (77) .

سقط ما بين معقفين من الترجمة العربية .

عز الدين المجدوب

---

71) أنظر ص 259 من الترجمة التونسية .
72) أنظر ص 46 من C.L.G .
73) أنظر ص 235 من المصدر السابق .
74) أنظر ص 235 من المصدر السابق .
75) أنظر ص 25 من المصدر السابق .
76) أنظر ص 65 من المصدر السابق .
77) أنظر ص 105 من المصدر السابق .

مدوّنة الشعراء النقدية :
« طبقات فحول الشّعراء » نموذجا

بقلم : توفيق الزيدي

« وكان بشار أستاذ أهل عصره من الشعراء غير مدافع ، ويجتمعون اليه وينشدونه ويرضون بحكمه » (1) .

إنّ الحافز الاشكالي لهذا المشروع ثنائي . من ذلك ما يتعلق بجمع المادة النقدية الأم عند القدامى اذ أن المساهمين في التراث النقدي كثيرون كاللغوي والراوية والاخباري والشاعر والعالم بالشعر . . . ومن هنا فالتراث النقدي ليس فقط ما كتب النقاد القدامى المعروفون ، بل أيضا ما كتب غيرهم ممن ذكرنا . وجب النظر اذن في تلك المساهمات جمعا ودراسة . ألا نتساءل عندها : كيف نؤرخ لهذا التراث وكيف نقيّمه ، وجوانب هامة منه مجهولة الى الآن .

أما الحافز الاشكالي الثاني فيخصّ التلازم الابداعي ـ النقدي عامة ، والامر على ما نرى أن للمرء طاقتين احداهما مبدعة ، مستنبطة ، ضاربة في

(1) ابن المعتز « طبقات الشعراء » تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ دار المعارف ـ مصر ط 1981/4 ، ص 26 .

عمق المجهول ، متجاوزة الأعراف ، فحق بفضلها للنقاد والشعراء أن تكلموا على « بكارة المعاني » وابتداعها واصفين الشعر بالفرس الجامح وبأنه « كالسراء والشجاعة والجمال لا يُنْتَهَى منه الى غاية » (2) .

الاّ أن هذه الطاقة تقابلها أخرى تصقل ما تنتجه الأولى . هي « القراءة » والتهذيب والنقد من جهة ، وهي التنظير والتأسيس النظري من جهة أخرى (3) .

ان الطاقتين المذكورتين متلازمتان . ففي الشاعر ناقد وان لم يظهر لنا الاّ انتاجه الشعري . هو ناقد عندما فكر في قصيدته ، وعندما اختار المعاني والالفاظ عند انثيالها ، وعندما أسقط هذا اللفظ معوّضا اياه بآخر ـ هو ناقد أيضا عندما قرأ قصيدته الطويلة بعد الانتهاء منها ، فاذا به لاَ يَرْضَى بالذي كتب فتركه جانبا .

ان كان الشاعر ناقدا خفيًا ، فان الناقد أيضا شاعر خفيّ . ألا يقرأ النص الشعري وفق مقاييس مختارة ؟ ألا يحاول في جمعه بين تجزئة النص وتركيبه أن يضارع وحدة النص وتكامل مستوياته ؟ أليس الذي يجري بين الناقد والنص شبيها بما جرى بين الشمس والعنقاء ؟ (4) أليس الناقد عندها شاعرا [أو كاتبا] في حالة انتظار ؟ (5) .

---

(2) ابن سلام الجمحي « طبقات فحول الشعراء » تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني القاهرة ، 1974 ، ص 66 .

(3) هما « الأدب الانشائي » و « الأدب الوصفيّ » عند طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » (دار المعارف ـ مصر ، ط 1984/15 ، ص33) . وان كان طه حسين يقدم الأدب الانشائي على الأدب الوصفي على مستوى القيمة والزمن ، فان الأمر في الحقيقة يتعدى الاسبقية الى التلازم والتفاعل . على أن طه حسين قد أشار الى ذلك قائلا : « بل للجاحظ مشاركة قوية في الادبين جميعا فهو واصف في البيان والتبيين وفي الحيوان وهو منشىء في التربيع والتدوير وفي البخلاء وغيرهما من الرسائل وكثيرا ما يختلط الادبان في الكتاب الواحد من كتبه » ص 36 ملحوظة 1 .

(4) خلدون الشمعة « الشمس والعنقاء : دراسة نقدية في المنهج والنظرية والتطبيق » منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق 1974 .

(5) R. BARTHES : Essais critiques, Seuil 1964 p. 18 S/Z, Seuil 1970 p. 10

أيها أقرب الى النص : الشاعر ناقدا أم الناقد شاعرا ؟ تواترات المواقف في التراث النقدي لحل هذه القضية ، والجامع المشترك لهذه المواقف استنقاص آراء اللغويين في الشعر . أجمع على ذلك الشعراء أنفسهم والعلماء بالشعر (6) ـ الا أن للقضية فروعا بعد ذلك . فالشعراء يجعلون أنفسهم أعرف الناس بالشعر لأنهم الممارسون له، ألم يقل بشّار : « انما يعرف الشعر من يُضطرّ الى أن يقول مثله ؟ » (7) ألم يوافق البحتري هذا الرأي بقوله : « ليس هذا من عمل ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، انما يعلم ذلك من دُفع في مسلك الشعر الى مضايقه وانتهى الى ضروراته » (8) .

ولعل الذي يعوض « عمل » الشعر عند العلماء بالشعر هو « المعاينة » و « المدارسة » (9) . و « أهل العلم » عند الجُمحي تشمل العالم بالشعر مُعَايِنَهُ ومُدَارِسَهُ ، وكذلك قائل الشعر راويه : « وكان خلاد حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله » (10) . بل ان اعتماد الجمحي على ما سنرى في طبقاته

(6) • راجع آراء عبد الله بن أبي اسحاق في شعر الفرزدق والرد عليها :
ـ المرزباني « الموشح : مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر » تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار نهضة مصر ، ط 1965/1 ، ص 161 .
ـ ابن قتيبة « الشعر والشعراء » تحقيق أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر 1966 ، I /89 .
ـ الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 21/17 .
• راجع آراء اللغويين في المحدث من الشعر والرد عليهم :
ـ القاضي الجرجاني « الوساطة بين المتنبّي وخصومه » تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ـ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط 1951/2 ص 50 .
ـ المرزباني « الموشح » ص 384 .
ـ الجاحظ « البيان والتبيين » تحقيق عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ط 4/القاهرة ، ج 4 ، ص 24 .
• راجع ردّ أبي تمام على أبي سعيد المكفوف تلميذ ابن الاعرابي :
ـ المرزباني « الموشح » ص 50 .
(7) الباقلاني « اعجاز القرآن » تحقيق أحمد صقر ، مصر 1972 ، ص 177 .
(8) المصدر السابق ، ص 176 .
(9) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 7 .
(10) المصدر السابق ، ص 7 .

على آراء الشعراء لدليل على أن العلم بالشعر لا يكون الاّ بعمله أو بمعاينته ومدارسته .

ان هذا القليل الذي قدّمنا ليقوم دليلا على أهمية مساهمة الشعراء النقدية وعلى أنها جديرة بالجمع أولا والدرس ثانيا . وهو أمر موكول الى الباحثين يخططون له جماعيا يتكفّل كل فريق منهم بالنظر في باب معين .

ان اقتصارنا على « طبقات فحول الشعراء » للجمحي لابراز مساهمة الشعراء النقدية يعود الى أن هذا الكتاب من كتب الاصول ذات المستويين المتكاملين : المستوى التراكمي بموجبه تراكمت الآراء النقدية السابقة للجمحي (11) ومن بينها آراء الشعراء . أما المستوى الثاني فتوليدي بموجبه يأخذ الجمحي من آراء الآخرين ما يريد ويزيد ذلك في عقله ، وبعد استصفائها يولّد رأيه .

ان هذا التراكم وهذا التوليد ليسا الاّ دليلا على « التّناصّ النقدي » في كتاب « الطبقات » (12) وهو ما يجب أن يتبع بدراسة أثر تلك الآراء في الكتب النقدية اللاحقة . فما عند نقاد القرن الرابع الهجري ليس في بعض وجوهه الاّ تطويرا للآراء السابقة وخاصة ما ورد في طبقات الجمحي (13) .

---

(11) أحصى منير سلطان في كتابه « ابن سلام وطبقات الشعراء » (منشأة المعارف بالاسكندرية 1977 ، ص 99 ـ 101) كل الاسانيد التي أخذ بها الجمحي عن شيوخه ـ فوجد أن مجموع الاخبار هو 290 خبرا وأن مجموع الرواة الذين أخذ عنهم الجمحي هو 73 راويا منهم يونس بن حبيب (35 خبرا مرويا عنه) وأبو الغرّاف (24 خبرا) وسلام بن عبيد الله الجمحي (14 خبرا) . . .

(12) ألم يذكر يونس بن حبيب « ليس أحد وأنت آخذ من قوله وتارك » راجع « طبقات فحول الشعراء » للجمحي ، ص 16 .

(13) اعتمد طه حسين في كتابه « في الأدب الجاهلي » على كتاب الجمحي اعتمادا وذلكَ:
ـ بالاعجاب بمنهج الجمحي ، يقول طه حسين ص 255 من كتابه المذكور : « وربما كان ابن سلام أحسن مثل لهؤلاء العلماء المحققين الذين لم يتورطوا في كذب ولم يَتَعَمَّدُوا اسرافا ولم يقصدوا الى تضليل ، انما احتاطوا ما استطاعوا الاحتياط فان وقعوا بعد ذلك في الخطإ فذلك حكم العصر والبيئة وحظ ما كان لهم من رقي في ملكة النقد » . ←

ألم يمهّد الجمحي لعمود الشعر عندما أقرّ وظائف الشعر : « وفي الشعر مصنوع مفتَعل موضوع لا خير فيه ولا حجة في عربيّة ، ولا أدب يُستفاد ، ولا معنى يُستخرج ولا مثلٌ يُضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مُقْذِعٌ ، ولا فخرٌ مُعْجِبٌ ولا نسيب مُسْتَطْرَفٌ » (14) .

قد مهّد الجمحي أيضا لعمود الشعر عندما أكّد على إجماع أهل العلم : « وليس لأحد اذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على ابطال شيء منه . . . فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه » (15) . ألم يكن الجمحي في هذا الباب منحازا الى « طريقة العرب » في الاستعمال اللغوي والأدب ؟ (16) أليس الجمحي أيضا منحازا الى طريقة العرب في نبذهم

ـ بالاعتماد على ما جاء من آراء في كتاب الجمحي للتحليل أو الاحتجاج :
122 ـ 130 ـ 131 ـ 138 ـ 152 ـ 154 ـ 155 ـ 170 ـ 172 ـ 200 ـ 209 ـ 226 ـ 227 ـ 233 ـ 241 ـ 247 ـ 249 ـ 250 ـ 251 ـ 269 ـ 290 .

ـ بنقد بعض آراء الجمحي :
من 155 الى 158 : انخداع الجمحي عن الشعر المنحول
192 : نقد نظرية تنقل الشعر في القبائل
212 : ادعاء بني أقيش شعر امرىء القيس لعمرو بن قميئة
216 : رأي العرب في أن مهلهلا كان يكثر ويدّعي في قوله بأكثر من فعله .

(14) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 4 .

(15) المصدر السابق ، ص 4
تَرِدُ كلمة « إجماع » أيضا ص 92 « فجعلها لعبيد وعلى ذلك كان إجماعنا » .

(16) مواطن ذلك كثيرة منها :
ـ ص 12 « وكان لأهل البصرة في العربية قُدْمَةٌ وبالنحو ولغاتِ العرب والغريب عنايةٌ »
ـ يقول الجمحي عن شيخه أبي عمرو بن العلاء ، ص 14 « وكان أبو عمرو أوسع علما بكلام العرب ولغاتها وغريبها » . وفي الصفحة 16 « أخبرني يونس : ان أبا عمرو كان أشد تسليما للعرب وكان ابن أبي اسحاق وعيسى بن عمر يطعُنان عليهم » .
ـ الرجوع الى ما قالت العرب ، راجع في ذلك ص 22 « وتقول العرب : سَحَتَهُ وأَسْحَتَهُ يُقْرَأُ بهما في القرآن جيعا » وكذلك ص 184 « وقد تقول العرب : حتى يكون كذا وكذا لما لا يكون أبدا . . . » .
ـ من عادة العرب الاستزادة في الشعر كالمثل لا يريدون به السرقة ، من ذلك ما يُرْوَى للنابغة قوله :

تَعْدُو الذئابُ على مَنْ لا كلابَ له ... وتَتَّقِي مَرْبِضَ المُسْتَنْفِرِ الحَامِي

الافراط (17) وفي استحسانهم المِقْدَارَ الأوسط ؟ (18) ألم يثبت الجمحي أيضا المفهوم العربي للرثاء على أنه مَدْحُ ٱلْمَيِّتِ ؟ (19) .

إنّ كتاب الجمحي بمستوييه التراكمي والتوليدي هو الذي جعل منه كتاب أصول في النقد ممّا دفعنا الى اختياره لدراسة مدوّنة الشعراء النقدية التي يعتمدها مقسمين هذه الدراسة الى فرعين : أحدهما يخص الناقد والثاني يخص النقد .

ان مجرد التساؤل ، وان تواتر نفس السؤال ، دليل وعي بالظاهرة الأدبية وباختلاف الجودة الشعرية وان كان الفكر النقدي في هذا المستوى لا يستطيع تعليل ذلك الاختلاف تعليلا دقيقا . ان تتالي السؤال الترتيبي « ثم من ؟ » ارهاص بإمكان تنزيل الشعراء في أماكنهم وفق الزمن (الجاهلية والاسلام) ، (20) أو وفق القبيلة (21) أو وفق الجودة الفنية (22) .

اذا تدبّرنا الوجه الثالث ظهر أولا أن النص نفسه يقوم حجة على الجودة . فالحطيئة في اجابته لم يذكر اسم زهير ولا النابغة بل اكتفى بايراد بيت لكل من الشاعرين (23) . ان عملية استبدال اسم الشاعر بعبارة « الذي

وهناك من رواه لِلزِّبْرِقان بن بدرٍ :

ان الذئابَ ترى مَنْ لا كلابَ له وتحتمي مَرْبِضَ المُسْتَنْفِرِ الحَامِي

يقول الجمحي ، ص 58 « وسألت يونس عن البيت فقال : هو للنابغة . أظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء موضعُه لا مُجْتَلِبًا له .

وقد تفعل ذلك العرب لا يريدون به السرقة » راجع في هذا الصدد الامثلة التي يضربها الجمحي للدفاع عن رأيه ، ص 58 و 59 .

(17) المصدر السابق ، ص 77 .

(18) المصدر السابق ، ص 70 .

(19) المصدر السابق ، ص 209 ـ 285 .

(20) المصدر السابق ، ص 64 .

(21) المصدر السابق ، ص 131 .

(22) المصدر السابق ، ص 64 .

(23) المصدر السابق ، ص 121 .

يبدو الشاعر الناقد في صورة « الْحَكَمِ » الذي يسعى اليه الجميع ولا مجيب غيره :

الشاعر الناقد	السؤال	الشعراء مرتبون حسب اجابة الشاعر	الحجة المعتمدة في الحكم	الاحالة على كتاب الجمحي
الفرزدق	مَنْ أشعر الناس ؟	1 ـ امرىء القيس	ـ ذكر بيتين من الشعر لامرىء القيس	52 ـ 53
لبيد	مَنْ أشعر الناس ؟	1 ـ امرؤ القيس 2 ـ طرفة 3 ـ لبيد	ـ ـ ـ	54
جرير	ـ مَنْ أشعر الناس ؟ في الجاهلية ؟ ـ جرير أم في الاسلام ؟	← زهير 1 ـ جرير 2 ـ الفرزدق 3 ـ الأخطل	ـ ـ « أنا نَحَرْتُ الشعر نحرًا » ـ « نَبْعَةُ الشعر » ـ « يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر » .	64
الحطيئة	مَنْ أشعر العرب ؟	1 ـ « الذي يقول . . . » [زهير] 2 ـ « الذي يقول . . . » [النابغة] 3 ـ الحطيئة	ـ ذكر بيت لزهير ـ ذكر بيت للنابغة ـ « وحَسْبُكَ بي اذا وضعتُ احدي رجليَّ على الأخرى ثم عويت في إثر القوافي كما يعوي الفصيل في إثر أمّه »	120

الشاعر الناقد	السؤال	الشعراء مرتبون حسب اجابة الشاعر	الحجة المعتمدة في الحكم	الاحالة على كتاب الجمحي
حسّان بن ثابت	ـ مَنْ أشعر الناسِ ؟ حيًّا ـ حسان أو رجلا ؟	← حيًّا : هُذيل ← أبو ذُؤيْب	- -	131
نـصيـب	ـ مَنْ أشعر الناس ؟	1 ـ أخو بني تميم 2 ـ نصيب 3 ـ ابن يسار النسائي	- - -	408 وكذلك 675
ابن يسار النسائي	ـ مَنْ أشعر الناس ؟	1 ـ أخو بني تميم 2 ـ ابن يسار النسائي 3 ـ نصيب	- - -	
ذو الرّمة	ذو الرمة هو السائل : ـ من أحسن الناس وصفا للمطر ؟	أجاب بعضهم : 1 ـ عبيد 2 ـ عبد بني الحسحاس أجاب ذو الرمة : 1 ـ امرؤ القيس	ـ ذكر بيتين لعبيد ـ ذكر أبيات لعبد بني الحسحاس ـ ذكر أبيات لامرىء القيس	

يقول » مشفوعة ببيت شعري دليل على تطور الفكر النقدي من الشاعر الى الشعر .

ان لهذه الأسئلة المؤدية الى الترتيب التفاضلي العام أثرها في النقاد ، اذ نسج على منوالها الجمحي نفسه : « قلت لعمرو بن معاذ التّيميّ وكان بصيرا بالشعر : من أشعر الناس ؟ قال : أوس ، قلت ، ثم من من ؟ قال : أبو ذؤيب » (24) . أليس تراكم تلك الأسئلة وتلك الاجابات هو الذي أرهص بفكرة « ترتيب » الشعراء ؟

يزداد مفهوم « الاحتكام » دقة عندما يصبح التفاضل رهين النص مثل التساؤل عن أحسن الناس وصفا للمطر (25) . فان لم يبيّن ذو الرمة ولا سائلوه أسباب جودة الابيات التي ساقوها في وصف المطر ، فان مجرد اختيار تلك الأبيات انما هو وليد « تأمّل » خفيّ في النص الشعري . أليس الأمر كذلك عندما يضيق نطاق التفاضل بين الشعراء فيصبح بين اثنين أو ثلاثة ؟ من ذلك « حكومة » الأخطل بين الفرزدق وجرير : « الفرزدق ينحت من صخر وجريريغرف من بحر » (26) ، وهي حكومة مبنية على « الاستماع » لكل من الشاعرين أدى الى تفضيل جرير على الفرزدق : « لما بلغ الأخطل تهاجي جرير والفرزدق ، قال لابنه مالك : انحدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما . قال : فلقيهما ثم استمع ، فأتى أباه فقال : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر . فقال الأخطل : فجرير أشعرهما » (27) . الاّ أن حكومة الأخطل بعد ذلك ستصبح مريبة لأن البعض ارتشاه ليسبّ

---

(24) المصدر السابق ، ص 98 .
(25) المصدر السابق ، ص 92 ـ 94 .
(26) المصدر السابق ، ص 474 .
(27) المصدر السابق ، ص 451 .

جريرا ويفضّل الفرزدق (28) ، ممّا جعل جريرا يهجوه ويصف « حكومته » بحكومة « النشوان » .

يا ذا العبايَة إنَّ بِشْرًا قد قضى أنْ لا تجوزَ شهادةُ النشوانِ
فدعُوا الحكُومةَ لستم من أهلها إنَّ الحكومةَ في بني شيْبانِ (29)

الّا أن جريرا كان يقرّ في نفسه بشاعرية الأخطل قائلا : « لقد أُعِنْتُ عليه بكفر وكبر سن » (30) . ولقد كانت حكومة بشار أقرب الى الموضوعية اذ اعتمد فيها على مقياس « الاقتدار » على القول في كل ضروب الشعر : « وسألتُ بشارا المُرَعَّث : أيّ الثلاثة أشعر ؟ فقال : لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، قلت : فهذان ؟ قال : كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ، ولقد ماتت النوار فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير » (31) .

ان مفهوم « الاحتكام » كان سائدا اذن في عصر الجمحي وقبله ، فهو شكل نقدي شائع عند الناس . ألم يكن « الرجلان من بني مروان يختلفان في الشعر فيرسلان راكبا فينيخ ببابه [أي قتادة بن دعامة] فيسأله عنه ثم يشخص » (32) ؟ أليس هذا هو الشكل الذي لجأ اليه رجلان تنازعا أثناء الحرب في جرير والفرزدق ، فاحتكما الى أحد من عسكر العدو ؟ (33) .

لو حللنا المسألة من زاوية أخرى لوجدنا لمفهوم « الحكومة » و « الاحتكام » حقلا اصطلاحيا متكاملا (34) . ان هذا المفهوم مستمد

---

(28) المصدر السابق ، ص 452 وكذلك 436 .
(29) المصدر السابق ، ص 452 و 474 .
(30) المصدر السابق ، ص 487 .
(31) المصدر السابق ، ص 456 .
(32) المصدر السابق ، ص 61 .
(33) المصدر السابق ، ص 383 .
(34) لم يخص أيّ باحث ، على حد علمنا ، دراسة للمصطلح عند ابن سلام غير رجاء عيد في مقالة بعنوان « بواكير المصطلحات النقدية » مجلة فصول (تراثنا النقدي ـ ج2) العدد 2 السنة 1986 ص

أساسا ممّا ولّدته العصبية القبلية من اعتزاز بالنسب : « قال لهما ـ أعني الفرزدق وجريرا ـ بعض الخلفاء : حتى متى لا تَنْزِعَان ؟ فقال جرير : يا أمير المؤمنين انه والله يظلمني ، قال : صدق ، أنا أظلمه ووجدت أبي يظلم أباه » (35) . وتزايد ذلك بتحميش الأمراء وكانوا المستفيدين من هذا الهراش : « قال الحجاج لهما [الفرزدق وجرير] وهو في قصره بِحَزِيزِ البصرة : ائتيا في لباس آبائكما في الجاهلية . فجاء الفرزدق وقد لبس الديباج والخز وقعد في قبة . وشاور جرير دهاة بني يَربوع فقالوا : ما لباسُ آبائنا الّا الحديد ، فلبس جرير درعا وتقلد سيفا وأخذ رمحا وركب فرسا لعباد بن الحُصين يقال له المِنْحَازُ [وأَقْبَلَ] في أربعين [فارسًا] من بني يربوع » (36) .

ما يهمنا من هذا الذي سقناه هو أنه عنه تولّد مصطلحان مهمان هما « المفاخرة » و « المنافرة » . وهما يشتركان في ضرورة مساهمة طَرَفَيْنِ قد يتساويان وقد ينتصر أحدهما فيكون « الغالب » و « النافر » ، وأما الثاني فهو « الفخير» أي « المغلوب بالفخر » أو « المنفور » .

ان مصطلح « المنافرة » أو « النفار » أشد دقة للتعبير عن روح هذه العصبية ، فهو يشير الى معنى « التَّفَرُّقِ » الذي يحصل بسبب تلك العصبية ، وهو يشير أيضا الى معنى الاستنفار وارتباطه بالنفر أي الرهط والأسرة ، وهو

---

107 ـ 122 ولنا الى هذه المقالة عودة في عمل لاحق . ولعل الأغرب أن حسن عبد الله أشرف له مؤلف بعنوان « النقد في العصر الوسيط والمصطلح في طبقات ابن سلام » (دار الحداثة ـ بيروت ، ط 1/1984) ، قلت : الأغرب أنه رغم هذا العنوان الهام فان دراسة المصطلح غابت تماما واكتفى المؤلف بدراسة العصر وحياة ابن سلام وثقافته وظروف تحقيق الكتاب وما « أصابه » من تبديل ، ثم تعرض المؤلف بعد ما يقارب مائة صفحة الى مفهوم النقد عند الجمحي (ص 93 الى 148) وأنهى كتابه بموازنة بين مذهب الجمحي ومذهب الجاحظ .

(35) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 370 .

(36) المصدر السابق ، ص 406 .

يشير ثالثا الى معنى الافتخار شعرا والاحتكام الى طرف ثالث يحكم على أساس النسب والجودة الشعرية :

مادة « ف خ ر » (« لسان العرب » لابن منظور)

- التّمدح بالخصال والافتخار وعَدُّ القديم
- فاخره مفاخرة وفِخَارًا : عارضه بالفخر ففخره
- فَخِيرُكَ : الذي يفاخرك ومثاله الخصيم
- فَخَره عليه يفخَره فَخْرًا وأَفْخَرَهُ عليه : فَضَّلَهُ عليه في الفخر
- الفخير : المغلوب بالفخر

توزيع مادة « ن ف ر » (« لسان العرب » لابن منظور)

المعنى 1 - النفر : التفرّق
- يقال أنْفرْنا أي تفرّقت إبلنا ، وأُنْفِرَ بنا أي جُعِلْنَا مُنْفِرِين ذوي إبلٍ نافرة

المعنى 2 - استنفر القومَ فنفروا معه وأَنْفَرُوهُ أي نصروه ومَدُّوهُ
- الاستنفار : الاستنجاد والاستنصار
- نَفْرة الرجل ونَفَرُه : رهطه
- نَفْرة الرجل : أسرته . ورد ذلك في الحديث : غَلَبَتْ نفورتُنَا نفورتَهم

توزيع مادة « ن ف ر » (« لسان العرب » لابن منظور)

المعنى 3 - نافرتُ الرجلَ منافرةً اذا قاضيته
- المنافرة : المفاخرة والمحاكمة
- المنافرة : المحاكمة في الحسب ، قال أبو عبيد : المنافرة أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ثم يُحَكِّمَا بينهما رجلا
- المنفور : المغلوب
- النافر : الغالب
- قد نافره فَنَفَرَهُ يَنْفُرُهُ ، بالضمّ لا غير ، أي غلبه
- وقيل نَفَرَهُ يَنْفِرُهُ ويَنْفُرُهُ نفْرًا اذا غلبه
- نَفَّرَ الحاكمُ أحدهما على صاحبه تنفيرا : أي قضى عليه بالغلبة وكذلك أَنْفَرَهُ
- وفي حديث أبي ذَرٍّ : نافر أخي أنيْسٌ فلانا الشاعرَ : أراد أنهما تفاخرا أَيُّهُمَا أجودُ شعرا
- قال ابن سيده : وكأنها جاءت المنافرة في أول ما استعملت أنهم كانوا يسألون الحاكم : أَيُّنا أَعَزُّ نَفَرًا ؟

قد ذكر الجمحي على لسان الشعراء وغيرهم « المنافرة » أو « النّفار » . وبوّبنا ذلك كما يلي :

الاحالة على كتاب الجمحي	الحَكَمُ	النّافر	المنفور	نصُّ الحُكْمِ
111	الحطيئة	علقمة ابن عُلاثة	عامِر بن الطّفيل	يَا عَامِ قد كنتَ ذا باع ومكرُمةٍ لو أنَّ مَسْعَاةَ مَنْ جَارَيْتَهُ أَمَمُ جَارَيْتَ فرْعًا أجاد الأحوصان بِهِ ضخمَ الدّسيعَةِ في عِرْنينِهِ شَمَمُ لا يصْعبُ الأمر الاّ رَيْثَ يَرْكَبُهُ ولا يبيتُ على مالٍ له قَسَمُ
112	الأعشى	عامر ابن الطفيل ولبيد بن ربيعة	—	
112	الحطيئة	عُيَينة بن حصن بن حذيفة ابن بدر	زبان بن سيار بن عمرو بن جابر	أَبَى لك آباءٌ أَبَى لكَ مَجْدُهُمْ سوى المجدِ فانظرْ صاغرا مَنْ تُنَافِرُهْ قبور أصابتها السيوف ثلاثة نجوم هَوَتْ في كل نجم مَرَائِرُهْ
448	النعمان	رجل من قوم عامر ابن عبيد أي عبد القيس	عامر بن عبيد [مرجوم]	« رَجَمْتُكَ بِالشَّرَفِ » [« فَسُمِّيَ مرجوما »]

يستعمل المتنافران عند ذكر النسب والانتصارات « المقايسة ». ذكر الاخطل :

ولقد تقايَسْتمْ الى أحسابكم وجعلتمُ حَكَمًا من الصَّلتان

اذا كانت « المنافرة » اذن حافزها العصبية القبلية فانها لا تتم الاّ بالكلام وبالشعر أساسا . فهي تقتضي « التَّقَاوُلَ » : « كان عبد الرحمان بن حسان

ويزيد بن معاوية يتقاولان » (37) وهي تقتضي أيضا « التَّحَاوُلَ » . ذكر الجمحي أن خالد بن الوليد ومالك بن نويرة « تَحَاوَلَا » (38) .

إن « التقاول » و « التحاول » بواسطة الشعر ينتهيان بالحكم بـ « الغلبة » لأحد الطرفين (39) :

الغالب والغُلُبَّةُ	المُغَلَّبُ والمغلوب
ـ ليلى الأَخْيلية ـ أَوْس بن مَغْرَاء القرَيْعي	 نابغة بني جَعدة (40)

وممّا يخص « الغالب » من المصطلحات نذكر « الاستعلاء » وما يحمله من معاني الرفعة وقهر الخصم ، وكذلك المعنى الجنسي لـ « فحولة » : « كان عبد الرحمان بن حسان ويزيد بن معاوية يتقاولان فاستعلاه ابن حسان » (41) .

(37) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 461 .

(38) المصدر السابق ، ص 207 .
ان مصطلحَيْ « التقاول » (أي التنازع والتحاور وطلب الحيلة) و « التحاور » (أي التنازع والتهاجي) كما ذكر محقق كتاب الجمحي من بين الالفاظ التي قصرت في بيانها المعاجم .

(39) راجع تواتر مصطلح « غلبة » في « طبقات فحول الشعراء » للجمحي ، ص 124 ـ 150 ـ 387 ـ 389 ـ 535 ـ 551 .
راجع أيضا مادة « غ ل ب » في لسان العرب لابن منظور .

(40) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 125 .

(41) المصدر السابق ، ص 461 .
جاء أيضا في ص 477 « وكان الأخطل مستعليا قيسا في حربهم » وفي الصفحة 557 « وكان ذو الرمة مستعليا هشاما » .

أما المغلوب فليس له الّا أن « يناقض » خصمه (42) أو « يعارضه » (43) أو « يرفده » شاعر آخر (44) . لا غرابة والحال حال « نفار » و « قهر » و « غلبة » أن يتفرّع عن المصطلحات الأم معجم لمعاني الصراع والافتراس :

ـ « حدثني عثمان بن عثمان عن عبد الرحمان بن حَرْملة قال : لمّا ورد علينا هجاء جرير والتيْمي قال لي سعيد بن المسيّب : تَرَوَّا لنا ممّا قالا شيئا ، فأتيته وقد استقبل القبلة يريد أن يكبّر ، فقال : أَرَوَيْتَ شيئا ؟ قلت : نعم ، فأقبل علي بوجهه ، فأنشدته للتيْمي وهو يقول : هيهِ هيهِ ! ثم أنشدته لجرير فقال : أكله أكله » (45) .

ـ « فقال لي بعضُ رواة قيس وعلمائهم ، كان الراعي فحلَ مضر حتى ضغمه الليث ، يعني جريرا » (46) .

ـ « وكان هَوَى ذي الرمة مع الفرزدق على جرير وذلك لما كان بين جرير وابن لجإ التيمي . وتَيْمٌ وعديٌّ اخوان من الرِّباب ، وعُكْلٌ أخوهم ، ولذلك يقول جرير :

فلا يضغمنّ الليث عُكْلًا بِغِرَّةٍ وعُكْلٌ يشمّون الفريسَ المُنَيَّبَا » (47)

ان المهم في نظرنا بعد كل هذا أن صورة الناقد الأولى تتمثل في هذا « الحَكَمِ » الذي يحكم بالعدل (48) ، وكان الشعراء أوائل الحكام أوائل

---

(42) المصدر السابق ، ص 223 .

(43) المصدر السابق ، ص 513 .

(44) جاء في « لسان العرب » لابن منظور عن اللّيث أنه قال : « الرِّفدُ : المعونة بالعطاء وسقْي اللبن والقول وكل شيء » [مادة رفد] . راجع كذلك « طبقات فحول الشعراء » للجمحي ، ص 557 .

(45) المصدر السابق ، ص 334 .

(46) المصدر السابق ، ص 438 .

(47) المصدر السابق ، ص 553 .

(48) راجع مادة « ح ك م » في « لسان العرب » لابن منظور .

النقاد. فعلى شكل « المنافرة » بُنِيَتْ « المعارضة » و « المفاضلة » و « الموازنة » ، وانطلاقا من هذه الأشكال قُدَّ الفكرُ النقدي العربي . وكان لذلك أثره في مفهوم النقد وتصوّر الابداع .

اذا طرحنا جانبا تلك الأحكام التي ليس فيها أي تعليل ، وقد ذكرنا منها الكثير ، فإنّ بقية الأحكام يمكن أن نوزعها على محورين : النقد الخارجي والنقد الداخلي .

ان المحور الأول يتعلق بأمور منها القول بالوراثة الشعرية . يشير الفرزدق صراحة الى أنه ورث الشعر عن شعراء بني مجاشع بن دارم : نابغة بني ذبيان والنابغة الجعدي ونابغة بني شيبان وكذلك الحطيئة وامرىء القيس :

وَهَبَ القصائدَ لي النوابغُ إذمَضَوْا وأبو يزيد وذو القروح وجَرْوَلُ (49)

مثل هذا الاعتقاد يتصل اتصالا شديدا بظاهرة النسب التي زادتها العصبية القبلية أهمية وكان من نتائجها تفويق العنصر العربي على غيره ، وهو أمر أكد عليه الشعراء أنفسهم . ألم يستخفّ جرير بنصيب عندما قال له : « اذهبْ فأنت أشعر أهل جلدتك » (50) ؟

من النقد الخارجي أيضا ما يتعلق بالمكان ، فالبحرين حسب الشعراء ليس فيها شعر وأهلها انما هم أهل نخل ، من ذلك أنْ حاول الصَّلَتَان العبدي من منازل عبد القيس بالبحرين الحُكْمَ بين جرير والفرزدق مساويا بينهما في الشرف والجودة الشعرية ، فقال الفرزدق : « أما الشرف فقد عَرَفَهُ ، وأما الشعر فما للبحراني والشعر ؟ » (51) ، وعيّر جرير أيضا أهل البحرين بأنهم أهل نخل لا أصحاب شعر :

أقولُ ولم أَمْلِكْ سوابقَ عَبْرَةٍ متى كان حُكْمُ الله في كَرَبِ النَّخْلِ (52)

---

(49) الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، ص 149 .
(50) المصدر السابق ، ص 675 .
(51) المصدر السابق ، ص 404 .
(52) المصدر السابق ، ص 405 .

وهو ما يؤكده أحمد بن غدانة في موضع آخر بقوله :

نُــبِّئْتُ عَــبْـدًا يَـسُــبُّـنِي أُحَيْمِرَ سَوَّارًا على كَرَبِ النَّخْلِ (53)

ذكر الجمحي كذلك البحرين عند حديثه عن شعراء القُرى . إلاّ أنّ رأيه مخالف للرأي السابق إذ يقول : « وفي البحرين شعر كثير جيّد وفصاحة » (54) ذاكرا من شعرائها المثقّب العبْدي والممزَّق العبْدي والمفضَّل بن معشر بن أسحم .

إنّ سبب هذا الاختلاف يُرَدُّ إما الى مجرد عصبية وامّا أن يكون هؤلاء الشعراء الذين ذكرهم الجمحي قد عرفوا واشتهروا بسبب أسمائهم لأبيات قالوها ، فالمثقّب سُمِّيَ بذلك لقوله :

رَدَدْنَ تحيـةً وَكَنَنَّ أخرى وثَقَّبْنَ الوصاوص للعيون (55)

والممزَّق سُمِّيَ بذلك لبيته :

فان كنتُ مَأْكولاً، فَكُنْ خيرَ آكِلٍ والاّ فـأدْرِكْني وَلَمَّا أُمَـزَّقِ (56)

وسمي المفضل بن معشر « اذ فَضَّلَتْهُ قصيدته التي يقال لها الْمُنْصِفَة وأولها :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ جِيرَتَنَا استقلّوا فَنِيَّتُهُمْ وَنِيَّتُنَـا فَـرِيـقُ » (57)

المهمّ أن للشعر ، حسب الشعراء وغيرهم في ذلك الوقت ، تقسيما مكانيا ناتجا عن التقسيم السياسي والعصبية وما تبعها من نحل للأشعار والأنساب ، وبهذا التقسيم من نتائجه نظريّة تنقل الشعر في القبائل : « وكان

(53) المصدر السابق ، ص 450 .
(54) المصدر السابق ، ص 271 .
(55) المصدر السابق ، ص 271 .
(56) المصدر السابق ، ص 274 .
(57) المصدر السابق ، ص 275 .

شعراء الجاهلية في ربيعة . . . ثم تحول [الشعر] في قيس . . . ثم آل ذلك الى تميم فلم يزل فيهم الى اليوم » (58) ، وسواء أكانت هذه النظرية صحيحة أم لا (59) ، فان الفكر النقدي آنذاك جعل لذلك التقسيم دوره في التفوق الشعري والاّ كيف نفسر استخفاف الأخطل بكثيّر عندما قال له : « أرى شعرا حجازيا مقرورا لو ضغطه برد الشام لاضمحل » (60) . وهذا الاستخفاف هو الذي دفع الجمحي الى القول : « وكان كثيّر شاعر أهل الحجاز وانهم ليقدّمونه على بعض من قدّمنا عليه . وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظه بالعراق » (61) . يؤكد الجمحي ذلك في موضعين آخرين : أولهما : « وكانت له [أي لكثيّر] منزلة عند قريش وقدْرٌ » (62) . والموضع الثاني : « مات كثيّر وعِكرمة مولى ابن عباس في يوم واحد فأَجْفَلَتْ قريش في جنازة كثيّر ولم يوجد لعكرمة من يحمله » (63) .

عند تحليلك للنقد الداخلي لدى الشعراء ، فان أول ما يشدك شدا هو هذه الأحكام التي يرسلونها موجزة عن طريق المجاز . هي التلميح أبلغ في الدقة وهي أمارة تفاعل بين طاقة الابداع وطاقة النقد . فتأَمَّلْ قول الفرزدق في تفاوت شعر الجعدي : « مَثلُهُ مَثَلُ صاحب الخُلْقَانِ ترى عنده ثَوْبَ عَصْبٍ

---

(58) المصدر السابق ، ص 40 . ذكر الاصمعي ذلك أيضا في كتابه « فحولة الشعراء » ص 18 : « قال الاصمعي : سئل شيخ عالم عن الشعراء فقال : كان الشعر في الجاهلية في ربيعة وصار في قيس ثم جاء الاسلام فصار في تميم » .

(59) نقد طه حسين هذه النظرية في كتابه « في الأدب الجاهلي » ص 192 قائلا : « ومن هنا نرى أن النظرية التي أشرنا اليها في الكتاب الثاني ، وهي نظرية تنقل الشعر في القبائل ليست نظرية صحيحة ولا طبيعية ولا ملائمة للواقع من طبيعة الأشياء . فلسنا نفهم أن ينشأ الشعر في اليمن ثم ينتقل منها الى ربيعة ثم الى قيس من مضر ثم الى تميم ، على نحو ما قال القدماء ، وانما نفهم أن ينشأ هذا الشعر العربي في مضر وينتقل منها الى أقرب القبائل العربية اليها طبيعة ولغة وموطنا ، الى ربيعة ثم الى قبائل عربية أخرى أبعد من ربيعة . . . » .

(60) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 541 .

(61) المصدر السابق ، ص 540 .

(62) المصدر السابق ، ص 541 .

(63) المصدر السابق ، ص 545 .

وثوبَ خزٍّ والى جَنبه سملُ كساءٍ » (64) . أليست هذه الصورة طريفة : بائعُ قديمِ الثيابِ وقد جمع بين الحرير وأجود برود اليمن وبين الخلق من الثياب ؟ أليست تلك الصورة ، وهي من محيط الشاعر ، تعبّر بدقة عن تفاوت شعر الجَعْدي ؟ . أليس هذا هو نفس ما قاله الاصمعي : « عنده خمار بوافٍ ومُطرف بآلاف ؟ » (65) ألا يذكرنا هذا أيضا برأي جرير في شعر ذي الرمة : « نقْطُ عروس وأبعارُ ظباءٍ » (66) ؟

قد يكون التعبير الاصطلاحي عن تلك الخاصية الشعرية لم ينشأ بعد ، فاضطر الشعراء الى هذا المسلك في القول ، وقد يكون منشأ ذلك أيضا ميلهم الى اللعب بالكلام لعبا ، وكان ذلك يُعْجِبهم ، وكان ذلك يُعْجِب الناس . يُعْجِبُ ذلك الشعراء لأنهم أمراء الكلام يخضعونه منظوما ومنثورا . وهو يعجب الناس لأن عناصر تلك الصورة هي من محيطهم أساسا ولأن لهم في ذلك المسلك من القول متعة وتطرية للذهن .

تمضي أغلب أحكام الشعراء التي يرسلونها على هذا النسق ، فتأملْ مرة أخرى الحكم في شاعرية الفرزدق وجرير والأخطل . أما الفرزدق على حد قول جرير فهو « نَبْعَةُ الشعر » (67) . صورة استلهمها جرير من النبعة وهي شجر تُتَّخَذُ من أعواده القسيّ ، فكما أن قوس النبع تفضل سائر القسيّ فكذلك يفضل شعر الفرزدق سائر الشعر .

ان الفرزدق من جهة أخرى وعلى حد الأخطل « ينحت من صخر » (68) اشارة الى أنه يتكلف الشعر ويستدعيه استدعاء ، على حين أن جريرا في

---

(64) المصدر السابق ، ص ص 124 ـ 125 .
(65) المصدر السابق ، ص 125 .
(66) المرزباني « الموشح » ص 271 ، وكذلك « طبقات فحول الشعراء » للجمحي ، ص 551 .
(67) الجمحي « طبقات فحول الشعراء » ص 64 ـ 65 ـ 299 .
(68) المصدر السابق ، ص 451 ـ 454 ـ 474 .

نظر الأخطل : « يغرف من بحر » (69) ، وهو في نظر نفسه قد « نحر الشعر نحرا » (70) ، وهو ثالثا في نظر الفرزدق « تضطرب دلاؤه عند طول النَّهْزِ » . والنَّهْزُ لغة اذا ضربتَ بالدلو في البئر لتمتلىء ، فَنَهَزَ الدلو أي نزع بها . أليس اضطراب دلاء جرير هو ضعفه في الغوص على المعاني ومعاناة الشعر ؟ (71)

أَرْسَى الشعراء أنفسهم اذن أحكاما ستسمهم بعد ذلك : جرير هو الشاعر الذي يقول وفق طبعه ، والفرزدق هو الذي يستنبط المعاني استنباطا : « وكان يُدَاخِلُ الكلام وكان ذلك يعجب أصحاب النحو » (72) . ألا يُمَهِّدُ ذلك تمهيدا للخصومة بين أصحاب البحتري وأصحاب أبي تمام والتي ستنتهي بِإرْسَاءِ « طريقة العرب » أو « عمود الشعر » ؟

إنْ كان هذا القسم الأول من الأحكام يخص الشّعريّة ، فان بقية الأحكام تخص النص الشعري وبالذات ما يتعلق بالخروج عن المألوف كوصف الابل بشدة وطئها في موضع مرورها . من ذلك فساد تشبيهها بمشي العجوز في قول عمر بن لجإ التيمي :

« قد وَرَدَتْ قبل أَنَى ضَحَائِهَا ٭ تَقَرُّشَ الحيَّاتِ في خَرْشَائِهَا

جَرَّ العجوزِ الثِّنْيَ من رِدَائِهَا

فقال له جرير : أَخْفَفْتَ مَرَّهَا ، قال : فكيف أقول ؟ قال : تقول :

جرّ العروس الثني من ردائها » (74)

---

(69) المصدر السابق ، ص 474 .
(70) المصدر السابق ، ص 64 ـ 65 .
(71) المصدر السابق ، ص 377 .
(72) أشار الى ذلك محقق كتاب الجمحي ، ص 377 ملحوظة 3 . وهي اشارة ذكية نستصوبها . راجع مواضع انفعال المحقق مع نص « الطبقات » تأويلا واعجاب وأحيانا سخطا . وقد يكون ذلك منطلق دراسة موضوعها تقبّل النصوص القديمة : 26 ـ 28 ـ 35 ـ 45 ـ 46 ـ 84 ـ 85 ـ 86 ـ 92 ـ 93 ـ 95 ـ 96 ـ 101 ـ 201 ـ 211 ـ 212 ـ 274 .
(73) المصدر السابق ، ص 364 .
(74) المصدر السابق ، ص 424 .

مثل هذه الملاحظة تدل على أنها مستقاة من المحيط ، فهي تصد كل تحريف لواقع ذلك المحيط (75) ، وفي ذلك دليل على التفاعل بين النص ومنابته .

اذا تدبّرتَ ما أوردناه عما قاله الشعراء في الشعر ، بانت لك على الأقل نتيجتان : أولاهما أنه من الشاعر وُلِدَ النّاقِدُ . والمدوّنة التي ضبطناها في مؤلَّف الجمحي تصور بحق نشأة النقد العربي قبل تدوينه. فعلى لسان الشعراء كان الشعر ، وعلى لسان الشعراء كان النقد . يجتنون نُوَّارَ الكلام من جهة وينظرون فيه من جهة أخرى . ألا ترى هنا أن عمل الشعر ضروري للعلم به ؟ ألم يتولد عن هذا التلازم تسليم الحكم في الشعر الى الشاعر ؟ ألم يقر الجمحي بهذا التلازم معوضا عمل الشعر بـ « الرواية » حينا و « المدارسة » أحيانا أخرى : « وإن كثرة المدارسة لَتُعْدِي على العلم به » (76) ؟ ألا يكون عندها مفهوم أهل العلم بالشعر مستخرجا أساسا من مفهوم الشاعر ـ الناقد ؟

النتيجة الثانية ممّا أوردناه أن مدونة الشعراء هي الرصيد الأساسي الذي انطلق منه النقاد . فآراء الجمحي لا تخرج عما أورده من أحكام الشعراء بل هو يصرح بذلك كما في هذا الخبر : « قال أبو عمرو بن العلاء : سئل حسان من أشعر الناس ؟ قال : حيا أو رجلا قال : حيا . قال : أشعر الناس حيا هذيل ، وَأَشْعَرُ هذيل غير مدافع أبو ذؤيب ، [قال ابن سلام : هذا من قول أبي عمرو ونحن نقوله] » (77) . فكما أخذ الخلفاء والأمراء برأى الشعراء (78) أخذ بذلك أيضا اللغويون والنقاد .

إن شكّلت المدونة التي ضبطناها الجانب التراكمي في كتاب الجمحي فانها كذلك كانت قادحا أساسيا لتوليد قضايا نقدية وتطويرها كشروط الناقد ومقاييس التفوق الأدبي من النص وخارجه .

(75) راجع مثل تلك الأحكام في طبقات الجمحي ، ص 128 ـ 424 ـ 550 ـ 569 .
(76) المصدر السابق ، ص 7 .
(77) المصدر السابق ، ص 131 .
(78) المصدر السابق ، ص 116 .

ملحق

ضبط مدونة الشعراء النقدية الواردة في كتاب « طبقات فحول الشعراء » للجمحي

1/ص 52 ـ 53 :

« وأخبرني شُعَيْب بن صخر عن هارون بن ابراهيم قال : سمعت قائلا يقول للفرزدق : من أشعر الناس يا أبا فِراس ؟ قال : ذو القروح ، يعني امرأ القيس ، قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول :

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ ببني أبيهم وبِالْأَشْقَيْنَ ما كان العِقَابُ
[وأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءٌ جَرِيضًا ولو أَدْرَكْنَهُ صَفِرَ الوِطَابِ]

2/ص 54 :

وأخبرني أبان بن عثمان البَجَليّ قال : مرّ لبيد بالكوفة في بني نَهْد ، فأتبعوه رسولا سؤولا يَسْئَلُهُ : من أشعر الناس ؟ قال : الملكُ الضِّلّيل ، فأعادوه اليه ، قال : ثم من ؟ قال : الغلامُ القتيل ـ وقال غير أبان : ابن العشرين يعني طرفة ـ قال : ثم من ؟ قال : الشيخ أبو عَقيل ـ يعني نفسه .

3/ص 64 :

وأخبرني أبو قَيْس العَنْبري ـ ولم أر بدويا يزيد عليه ـ عن عِكرمة بن جَرير قال : قلت لأبي : يا أَبَهْ ، مَنْ ، أشعر الناس ؟ ، قال : أعن الجاهلية تسألني أم أهل الاسلام ؟ قلت : ما أردتُ الاّ الاسلام ، فَإذْ ذكرتَ أهل

الجاهلية فأخبرني عن أهلها ، قال : زهيرٌ شاعرها ، قال : قلت : فالاسلام ؟ قال : الفرزدق نبعة الشعر ، قلت : فالأخطل ؟ قال : يجيد مدح الملوك ويصيب صفة الخمر . قلت : فما تركتَ لنفسك ؟ قال : دعني فاني أنا نحرتُ الشعر نَحْرًا .

4/ص 67 ـ 68 :

ولم يُقْوِ من هذه الطبقة ولا من اشباههم الاّ النابغة في بيتين ، قولُه :

أَمِنَ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أو مغتدي عجْلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوّدِ
زَعَمَ البوارحُ أنّ رحلتَنا غدًا وبذاك خَبَّرَنا الْغُدَافُ الأَسْوَدُ

وقولُه :

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ واتَّقَتْنا باليدِ
بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يكاد من اللطافة يُعْقَدُ

. . . فَقَدِمَ المدينة ، فعيب ذلك عليه ، فلم يَأْبَهْ لهما حتى أسمعوه إيّاه في غناء ـ وأهلُ القرى أَلطفُ نظرًا من أهل البدو ، وكانوا يكتبون ، لجوارهم أهلَ الكتاب ـ فقالوا للجارية : اذا صرتِ الى القافية فَرَتِّلي . فلما قالت : « الغذافُ الأَسْوَدُ » و « يُعْقَدُ » و « باليدِ » علمَ وانتبه ، فلم يَعُدْ فيه ، وقال : قدمتُ الحجازَ وفي شعري ضَعَةٌ ورحلتُ عنها وأنا أشعر الناس .

5/ص 78 :

وأخبرني سَلَمة بن عياش قال : قلت لرؤبة : أبوك أشعرُ منك ، قال : أنا أشعرُ منه ، هو يقول :

وَخِنْدِفُ هامةُ هذا العالَـم

6/ص 92 ـ 96

أخبرني يونس بن حبيب قال : قال ذو الرمة : من أحسنُ الناس وصفًا للمطر ؟ فذكروا قول عَبيد :

دَانٍ مُسِفٌ فُوَيْقَ الأرضِ هَيْدَبُهُ   يكاد يدفعه مَنْ قَامَ بالرَّاحِ
فَمَنْ بِنَجْـوَتِـهِ كَمَنْ بِمَحْفِلِهِ   والمُسْتَكِنُّ كَمَنْ يمشي بِقِرْوَاحِ

- فجعلها يونس لعبيد ، وعلى ذلك كان إجْمَاعُنَا ، فلما قدم المفضل صَرَفَهَا الى أوْس بن حَجَر .

وذكروا قولَ عبد بني الحسحاس :

نَعِمْتُ بـه ظنًّا وأَيْقَنْتُ أنـه   يَحُطُّ الوعولَ والصُّخورَ الرَّوَاسِيَا
وَمَا حَرَّكَتْهُ الريحُ حتى ظَنَنْتُهُ   بِحَرَّةِ ليلى أو بِنَخْلَةَ ثَـاوِيَـا
فَـدَرَّ على الأَنْهَاءِ أَوَّلُ مُزْنِهِ   فَعَنَّ طويلا يسكُبُ الماءَ سَاجِيَا
رُكَامٌ يَسُحُّ الماءَ عن كلِّ فِيقَةٍ   ويُغْدِرُ في القيعان رَنْقًا وصافيا
وَمَرَّ على الأجبالِ أجبالِ طيِّءٍ   كَمَا سُقْتَ منكوبَ الدوابر حافيا
أجشُّ هَزِيمٌ سَيْلُهُ مع وَدْقِهِ   ترى خُشُبَ الغُلَّانِ فيه طوافيا
بَكَى شَجْوَهُ واغتاظ حتى حَسِبْتُهُ   من البُعْدِ لَمَّا جَلْجَلَ الرَّعدُ حَادِيَا

فقال ذو الرمة : بل قول امرىء القيس أجودُ ، حيث يقول :

دِيمَـةٌ هَـطْلَاءُ فيهـا وَطَـفٌ   طَبَقَ الأرضِ تَحَـرَّى وَتَـدُرْ
تُخْرِجُ الوَدَّ اذا مـا أَشْجَذَتْ   وتُـواريـه اذا مـا تَشْتَكِـرْ

67/ص 104 - 106 :

وقال [الحطيئة] لكعب بن زهير : قد علمتَ روايتي شعرَ أهل البيت وانقطاعي ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرُك ، فلو قلتَ شعرا تذكر فيه نفسك وَتَضَعُني موضعًا فإنَّ الناس لأشعاركم أَرْوَى واليها أسرع ، فقال كعب :

فَمَنْ للقوافي ؟ شَانَهَا مَنْ يَحُوكُهَا   اذا ما ثَوَى كَعْبٌ وفَوَّزَ جَرْوَلُ
[يقول ، فلا يَعْيَى بشيءٍ يقوله   وَمِنْ قائليها مَنْ يُسيءُ ويَعْمَلُ]

كَفَيْتُكَ لا تَلْقَى من الناس واحدا   تَنَخَّلَ منها مثلَ ما يَتَنَخَّلُ
يُثَقِّفُهَا حتى تَلِينَ مُتُونُهَا   فَيَقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتَمَثَّلُ

فاعترضه مُزَرِّد [بن ضرارٍ واسمه يزيد وهو] أخو الشّمّاخ ، وكان عِرِّيضًا [أي شديد العارضة كثيرها] ـ فقال :

وَبِاسْتِكَ اذْ خَلَّفْتَنِي ـ خلف شاعر   من الناس ـ لم أُكْفِئْ ولم أَتَنَحَّلِ
فَإِنْ تَجْشِبَا ، أَجْشِبْ وَإِنْ تَتَنَخَّلَا ،   وَإِنْ كنتُ أَفْتَى منكما ، أَتَنَخَّلِ
وَ لَسْتَ كحسَّانِ الحسامِ بن ثابتٍ   ولستَ كَشَمَّاخٍ ولا كالْمُخَبَّلِ
وأنت امرؤٌ من أهلِ قُدْسِ أُوَارَةٍ   أَحَلَّتْكَ عَبْدُ الله أَكْنَافَ مُبْهِلِ

8/ص 116 :

. . . فمدح [الحطيئة] بني قُرَيْع وذم الزِّبْرقان فاستعدى عليه الزبرقان عُمَر ، فأقدمه عمر ـ وقال للزبرقان : مَا قَالَ لك ؟ فقال : قال لي :

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا   وَاقْعُدْ فإنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسي

فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ أهجاه ؟ ـ وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسّان ، ولكنّه أراد الحجّة على الحطيئة ـ قال : ذَرَقَ عليه ! فألقاه عمر في حفرة اتخذها محبِسًا .

9/ص 120 ـ 121 :

[قال محمد بن سلام في كتاب طبقات الشعراء : دخل الحطيئة على سعيد بن العاص متنكرا فلما قام الناس وبقي الخواص أراد الحاجب أن يُقِيمَهُ ، فأبى أن يقوم ، فقال سعيد : دَعْهُ . وتذاكروا أيام العرب وأشعارها ، فلما أسهبوا قال الحطيئة : مَا صَنَعْتُمْ شيئا ، فقال سعيد : فهل عندك علم من ذلك ؟ قال : نعم ، قال : فمن أشعر العرب ؟ قال الذي يقول :

قد جعل المبتغون الخيرَ في هَرِمٍ   والسائلون الى أبوابه طُرُقَا

قال : ثم من ؟ قال : الذي يقول :

فانك شمسٌ والملوك كواكب اذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كوكبُ

يعني زهيرا والنابغة ، ثم قال : وَحَسْبُكَ بي اذا وضعتُ إحدى رجليَّ على الأخرى ثم عَوَيْتُ في إثْر القوافي كما يعوي الفصيل في إثر أمه ، قال : فمن أنت ؟ قال : أنا الحطيئة ، فرحب به سعيد وأمر له بألف دينار] .

10/ص 124 ـ 125 :

وكان الجَعْدِيُّ مختلِف الشعر مُغَلَّبًا ، فقال الفرزدق : مَثَلُهُ مثلُ صاحب الخُلْقان : تَرَى عنده ثَوْبَ عَصْبٍ وثوبَ خزٍّ والى جنْبه سَمَلُ كِسَاءٍ .

11/ص 128 :

وقال يونس : كان الجَعْدِيُّ أوصف الناس لفرس ، أنشدتُ قولَه رؤبةَ :

فَإِنْ صَدَقُوا قالوا : جَوَادٌ مُجَرَّبٌ ضَلِيعٌ ، وَمِنْ خَيْرِ الجِيَادِ ضَلِيعُهَا

قال رؤبة : ما كنتُ أرى المُرْهَفَ منها الاّ أسرع ـ ولم يكن رؤبة والْعَجَّاج صاحبيْ خيل ولكن كانا صاحبي ابل ونعْتها .

12/ص 131 :

قال أبو عمرو بن العلاء : سئل حسان : من أشعر الناس ؟ ، قال حيًّا أو رجلا ؟ ، قال : حيًّا ، قال : أشعر الناس حيًّا هذيل وأشعر الناس غير مُدَافَع أبو ذؤيب .

13/ص 135 :

قال : وكتب عمر الى عامله أَنْ سَلْ لبيدا والأغلب مَا أَحْدَثَا من الشعر في الاسلام ، فقال الأغلب :

أَرَجَــزًا سَــأَلْتَ أَمْ قَصِيــدَا فقـد سـألت هَيِّنًا مـوجـودَا

وقال لبيد : قد أبْدَلني اللّه بالشعر سورة البقرة وآل عِمْران ، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين .

14/ص 149 :

والمخبَّل شاعر فَحْلٌ وهو أبو يزيد ، وله يقول الفرزدق :

وَهَبَ القصائدَ لي النَّوابِغُ إذْ مَضَوْا وأبو يزيدَ وذو القروح وَجَرْوَلُ

15/ص 299 :

وأخبرني أبو قَيْس العَنبريّ عن عكرمة بن جرير أنَّ جَريرا قال : نَبْعةُ الشعر الفرزدق .

16/ص 321 ـ 322 :

أخبرني أبو يحي الضَّبّي قال : لما هرب الفرزدق من زياد حين استعدى عليه بَنُو نَهْشَلٍ في هجائه اياهم ، أتَى سعيدَ بن العاص وهو على المدينة أيامَ معاوية فاستجاره فأجاره وعنده الحطيئة وكعب بن جُعَيْل التغلبي فأنشده الفرزدق مدحَتَهُ إياه التي يقول فيها :

ترى الْغُرَّ الجحاجحَ من قريشٍ اذا ما الأمرُ في الحَدَثانِ عَالاَ
بَنِي عَمِّ النبي ورَهْطَ عَمْرٍو وعثمانَ الْأُلَى غلبوا فَعالاَ
قيامًا ينظرون الى سعيد كأنهمُ يَرَوْنَ به هِلاَلاَ

فقال الحطيئة : هذا والله هو الشّعرُ لاَ مَا تُعَلَّلُ به منذ اليوم أيها الأمير ، فقال له كعب بن جعيْل : فَضِّلْهُ على نفسكَ ولا تُفَضِّلْهُ على غيرك ، قال : بَلْ والله أفضّله على نفسي وعلى غيري ، يا غلام أَدْرَكْتَ مَنْ قَبْلَكَ وسبقْتَ مَنْ بعْدَكَ . [ثم قال له الحطيئة : يا غلام ، لئن بَقِيت لَتَبْرُزَنَّ علينا . يا غلام] ! أَنْجَدَتْ أُمُّكَ ؟ قال : لا ، بَلْ أَبِي . يُرِيدُ الحطيئة : إنْ كانتْ أمكَ أَنْجَدَتْ فاني أَصَبْتُهَا فَأَشْبَهْتَنِي . فألفاه لَقِنَ الجواب .

17/ص 374 :

نا أبو خليفة ،نا ابن سلام قال : سألتُ بشارا العقيليّ عن الثلاثة ، فقال : لم يكن الاخطلُ مثلَهما ولكنّ ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه ، فقلت : فجرير والفرزدق ؟ قال : كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق . وفضّل جريرا عليه .

18/ص 377 :

نا أبو خليفة ، نا ابن سلام ، قال : وأخبرني أبو البيداء [الرياحيّ] قال : قال الفرزدق : إني وايّاه لنغترفُ من بحر واحد ، وتضطرب دلاؤه عند طول النَّهْزِ .

19/ص 377 ـ 378 :

قال ابن سلام : وذاكرتُ مروانَ بن أبي حفصة جريرا والفرزدقَ ، فقال : أَحْكَمُ في الثلاثة بشعر فإنّ الكلامَ يرويه كلُّ قوم بأهوائهم فقال :

ذهب الفرزدق بالْفَخَارِ ، وإنما حلوُ الكـلام وَمُـرُّهُ لجـريـر
ولقد هجا فَأَمَضَّ أخطلُ تَغْلِبٍ وحَوَى اللُّهَى بمديحه المشهورِ
كلُّ الثلاثةِ قد أجاد ، فَمَدْحُهُ وهجاؤه قد سـار كلَّ مَسِـيرِ

20/ص 403 ـ 404 :

وقال الصَّلَتان العبديُّ :

أَلَا إنما تحظى كُلَيْبٌ بشعْرها وبالمجدِ تحظى نَهْشَلٌ والأقارِعُ
أنا الصَّلَتانيُّ الذي قد عرفتمُ متى مَا يُحَكَّمْ فهو بالحكم صَادِعُ
أتتني تميم حين هابتْ قُضَاتُهَا فهل أنتَ للفصل المبيِّن سَامِعُ ؟
قضاءَ امرىءٍ لَا يَرْهَبُ الشَّتْمَ منكمُ وليس له في الحُكْمِ منكم منافعُ
فما رجع الأعشى قضيَّةَ عامرٍ وما لتميمٍ في قَضَائِيَ راجعُ
فَإِنْ يَكُ بحرُ الحنظليّين واحدا فما تستوي حيتانُه والضفادع

فيا شاعرا لا شاعرَ اليومَ مثلَهُ جَرِيرٌ ، ولكن في كليب تواضعُ
ويَرْفَعُ من شعر الفرزدق أنّه ينوءُ بحيٍّ ، للخسيسة رَافِعُ
يُنَاشِدُنِي النصرَ الفرزدقُ بعدما أَلَحَّتْ عليه من جرير صَواقِعُ

فَلَمْ يَرْضَ واحد منهما قوله ، فقال الفرزدق : أمّا الشرف فقد عرفه ، وأما الشعر فما للْبَحْرَانيِّ والشعر ؟

وقال جرير :

أقول ، ولم أَمْلكْ سوابقَ عَبْرَةٍ متى كان حُكْمُ الله في كَرَبِ النّخلِ ؟

21/ص 408 و 675 :

نا أبو خليفة ، نا ابن سلام ، وحدثني أبو اليقْظان ، نا جُوَيْرية بن أسماء قال : قُلْتُ لنصيب مولى [عبد العزيز بن مروان] يا أبا مِحْجَن مَنْ أشعر الناس ؟ فقال: أخو بني تميم ، قلت : ثم من ؟ ، قال : أنا ، قال : قلت : ثم من ؟ ابن يَسَارِ النساءِ . فَلقِيتُ اسماعيل بن يسار [النسائي] فقلت : يا أبا فائد من أشعر الناس ؟ قال : أخو بني تميم ، قلت : ثم من ؟ قال : أنا ، قلت : ثم من ؟ قال نصيب ، قلت : انكما لتتقارضان الثناء ، قال : وما ذاك ؟ قال [قلت]: سألته فقال فيك مثلَ ما قلتَ فيه ، قال : انه والله شاعر كريم ولا أظنّه الاّ بدأ بابن يسارٍ قبل نصيب .

22/ص 423 ـ 424 ـ 524 :

نا أبو خليفة ، نا ابن سلام قال : حدثني أبو يحيي الضّبيّ ، قال : كان الذي هاج [الهجاءَ] بين جرير وعمر بن لجإ أنّ عمر كان يُنْشِد أرجوزة له يصف [فيها] إبله ، وجرير حاضر بالماء ، فقال التّيميّ :

قد وَرَدَتْ قبل إنَى ضَحَائِها تَفَرُّشَ الحيَّاتِ في خِرْشَائِهَا
جَرَّ العجوزِ الثِّنْيَ مِنْ رِدَائِهَا

فقال له جرير : أَخَفَفْتَ مَرَّهَا ، قال : فكيف أقول ؟ قال :

جَرَّ العروس الثِّنْيَ مِنْ رِدَائِهَا

قال التيميُّ [وَحَمِيَ] : فما قلتَ أنتَ أَسْوَأُ من قولي ، قال : فما هو ؟

قال : قولك :

وَأَوْثَقُ ، عند المُرْدَفَاتِ عَشِيَّةً لَحَاقًا ، اذا ما جَرَّدَ السيفَ لَامِعُ

فجعلتهن مُرْدفاتٍ غُدوةً ثم تداركتهنَّ عشية ، قال : فكيف أقول ؟

قال : تقول :

وأَوْثَقُ ، عند المُرْهَفاتِ عشيةً

(قال) فقال جرير : فوالله لَهَذَا البيتُ أحبُّ إِلَيَّ من بِكْرِي حَزْرَة ، ولكنكَ مُحْلِبٌ للفرزدق .

23/ص 434 _ 435 :

أخبرني [أبو الخطاب] الزُّراري عن حَجْناء بن جرير قال : قلت لأبي : يا أبتِ ، ما هَجَوْتَ قوما قطُّ الاّ فضحتَهم [أو قال : أَفْسَدْتَهُمْ] ، الاّ التَّيم ، قال : يا بُنَيَّ اني لم أَجِدْ بناءً فَأَهْدِمَهُ ولا حَسَبًا أَضَعُهُ [أو قال : أَصِمُهُ] .

24/ص 435 :

وقيل لجرير : ما صنعْتَ في التَّيم شيئا ؟ قال : انهم شعراءُ لِئَامٌ .

25/ص 438 :

قال أبو البيداء : مرّ راكب يتغنّى :

وعاوٍ عَوَى من غير شيْءٍ رَمَيْتُهُ بقافية أسبابُها تَقْطُرُ الدما

خَرُوجٍ بأفواه الرواة ، كأنها قَرَا هُنْدوانيٍّ اذا هُزَّ صمَّما

فسمِعه الراعي فأتْبعه رسولا ، فقال : لمن البيتان ؟ قال : جرير ، قال : والله لو اجتمعت الجن والانس على صاحب هذين البيتين ما أَغْنَوْا فيه شيئا [ثم قال لمن حضر : وَيْحَكُمْ أُلَامُ على أَنْ يَغْلِبَني مثلُ هذا] .

26/ص 451 :

حدثني عامر بن عبد الملك المِسْمَعِيّ قال : لما بلغ الاخطلَ تهاجِي جرير والفرزدق قال لابنه مالك : انحدرْ الى العراق حتى تسمع منهما ، وتَأْتِيَنِي بخبرهما ، قال : فلقيهما ثم استمع ، فأتى اباه فقال : جرير يَغْرِفُ من بحر ، والفرزدق يَنْحَتُ من صخر ، فقال الأخطل : فجريرٌ أشعَرُهما .

27/ص 456 :

قال ابن سلام : وسألتُ بشَّارًا المُرَعَّثَ : أي الثلاثة أشعر ؟ فقال : لم يكن الأخطل مثلهما ولكن ربيعة تعصّبت له وأفرطت فيه ، قلت : فهذان ؟ ، قال : كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق ولقد ماتت النوار فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير .

28/ص 474 :

قال أبو يحي الضَّبِّي : اجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بِشْر بن مروان ، وكان يُغْري بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكمْ بين الفرزدق وجرير ، قال : أَعْفِنِي أيها الأمير ، قال احكمْ [بينهما] فاستعفاه بجُهده ، فأبى إلاّ أن يقول ، فقال : هذا حكم مشؤوم ، ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر ، فلم يرض جرير بذلك ، وكان سببَ الهجاء بينهما .

29/ص 487 :

[أخبرني أبو خليفة عن محمد بن سلام قال : قال أبو الخطاب : حدثني نُوح بن جرير قال : قلت لأبي : أنت أشعر أم الأخطل ؟ فنهرني وقال : بئس

ما قلتَ ، وَمَا أنتَ وذاك لا أُمَّ لَكَ فقلت : وما أنا وغيرُه ، قال : لقد أُعِنْتُ عليه بكفر وَكِبَر سنٍّ ، وما رأيته الاّ خشيتُ أن يبتلعني] .

30/ص 541 :

قال : وقدم [كثّير] على عبد الملك بن مروان الشّامَ فأنشده ، والأخطل عنده ، فقال عبد الملك : كيف ترى يا أبا مالك ؟ قال : أرى شعرا حجازيا مقرورا لو ضغطه برد الشام لاضمحلّ .

31/ص 541 ـ 542 :

وأخبرني أَبَانُ بن عثمان البَجَلِيّ قال : دخل كثيّر على عبد الملك فأنشده مدْحَتَهُ وفيها :

على ابن أبي العاصي دِلَاصٌ حصينةٌ أجاد المُسَدِّي سَرْدَهَا وَأَذَالَهَا

فقال له عبد الملك : أفلا قلتَ كما قال الأعشى لقيس بن مَعْدِي كَرِب :

واذا تجيءُ كَتِيبَةٌ ملمومةٌ شهباءُ يَخْشى الذائدون نِهَالَهَا
كنتَ المُقَدَّمَ، غَيْرَ لَابِسِ جُنَّةٍ بالسيف تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبطالَها

فقال : يا أمير المؤمنين ، وَصَفَهُ بِالخُرْقِ وَوَصَفْتُكَ بَالحَزْمِ .

32/ص 550 :

أخبرني أبو خليفة عن محمد بن سلام قال : أخبرنا أبو البيداء الرياحي ، قال : قال جرير : قاتل الله ذا الرمة حيث يقول :

وَمُنْتَزِعٍ من بين نِسْعَيْهِ جِرَّةً نَشِيجَ الشَّجَا، جَاءَتْ الى ضِرْسِهِ نَزْرَا

[أَمَا والله لو قال : « مِنْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ » لما كان عليه من سبيل] .

33/ص 552 :

[أخبرني محمد بن يحي عن الفضل بن الحُبَاب عن محمد بن سلّام ، قال : مرّ الفرزدق بذي الرمة وهو ينشد :

أَمَنْزِلَتَيْ مَيٍّ ، سلامٌ عليكما هل الأزمنُ اللائي مَضَيْنَ رَوَاجِعُ

فقال ذو الرمة : « يرى الخَمْصَ تعذيبا » وانما الخِمْس للابل ، وانما هو خَمْصُ البطون . . .

37/ص 675 :

حدثني أبو الغرّاف : قال : مرّ جرير بنُصيْب وهو يُنْشِدُ ، فقال له : اذهبْ فأنت أشعر أهل جلدتِك ، وكان نصيب أسودَ ، فقال : وجلدتِك يا أبا حَزْرَة .

توفيق الزيدي
دار المعلمين العليا بسوسة

القصرُ في سورة البقرة

بقلم : الشاذلي الهيشري

I . المقدّمة

I 1 ـ يتحدّد مضمون رسالة القرآن بأحكام وقيم عليها يتأسّس بناء المجتمع الإسلامي ، وقد وردتْ مصوغة في أساليب لغوية متنوّعة جامعة بين مقصديْ الموعظة والتشريع . ويبدو أنّ أحَدَ تلك الأساليب ، وهو القصر ، قد اطّردَ استخدامُه في القرآن ، فتعلّق اهتمامُنا بدراسته ، واخترنا سورة البقرة حقْلاً لهذه الدراسة بناء على أنّها أطول سور القرآن (1) وأكثرها تنوّعا في المواضيع ، فيقتضي ذلك مبدئيًا تنوّعا في الأساليب والأشكال النحوية ، بالإضافة إلى إجماع كبار المسلمين على منزلة سورة البقرة ، فهي « سنام القرآن » و « فسطاطه » وذلك « لعظمها وبهائها وكثرة أحكامها ومواعظها » (2) .

I . 2 ـ وقد أردنا أن يكون البحث تطبيقيّا على نص عربيّ قديم ، تستمدّ منه الأشكال النحوية الأساسية المعبّرة عن القصر كما ترتضيه اللغة العربية

(1) « وعدد آياتها مائتان وخمس وثمانون آية عند أهل العدد بالمدينة ومكة والشام ، وستّ وثمانون عند أهل العدد بالكوفة ، وسبع وثمانون عند أهل العدد بالبصرة » .
التحرير والتنوير ج 1 ك 1 ص 202

(2) تفسير القرطبي ج 152/1
سنام كل شيء أعلاه ، والفسطاط هو ما يحيط بالمكان وسمّيت سورة البقرة كذلك لإحاطتها بأحكام كثيرة .

الكلاسيكية . ذلك أنّ الأساليب التعبيرية لا تُعرف من كتب النحو والبلاغة إلّا بصفة نظرية منقوصة ، فإذا ما أخذت من نصوص حيّة فُهِمَتْ على طبيعتها وعلى أساس ما يقرّه الاستعمال ويحتاجه التبليغ .

وقد قسّمنا البحث إلى فقراتٍ ابتدأناها بإثارة قضية المصطلح المتعدّد المستعمل في باب القصر ، وأتبعنا ذلك بتحديد مفهوم القصر وطرقه الأساسية والأحكام التي تربط بينها ، وختمنا بفقرة جامعة لأهمّ النتائج .

II المصطلح

II. 1 ـ تُزاحم لفظ القصر في كتب النحو والبلاغة العربية ألفاظٌ أخرى هي : الحصر والاختصاص والتخصيص . فما هي دلالة كل لفظ منها ؟ وهل بينها من فروق ؟

تفيدنا كتب اللغة أن القصر والحصر ، وهما لا يختلفان من الناحية الصوتية إلّا بمقدار ما بين القاف والحاء من اختلاف بسيط ، يتّفقان في معنى التضييق والحبس والحجز (3) . وقد استخدم القرآن اللفظين في صيغهما المختلفة للدلالة على نفس المعنى العام (4) . فهل يتّفقان كذلك من الناحية الاصطلاحية ؟

II. 2 ـ يقول التهانوي في القصر بعد ضبط معناه عند القراء وعند العروضيين : « وعند أهل المعاني ويُسمّى بالحصر والتخصيص أيضا جعل بعض أجزاء الكلام مخصوصا بالبعض بحيث لا يتجاوزه ولا يكون انتسابه إلّا

---

(3) جاء في لسان العرب ج 407/6 « يقال قَصْرُك أن تفعل كذا أي حسبُك وكفايتك وغايتك وكذلك قُصارك وقُصَاراكَ وهو من معنى القصر الحبس لأنك إذا بلغت الغاية حبستكَ وقد جاء فيه أيضا ج 268/5 : « حصره يحصره حصْرا ضيّق عليه وأحاط به » .

(4) من ذلك : « حورٌ مقصوراتٌ في الخيام » سورة الرحمان آية 72 و « وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ » سورة التوبة آية 5 .

إليه » (5) . ويؤكّد هذا الترادف في مادة الحصر : « وعند أهل العربية هو القصر وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عمّا عداه » (6) .

وإذا كان الجرجاني في دلائل الإعجاز يستعمل لفظ القصر فقط ويهمل لفظ الحصر تمامًا ، فنقرأ من عناوين بعض فصوله : « القصر في الخبر » ، و« القصر في التعريف » ، فإنّ السيوطي يفضّل لفظ الحصر في العنوان (7) وينصّ على أنّه رديف للقصر : « أمّا الحصر ويقال له القصر فهو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص » (8) ويراوح في كامل الفصل بين اللّفظين حتّى لكأنّهما من مادة واحدة « وينقسم الحصر باعتبار آخر الى ثلاثة أقسام:قصر إفراد وقصر قلب وقصر تعيين » (8) . ونقرأ في شروح التلخيص : « القصرُ هو الحصر » (9) . ولا تميّز الكتب الحديثة في النحو والبلاغة بين اللفظين . ولئن غلّب أكثرها لفظ القصر وأهمل لفظ الحصر (10) أو ذكره عرضًا في التنبيه (11) فإنّ بعضها قد نصّ على ترادف اللفظين . فقد ذكر عبّاس حسن : « وبيان الحصر يتّضح من التمثيل الآتي : إذا أردنا قصر شيء على شيء بحيث يكون أحدهما مختصًّا بالآخر منقطعا له أي متفرّغا له كل التفرّغ سميّت هذه العملية حصْرًا أو قصْرًا » (12) .

---

(5) كشاف اصطلاحات الفنون ، المجلد الثاني ص 1183

(6) كشاف اصطلاحات الفنون ، المجلد الأوّل ص 294 .

(7) وهو : « النوع الخامس والخمسون في الحصر والاختصاص » . الاتقان ص 82

(8) الإتقان ص 82 .

(9) الرّأي لبهاء الدين السبكي في عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح - شروح التلخيص ج 166/2 .

(10) البلاغة الواضحة مثلا ص 217 - 219 .

(11) « قد يستفاد الحصرُ من سياق الكلام أو ظروفه دون أن يبرز في صورة من صور القصر المذكورة » . النحو العربي ، نحو المعاني ص 104 (تنبيه) .

(12) النحو الوافي ج 451/1 (الهامش) .

II . 3 ـ ويَقْرِنُ البلاغيون بالحصر لفظَ الاختصاص ، فيستعمل الجرجاني اللفظينِ معًا عنوانا لبعض أبواب الدلائل (13) ويرادف بينهما في تحليلاته (14) . ويذكر التهانوي في ضبطه لمعنى الاختصاص « وعند بعض أهل البيان هو الحصر وبعضهم فرّق بينهما » (15) ويعيد هذه الملاحظة في مادة الحصر : « وكثير من الناس لا يفرّق بينه وبين الاختصاص وبعضهم فرّق بينهما » (15) . وقد عرض السيوطي في الإتقان هذا الفرق الذي ذهب إليه البعض منقولاً عن الشيخ تقي الدين السبكي (16) . قال : « والفرق بينهما أن الحصر نفي غير المذكور وإثبات المذكور والاختصاص قصد الخاص من جهة خصوصه » . وقد زاد على حدّ الاختصاص توضيحًا له فذكر أنّ للتركيب (ضَرَبتُ زيدًا) معنى عامًّا مشتركًا يفهم من مطلق الضرب ومعنى خاصًّا معيّنا يستفاد من إسناد الضرب إلى المتكلّم ووقوعه على زيد . وقد يقصد التركيب من جهة خصوصه فيقدّم المعمول (زيْدًا) وذلك أنه « هو الأهمّ عند المتكلّم وهو الذي قصدَ إفادتَهُ السامعَ من غير تعرّض ولا قصد لغيره بإثبات ولا نفي (17) .

وفحوى ما سبق أن الاختصاص يحصل بتقديم المعمول في المركّب الإسنادي في حين أنّ القصر يختلف عنه بمعنى إضافي وهو « نفي ما عدا

---

(13) « باب القصر والاختصاص ، فصل في إنّما ومواقعها » الدلائل ص 216 .

(14) « تقول مازيدٌ إلا قائم فيكون المعنى أنك اختصصت القيامَ من بين الأوصاف التي يتوهم كون زيد عليها بجعله صفة له . وتقول ما قائم الّازيد فيكون المعنى أنّك اختصصت زيدا بكونه موصوفا بالقيام . فقد قصرت في الأوّل الموصوف على الصفة وفي الثاني الصفة على الموصوف » . الدلائل ص 226 .

(15) كشاف اصطلحات الفنون ، المجلّد الأوّل ص 427 و 294 .

(16) في كتابه (الاقتناص في الفرق بين الحصر والاختصاص) وقد رغبت في هذا الكتاب فلم أعثر عليه في خزائن دار الكتب الوطنية . وقد ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ، المجلّد الأوّل ص 135 طبعة 1941 .

(17) الإتقان ص 87 .

المذكور » (18) إلاّ أنّ هذا الرأي يخالف ما ذهب إليه الجمهور ، فقد « كاد أهل البيان يُطْبِقُونَ على أنّ تقديم المعمول يفيد الحصر سواء كان مفعولاً أو ظرفًا أو مجرورًا » . (19) وللاختصاص معنى أعمّ ، متداول في كتب النحو وهو التعلّق ، « كالتعلّق بين لون البياض والجسم المقتضي لكون البياض نعتًا للجسم والجسم منعوتًا به بأن يقال جسم أبيض » . (20) وهو معنى بعيد عن مفهوم القصر والحصر ، فلا نلتزمه ، ونلتزم بما يدلّ عليه لفظ الاختصاص من « جعل الحكم خاصًّا غير عام سواء خصّ واحدًا أو أكثر » (21) .

II . 4 ـ يتّضح ممّا سبق أنّ أهل العربية لم يتواضعوا على مصطلح واحد يضبطون به تعيين عنصر من عناصر التركيب بحكم بحيث ينتفي عمّا عداه ، فقد استعملوا القصر والحصر على أنهما مترادفان ، واستعملوا الاختصاص ، وأحيانًا التخصيص (22) لأداء نفس المعنى وإذا كان لا مناص من التنبيه إلى وجود المشكل الاصطلاحي فإنّ مقتضيات البحث تُلزم بمصطلح واحد من تلك المصطلحات المتعدّدة ، وقد اخترنا أكثرها شيوعًا في كتب البلاغة القديمة والحديثة وهو « القصر » .

III تحديد مجال البحث

III . 1 ـ تقوم اللغة في أدائها رسالة الإبلاغ على تحديد المعاني وضبطها . وإنّ هذا التحديد لتقيّده أبسط المركّبات الإسنادية . ففي قولنا

---

(18) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(19) المصدر السابق ص 86 .

(20) كتاب التعريفات للشريف الجرجاني ص 13 .

(21) التحرير والتنوير ج 1 ك 2 ص 653 ، وقد وردت الجملة في تفسير قوله تعالى : « والله يختصّ برحمته من يشاء » .

(22) « التخصيص في اللغة تمييز بعض الجملة بحكم ولذا يقال خص فلان بكذا وكذا . . . وفي عرف النحاة تقليل الاشتراك الحاصل في النكرات وتقليل الاشتراك الحاصل في المعارف . . . وفي عرف أهل المعاني هو القصر » . كشاف اصطلحات الفنون ، المجلّد الأوّل ص 427 .

« شَرِبَ زَيْدٌ لَبَنًا » تحديد لنوع المشروب الذي شربه زيد ولم يشرب سِواه . وفي قولنا « قَدِمَ زَيْدٌ » تعيين للقادم وهو زيد ونفي أن يكون غيره . ويمثل هذا التقييد ظاهرة متفشّية في اللغة ، حتى لكأنّ اللغة في الأساس مجموعة من التحديدات والتعيينات فيها إثبات لِمَعَانٍ مقصودة ونفي لغيرها . ونظرا إلى اتساع هذا المفهوم اتساعًا يشمل كل أشكال التعبير اللغوي ، فقد ألغَيناه من مجال هذه الدراسة ، ولم نعتبره من وجوه القصر ، وأهملنا بالتالي نماذج منه ذهب إليها بعض المفسّرين (23) .

III . 2 ـ وقد يستفاد أيضًا من الوظائف النحوية ، ومن أمثلته أنّ المتمّمات هي تحديد للفعل وقيد له . ففي قولنا : « انطلق العَدّاءُ انطلاق السَّهْمِ » تحديد لانطلاق العدّاء بسرعة فائقة دونها السرعة العاديةُ . وقد توفّر هذا المعنى بوظيفة المفعول المطلق المبيّن للنوع . ويتوصّل إلى مثل هذا التحديد بالتمييز والنعت والحال وغيرها من الوظائف المتمّمة . وقد رأينا أن نسقط هذا الجانب النحوي من مجال هذا البحث ، ذلك أن القصر الذي ندرسه هو مفهوم بلاغي يتوصل إليه بعدد من الأشكال النحوية التي قوامها أدوات مضبوطة وتصرّف في عناصر التركيب .

III . 3 ـ ويفيد القصر في مصطلح البلاغيين (24) تخصيص بعض أجزاء الكلام بحيث لا يتعدّاه إلى غيره . وقد عرّفوه بصيغ مختلفة يمكن ردّها إلى صيغتين اثنتين . فقد نصّوا في الصيغة الأولى على حقيقة القصر كما يدل عليه ظاهر التركيب وعلى الطريقة التي تفيده ، ومن أمثلته :

« القصر هو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص » (25) .

---

(23) ذكر البيضاوي في تفسيره لقوله تعالى : « وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أن فيه « تخصيصا لمن عاند واستثناء لمن آمن » . تفسير البيضاوي ج 1/199 .

(24) « للقصر معنى خاص عند القراء وهو ضمّ المدّ . وله معنى خاص عند العروضيين وهو إسقاط الحرف الأخر الساكن وإسكان ما قبله إذا كان آخر الجزء سببا خفيفا وهو يختص بالأسباب » . الكشاف . مجلد 2 ص 1183 .

(25) الإتقان ص 82 و البلاغة الواضحة ص 217 .

« القصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص » (26) .

« القصر حصر عنصر من عناصر الجملة في عنصر آخر » (27) .

وعبّروا في الصيغة الثانية عن ثنائية الحكم الذي يتضمنه كل قصر وهو النفي والإثبات ، ومن أمثلة ذلك قولهم :

« هو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عمّا عداه » (28) .

« هو نفي غير المذكور وإثبات المذكور » (28) .

والواقع أنّ الصيغتين متكاملتان في تحديد مفهوم القصر، فهو تخصيص، أي إفراد لعنصر من عناصر المركّب الإسنادي بمعنى خاص ، وفي كل إفراد نفي وإثبات قد يترجم عنهما ظاهر التركيب كما هو الشأن بـ (مَا . . . إلاّ) ، وقد يفهمان على سبيل التأويل كما في (إنّما) . وسيلي توضيحه في الفقرات الموالية .

III . 4 ـ وللقصر طرق عديدة ، ذكر منها السيوطي أربع عشرة طريقة (29) . والواقع أنه لا يهمنا من هذه الطرق إلاّ ما استخدم في سورة البقرة ، واتّخذ شكلا نحويّا واضحا يمكن استخراجُه ودراسته . أمّا القصر المستفاد من السياق العام للنص بحيث لا قَرائن لفظية تَدْعَمُهُ أو تراكيب نحوية تفيده ، فقد تجنّبْناه ، إذْ سبيله ضرب من التأويل قد لا يخلو من تعسّف على النص . وقد وقفنا على نماذج منه في كتب التفسير (30) فلم نلتزمها ، إذ منهجُنا دراسةُ أشكال نحوية مضبوطة هي دعائم أساسية في نصّ معيّن استخدمت لإثراء ذلك النص في معانيه ومقاصده .

---

(26) علم المعاني . د . درويش الجندي ص 127 .
(27) النحو العربي . علم المعاني ص 100 .
(28) الاتقان ص 82 و ص 87 .
(29) المصدر السابق من ص 82 الى ص 86 .
(30) عرضنا نموذجا لذلك في الصفحة السابقة . هامش رقم 23 .

IV القصر بالنفي والاستثناء

IV . 1 ـ يتحقّق القصر حسب هذه الطريقة بما يسمى في النحو بالاستثناء المفرغ وهو تركيب نحوي يكون الكلام فيه منفيًّا ، والمستثنى منه محذوفا ، فيأتي بذلك الجزء المتقدّم على « إلاّ » ناقصًا متفرغًا لطلب ما بعدها ، دون أن يشتغل عنه بالعمل نحو :

يُخَادِعُونَ اللَّهَ والذِّينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ (9) . . . (31)

ويذكر النحاة والبلاغيون في توضيح إفادة القصر في الاستثناء المفرغ أنّ النفي في أوّل الجملة ينصبّ على المستثنى منه المقدّر : « وَمَا يُخَادِعُونَ أحَدًا » . فإذا ثبت شيء منه بواسطة إلاّ بعد النفي البات : « إلاّ أَنْفُسَهُمْ » أُخرِج بذلك البعض من الكل ، فيتحقّق حكم الإثبات للمذكور (المستثنى) وينفى عمّا سواه (المستثنى منه) . وذلك هو مفهوم القصر (32) .

IV . 2 ـ والذي أذهب إليه أنّ القصر في مظهره النحوي شكل متولّد عن جملتين إحداهما منفية والأخرى مثبتة :

وَمَا يُخَادِعُونَ أحَدًا

يُخَادِعُونَ أنْفُسَهُمْ

وتبدو الجملتان متضاربتين ، لا يستقيم معنويًّا تواليهما في الكلام ، لأنّ النفي البات في الأولى ينفي كل صيغة من صيغ الاثبات بعده ، كما أنّ الإثبات في الثانية يستوجب مبدئيا إبطال كل نفي سابق . إلاّ أنّ التصرّف في عناصر الجملتين بحذف المفعول به في الأولى (أحَدًا) والمسند في الثانية (يخادعون) وتعويضهما بأداة الاستثناء (إلاّ) يجعل الجمع بين النفي والإثبات المتضاربين حسبما سبق ممكنا بل مقصودًا . إن الجمع بين النفي والإثبات في تركيب واحد

(31) وضعنا بعد كل آية رقمها في سورة البقرة .

(32) الإتقان ص 82 .

وعلى حال من التآلف يجعل الكلام مخصوصًا بالمثبت دون المنفيّ ، وهذا الجمع بين حكمين متنافرين في الأصل هو الذي يجعل القصر تركيبا طريفًا مظهرُهُ جملة أحادية وأساسه جملتان مستقلّتان متضاربتان . فهو من هذه الناحية « في قوّة جملتين » (33) .

IV . 3 ـ ولعلّ طرافة هذا التركيب تفسّر اعتماده بتواتر ملحوظ في سورة البقرة ، فلقد ورد فيها ما يقارب ثلاثين مرّة . وسنعنى في هذه الفقرة بتوضيح العناصر التي يقوم عليها هذا التركيب كما وردت في السورة المذكورة ، وهدفنا منه فهم أسلوب من أساليب العربية لا على طريقة التنظير في كتب النحو والبلاغة وإنما بالتطبيق على نصّ مخصوص ، منزلته اللغوية لا تخفى على أحد .

IV . 3 . 1 ـ ونبدأ بأداة القصر (مَا . . . إلّا) فنلاحظ أن (إلّا) هي الأداة الوحيدة المستخدمة في إفادة الاستثناء ، ولعلّ ذلك يعود الى أنّ معنى الاستثناء فيها أقوى ممّا هو في أختيها (غير وسوى) ، نشعر بذلك في نحو قوله تعالى من سورة البقرة :

وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلَّا الفَاسِقِينَ (26)

فإنّ الاستثناء فيه قوي ، يضعف لو استعملنا « غير » أو « سِوَى » بدل « إلّا » (34) والقصر يحتاج الى استثناء قوي حتى يتلاءم مع النفيْ في أوّل الجملة ، فيحصل منهما التعيين المخصوص بالبعض دون العموم . على أنّ للاكتفاء بـ (إلّا) أداة للاستثناء في سورة البقرة تعليلاً آخر نحويًّا هذه المرّة ، وهو أن التركيب في بعض الآيات لا يمكن أن يستقيم بأداة غيرها ، فيتعذّر بدَل قوله تعالى :

فَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

(33) الإتقان ص 88 .

(34) وما يضل به غير الفاسقين أو سوى الفاسقين .

أن نضع « غير » و « سوى » مكان « إلاّ » (35) ، وقس على ذلك هذين التركيبيْن من السورة ذاتها :

وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التِّي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ (143) .

لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الذِّي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ (275) .

وتفسيره أنّ (غير وسوَى) من المبهمات المفتقِرة إلى الإضافة فلا تستقيم بعدهما وظيفة الحال كما في المثال الأوّل ، ولا وظيفة المفعول لأجله كما في المثال الثاني ولا وظيفة المفعول المطلق كما في المثال الثالث . وفي هذا دحض لرأي مَن يرى أنّ « غير تستعمل في القصر كما تستعمل إلاّ ، فكل ما صلحت فيه إلاّ تصلح فيه غير » (36) .

IV . 3 . 2 ـ لئن اعتُمدت (إلاّ) أداة وحيدة لإفادة الاستثناء إما لسبب معنوي أو لسبب نحوي فإن أداة النفي قد تنوعت بين (لاَ) في أربع عشرة مرة وَ (مَا) في عشر مرّات و (لن) في مرّتين و (هل) و (مَنْ) و (إنْ) والناقص الفعلي (ليس) في مرّة واحدة لكل منها .

فـ (لاَ) استخدمت في الغالب أداة للنفي ، ولم توظّف للنهي إلاّ في موقعين :

لاَ تَموتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (132)

لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا (235)

والنهي هو نفي من بعض وجوهه بإضافة الأمر إليه ، لذلك فإنّ تركيبه مع (إلاّ) لإفادة القصر قد اعتمد في سورة البقرة كما اعتمد النفي لكنه كان أقلّ منه تواترًا .

(35) فلا تموتنّ غير وأنتم مسلمون أو سوى وأنتم مسلمون .
(36) علم المعاني ص 135 .

وقد دخلت (لَا) النافية على الفعل ، وعلى الاسم النكرة أيضًا ، وفي دخولها على الاسم النكرة نفي للجنس أي نفي تحقّق الحقيقة ، فالنفي بها أقوى مما هو بغيرها :

لَا إِلَاهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ (163)

بمعنى انتفاء الألوهية إلّا عن اللّه عزّ وجلّ .

وليس في استعمال (مَا) و (لنْ) و (ليْس) أدواتٍ للنفي مظهر خاص في سورة البقرة يقتضي الوقوف عنده ، فهي مستعملة بصورة عادية فهَل الأمر كذلك بالنسبة إلى (هلْ) و (إنْ) و (منْ) ؟

(هَلْ) هي أداة للاستفهام في الأصل، لا تفيد النفي إلّا مصحوبة بـ (إلّا) ذلك أنّ اختصاصها بالدخول على الجملة المثبتة يمنع إفادتها النفي ما لم يتوفّر في التركيب شرط الإثبات.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ (210)

بمعنى :

مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ

وتتمحّضُ (إنْ) للنفي متى استعملت مع (إلّا) فتؤلفان باقترانهما أداة للقصر ، وهي تكاد لا تستعمل إلّا في القرآن وفي الكتابات القديمة (37) .

إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

بمعنى :

مَا هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ

R. Blachère . Grammaire de l'arabe classique page 216 (37)

أمّا (مَنْ) فإنّه لم يعرف في الأمهات استعمالها أداة للنفي ، وقد نصّت على هذا الاستعمال كتب التفسير في تأويل قوله تعالى :

وَ مَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (130)

بمعنى :

وَلاَ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إبراهيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ

IV . 3 . 3 ـ ويقوم القصر بالإضافة إلى الأداة على عنصرين آخرين هما المقصور والمقصور عليه (38) . ففي المقصور الواقع جملة فعلية ورد المسند غالبًا فعلا مضارعًا منفيًّا بإحدى الأدوات المذكورة آنفًا ، وهي الصيغة الصرفية المناسبة للتّعبير عن الحقائق العامة المطلقة التي لا ترتبط بزمان معيّن ، من ذلك التعبير عن مخادعة المنافقين لأنفسهم وهم يظنّون أنهم يخادعون الله والمؤمنين :

يُخَادِعُونَ اللَّه وَالذِّينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إلاَّ أَنْفُسَهُمْ (9)

ومنه أيضًا التعبير عن ملاءمة الأحكام الدينية للطاقة الانسانية :

لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلاَّ وُسْعَهَا (286)

لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا (233)

إن التعبير عن هذين المعنيين هو السائد في سورة البقرة وهو المؤلّف لقسميها الكبيرين : القسم العقائدي والقسم التشريعي وهو الذي تلائمه صيغة المضارع . ولذلك فقد تواترت هذه الصيغة في حين أنّ صيغة الماضي لم تستعمل إلاّ مرتين . أولاهما في الحديث عن حدث ماض هو أمر الله الرسول (صلعم) أن يعود إلى استقبال الكعبة كما كان قبل الهجرة ، وكان قد أُمِرَ (صلعم) قبل ذلك باستقبال بيت المقدس تألفا لليهود :

وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التِّي كُنْتَ عَلَيْهَا إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ (143) .

(38) الشيء المخصّص يسمى مقصورا والشيء المختص به يسمى مقصورا عليه ، والمقصور والمقصور عليه يسمّيان طرفي القصر » ، علم المعاني ص 127 .

أمّا صيغة الماضي الثانية فقد وردت في سياق تاريخي عام يرسم وحدة البشرية في الإيمان أوّلاً ثم اختلافها فيه فيها بعد فاستوجبت حكمته تعالى إرسال الرسل :

وَأَنْزَلَ مَعَهُمْ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ (213) .

IV . 3 . 4 ـ وقد ورد المقصور عليه لفظا واحدًا أو جملة فعلية أو اسمية وأدّى وظائف مختلفة منها الخبر والفاعل والمفعول به والمفعول به الثاني والحال والمفعول لأجله والمفعول المطلق والبدل، وهي الوظائف الكبرى في النحو العربي . وقد ذكر النحاة أنّ الجملة المستثناة لا تقع خبرًا أو صفة أو حالا إلّا أن تكون اسمية ، ولا تكون فعلية لأن (إلّا) موضوعة لإخراج بعض من كل ، فإذا تقدّم الاسم فلا يكون بعدها إلّا الاسم لأنهما من جنس واحد فيصحّ أن يكون بعضًا له ؛ فلا يقال مثلا :

مَازَيْدٌ إِلَّا قَامَ وإنما يقال : إِلَّا قَائِمٌ . إلّا أننا نجد في سورة البقرة ما يخالف مذهب النحاة وهو قوله تعالى :

وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (78)

فالمستثنى بإلّا (المقصور عليه) في هذه الجملة واقع جملة فعلية ، وقد يكون تفسيره أنّ هذه الجملة مؤوّلة بالاسم : وَإِنْ هُمْ إِلَّا ظَانُّون وذلك لأن (إلّا) على رأي النحاة مختصّة بالأسماء .

IV 4 الخلاصة

يحقّق الوضع اللغوي للنفي والاستثناء مفهوم القصر من حيث هو « نفي غير المذكور وإثبات المذكور » (39) ، وهذا التطابق بين الشكل

(39) كشاف ، المجلد الثاني ص 1186 .

النحوي والبنية المعنوية يجعل من هذا التركيب أساسًا لهذا الباب ، نَاهيك أنّ استعماله مطّرد في سورة البقرة وأن أهل العربية يقدّمونه على بقية الطرق المفيدة للقصر .

ونعتبر هذا التركيب القصري وليد إسنادين متضادين،أحدهما منفيّ نفيا باتّا والآخر مثبت ، فقوله تعالى :

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الفَاسِقُونَ (99) .

ناشىء من جملتين مفترضتين :

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ مَا يَكْفُرُ بِهَا أَحَدٌ

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ يَكْفُرُ بِهَا الفَاسِقُونَ

وفي الجمع بينهما بإدخال (إلاّ) وحذف المستثنى منه (أَحَدٌ) واعتباره في حكم التقدير إفادة للقصر لأن الفعل (يكفر) لا ينشغل في هذه الحال إلاّ بالمستثنى فيطلبه ويقتصر عليه . ولو أظهرنا المستثنى منه على هذا النحو :

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا أَحَدٌ إِلاَّ الفَاسِقُونَ (أو الفَاسِقِينَ) (40) .

لانشغل الفعل بالمستثنى منه المذكور ولانصرف الذهن عن المستثنى وهو المخصوص بالكفر ، وفي ذلك إضعاف لمعنى القصر الذي هو ضرب من التأكيد على عنصر مذكور في الكلام بل هو في عرف بعضهم « بمنزلة تأكيدين » (41) تأكيد بالنفي وتأكيد بالإثبات . والإضعاف والتأكيد لا يجتمعان ، لذلك فإنّ معنى القصر يضيع بظهور المستثنى منه ، ويثبت بحذفه . وعلى هذا فإننا نضيف الى طرافه هذا التركيب القصري لجمعه حكمين متناقضين هما النفي والاثبات حاجته الى دقّة الاستعمال .

---

(40) الفاسقون بالرفع باعتبارها بدلاً من أحد ، والفاسقين بالنصب باعتبارها مستثنى .

(41) التحرير والتنوير ج 1 ك 2 ص 694 .

٧ القصر بـ (إنّما)

٧ . 1 ـ أجمع الجمهور على اعتبار (إنّما) أداة للقصر . وقد ضبط النحاة معناها ، فقال ابن يعيش : « إنّ إنّما زادت إنّ تأكيدا على تأكيدها فصار فيها معنى الحصر وهو إثبات الحكم للشيء المذكور دون غيره . فإنّ معنى إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ أي مَا اللَّهُ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ نحو لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وكذلك إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ أي ما أَنْتَ إِلاَّ مُنْذِرٌ » (42) . وقد قدّموا دليلا على صحّة تمحّضها للقصر بصحّة انفصال الضمير معها نحو قول الفرزدق [طويل] :

أَنَا الذَّائِدُ الحَامِي الذِّمَارَ وَإِنَّمَا
يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

فالمانع من اتصال الضمير (أَنَا) بالفعل (يُدَافِعُ) في هذا البيت إنما هو تقدير النحاة لمعنى (مَا . . . إلاّ) المتوفّر في (إنّما) فيكون مدلول الجملة : « مَا يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِهِمْ إِلاَّ أَنَا ومِثْلِي » (43) . وبهذا الاعتبار فهِمَ المفسّرون مثل هذه الآية :

فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137)

معناها : فَمَا هُمْ إلاَّ في شِقَاقٍ (44). ويمكن أن نقيس على ذلك بقية الآيات التي يتوفّر فيها قصر بـ (إنّما) وهو يؤكد ما ذهبنا إليه من اعتبار القصر بالنفي والاستثناء هو الاصل وأنّ القصر بـ (إنّما) محمول عليه . والمتأمّل في بنية هذه الأداة يلاحظ أنها مزيج من (إنَّ) التأكيدية التي تفيد الإثبات و (مَا) النافية ، وباجتماع الإثبات والنفي يحصل القصر .

إلاّ أنّ الجرجاني قد ضبط فويرقًا معنويًا بين القصر بـ (مَا . . . إلاّ) والقصر بـ (إنّما) . يقول : « يبيّن لك أنهما لا يكونان سواء أنه ليس كل كلام

(42) شرح المفصل ج 55/8 ـ 56 .
(43) علم المعاني ص 137 .
(44) تفسير البيضاوي ج 193/1 .

يصلح فيه (ما وإلّا) يصلح فيه (إنّما) . . . لأنهما لو كانا سواء لكان ينبغي أن يكون في (إنّما) من النفي مثل ما يكون في (مَا وإلّا) (45) وليس الأمر كذلك في الواقع لأنهم : « إذا أدخلوا (إنما) جعلوا [الخبر] في حكم الظاهر المعلوم الذي لا ينكر ولا يدفع ولا يخفى . . . [في حين] أن الخبر بالنفي والإثبات نحو مَا هَذَا إلاَّ كَذَا وإنْ هُوَ إلاَّ كَذَا فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشكّ فيه » . (46)

V . 2 ـ لم يتعدّ استخدام (إنّما) أداة للقصر تسع آيات من سورة البقرة وقد دخلت على الجملة الاسمية في ستّ آيات وعلى الجملة الفعلية في ثلاث وقد وقعت في ثلاثة مواضع متميّزة قد تحدّد بعض خصائصها :

V . 2 . 1 وقعت مقول القول أربع مرّات ، منها قوله تعالى :

وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا : إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) .

فهذه الجملُ المصدرة بـ (إنَّما) هي جمل مقولة منسوبة إلى المنافقين والكفّار ، تعبّر عن آرائهم ومواقفهم بكثير من التأكيد والتحقيق حتّى لكأنّ مزاعمهم هي عين الحقيقة إمعانًا في التضليل وسترا للخفايا . وهي جمل اسمية يراد بها الإقناع بما يزعمونه حقيقة ثابتة :

وَإذَا خَلَوْا إلَى شَيَاطِينِهِمْ قالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (14)

وهكذا فقد اجتمع الموقع و (إنّما) والاسمية في هذه الجمل فأضفت عليها طَابعا تأكيديًّا واضحًا .

V . 2 . 2 ـ ووقعت جملة القصر بـ (إنّمَا) جوابا للشرط لتأكيده في مثل قوله تعالى :

وَ إذَا قَضَى أَمْرًا فإنّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (117)

---

(45) دلائل الإعجاز ص 215 ـ 216 .

(46) دلائل الإعجاز ص 217 .

فجواب الشرط مقوّى بـ (إنّما) لتأكيد قدرته تعالى على ما يريد ، وقد يقوى بها أيضا لتحقيق نتيجة عن عمل تضمّنته جملة الشرط ومثاله :

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ (137)

وأيضًا :

فَمَنْ بدّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ (181)

فجملة جواب الشرط الأولى تحقّق ما يكون عليه النصارى واليهود من خلاف مع المسلمين إذا ما أعرضُوا عن إيمانهم وتؤكد جملة جواب الشرط الثانية الذنب الذي يلحق من يُبدل الوصية .

V . 2 . 3 ـ ووقعت جملة القصر بـ (إنّما) استئنافية بيانية أي منقطعة عمّا قبلها من جهة اللفظ موضّحة له من جهة المعنى ، ومثاله قوله تعالى :

إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (169)

فهذه الجملة استئناف بياني لمعنى العداوة التي يتضمنها قوله تعالى :

وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (168)

ويلاحظ الأمر ذاته في الآية التالية :

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ والدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ (173)

« ذلك أن الإذن بأكل الطيبات [في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ] يثير سؤال من يسأل ما هي الطيبات ، فجاء هذا الاستئناف مبيّنًا المحرّمات وهي أضداد الطيبات بطريق المضادة المستفادة من صيغة الحصر ، وإنما سلك طريق المضادّة للاختصار فإنّ المحرمات قليلة ، ولأنّ في الحصر تعريضا بالمشركين الذين حرموا على أنفسهم كثيرا من الطيبات وأحلوا الميتة والدم » (47) .

(47) التحرير والتنوير الجزء الثاني الكتاب الأوّل ص 115 .

إنّ صيغة القصر بـ (إنّما) قد تأهّلت للمواقع المتقدّمة بفضل قوّة التأكيد فيها ذلك أن : « إنّ للتأكيد وما كذلك فاجتمع تأكيدان فأفادا الحصر . قاله السكاكي » (48) .

V . 3 . الخلاصة

رأينا أن القصر يقوم على النفي والإثبات ، وأنّ كلّ طريقة من طرقة لا بدّ أن يكون فيها جانب من هذين الحكمين ، ولمّا كان ظهورهما في التركيب القصري بالنفي والاستثناء واضحًا بالوضع اللغوي أي بالمنطوق ، فقد اعتبر هذا التركيب أصل القصر وحملت بقية التراكيب عليه .

على أن التراكيب النحوية المفيدة للقصر وإن اشتركت في الخاصية العامة للقصر وفي مفهومه ، فإنها تختلف عن بعضها في فوارق معنوية بناء على أنّ كلّ اختلاف في الدّال يتبعه بالضرورة اختلاف في المدلول ولو بصفة جزئية . وهو أمر قد شعر به الجرجاني في الدلائل فأفرد له صفحات مطوّله في بيان الفرق بين القصر بـ (إنّما) والقصر بـ (مَا . . . إلاّ) ، وقد نقلنا منها أقوالاً في فقرة سابقة .

VI القصر بالتعريف

VI . 1 ـ يخص هذا القسم من البحث الجملة الاسمية المعرفة الركنين : المبتدأ والخبر نحو : وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (137) وقد دلّ الاستعمال في كثير من الحالات على أن ضمير الفصل قد يتوسط ركني الإسناد نحو : وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (5) ، وهو لا يمكن أن يوجد إلاّ بين مبتدإ وخبر معرّفين وقد عدّ أهل البيان التعريف من طرق القصر ، كما عدّوا ضمير الفصل من طرقه أيضا . إلاّ أن التعريف يفيد القصر بذاته في حين أن ضمير الفصل يستوجب وجوده توفّر

---

(48) الإتقان ص 83 .

المبتدأ والخبر المعرّفين ، لذلك فقد جعلنا هذا القسم فقرتين : القصر بالتعريف والقصر بالتعريف وضمير الفصل .

VI . 2 القصر بالتعريف

VI . 2 . 1 ـ يتأسّس التعريف المفيد للقصر على (الـ) الجنسية والاسم الموصول ، فَـ (الـ) الجنسية « هي التي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يفيد الإحاطة والشمول لا بجميع الأفراد ولكن بصفة واحدة من الصفات الشائعة بين تلك الأفراد » (49) . وقد استخدمت في سورة البقرة لقصر صفاته تعالى عليه :

فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (160)

وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ (255)

وإذا كانت (الـ) الجنسية تفيد غالبا الإحاطة والاستغراق « على سبيل المجاز والمبالغة لا على سبيل الحقيقة الواقعة » (50) فإنها في قصر الصفات على الله تفيد الكمال الحقيقي و « الكمال هو أن تكون الصفة على ما ينبغي أن تكون عليه وأن لا يخالطها ما يقدح فيها » (51) نحو قوله تعالى :

اللَّهُ لَا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ الْقَيُّومُ (255)

على معنى أنه الدائم البقاء بصفة لا تقع لغيره وأنه القائم الوحيد بتدبير خلقه ، فلا يُعتدّ بقيام بعض الناس على شؤون البعض في الأسرة أو الدولة أو غيرهما .

VI . 2 . 2 ـ وقد استخدم الموصول في معنى المعرف بلام الجنس ، فأفاد التركيب قصر المسند على المسند إليه إمّا قصرًا حقيقيًا نحو قوله تعالى :

هُوَ الذي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا (29)

---

(49) شرح المفصل ج 386/1 .

(50) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(51) دلائل الإعجاز ص 131 .

ففي هذه الآية « قصر حقيقي سيق للمخاطبين من المشركين الذين لا شكّ عندهم أنّ الله خالق ما في الأرض ولكنّهم نُزِّلوا منزلة الجاهل بذلك فسيق لهم الخبر المحصور لأنهم في كفرهم وانصرافهم عن شكره والنظر في دعوته وعبادته كحال من يجهل أن الله خالق جميع الموجودات (52) .

أو قصرًا مجازيًا نحو :

أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ (16)

فـ « الموصول في قوله الذين اشتروا بمعنى المعرّف بلام الجنس فيفيد التركيب قصر المسند على المسند إليه وهو قصر ادعائي باعتبار أنهم بلغوا الغاية في اشتراء الضلالة والحرص عليها إذ جمعوا الكفر والسفه والخداع والفساد والاستهزاء بالمهتدين » (53) .

VI . 3 القصر بالتعريف وضمير الفصل

VI . 3 . 1 - عرفنا في الفقرة السابقة (الـ) الجنسية التي تفيد القصر . أمّا ضمير الفصل (54) الذي يشاركها هذه الوظيفة في بعض التراكيب فهو ضمير دالٌّ على التكلّم أو الخطاب أو الغيبة يؤتى به في المركّب الاسمي فيُعيِّنُ الاسم بعده خبرًا لما قبله لا صفة له ، بناء على أنّ الصفة والموصوف لا يتوسط بينهما فاصل إلاّ في النادر (54) . ويقع أيضا بين اسم الإشارة وخبره حتى لا يختلط المركب الإسنادي بالمركب البدلي .

وقد اشترط النحاة أن يقع بين معرفتين « أما اشتراط أن يكون ما بعده معرفة فلأن لفظ ضمير الفصل لفظ المعرفة ، وفيه تأكيد فوجب أن يكون المدلول السابق الذي يؤكّده هذا الضمير معرفة ، كما أن التأكيد كذلك ،

(52) التحرير والتنوير ج 1 ك 1 ص 379 .
(53) المصدر السابق ج 1 ك 1 ص 299 .
(54) ضمير الفصل مصطلح بصري يسميه الكوفيون عمادًا ، ويسميه نحاة آخرون دعامة . ونلتزم مصطلح البصريين لشيوعه .

ووجب أن يكون ما بعده معرفة أيضًا ، لأنه لا يقع بعده غالبًا إلاّ ما يصحّ وقوعه نعتًا للاسم السابق ، ونعت المعرفة لا يكون إلاّ معرفة ، ولكلّ ما سبق وجب أن يكون بين معرفتين » (55) .

VI . 3 . 2 ـ وقد اجتمع القصر بـ (الـ) الجنسية وضمير الفصل في كثير من آيات سورة البقرة ، وكان ضمير الفصل واقعًا بين ما لا يحتمل شكًّا ولا لَبْسًا ، فلا يقوم عندئذ بوظيفة نحوية وإنّما يتمحّض لغرض بلاغي بحت هو تقوية الاسم السابق وتأكيد معناه بالقصر :

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (229) .

أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177)

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157)

ففي الآيات السّابقة توسّط ضمير الغيبة الجمع المذكر (هم) بين عنصر أوّل هو المبتدأ وعنصر ثان لا شكّ في أنّه خبر ، فهو لذلك لا يؤدّي وظيفة نحوية هي الفصل وإنما يؤدي وظيفة بلاغية هي القصر .

وفي اجتماع (الـ) الجنسية بضمير الفصل في المركب الاسمي التقاء لصيغتيْ قصر ، وقد نصّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أنّ اعتبار إحدى الصيغتين للقصر يستوجب اعتبار الأخرى للتأكيد . قال في تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة :

قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى (120)

« الضمير ضمير فصل والتعريف في الهدى تعريف الجنس الدّال على الاستغراق ، ففيه طريقان من طرق القصر هما ضمير الفصل وتعريف

(55) النحو الوافي ج 223/1 .

الجزئين ، وفي الجمع بينهما إفادة تحقيق معنى القصروتأكيده للعناية به ، فأيّهما اعتبرته طريق قصر كان الآخر تأكيدا للقصر وللخبر أيضًا » (56) .

وفي رأينا أن الصيغتين موضوعتان للقصر فلا تختص به إحداهما دون الأخرى ، ومن ناحية ثانية فإن القصر هو في الأساس أسلوب من أساليب التوكيد بل هو تأكيد على تأكيد كما في مفتاح العلوم سواء أكان يستفاد بضمير الفصل أم بتعريف ركنيْ الإسناد . ففي قوله تعالى :

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ (127)

قصران لإفادة كمال السمع والعلم له تعالى فيتنزل الوصفان عند غيره منزلة العدم .

VI 4 الخلاصــة

تَفِي صيغتا القصر بـ (الـ) الجنسية وضمير الفصل كبقية الصيغ التي استعرضناها بمفهوم القصر من حيث هو متضمّن لحكمين هما الإثبات والنفي . فالإثبات بالوضع اللغوي وأما النفي فيفهم ضمنيًا ، ففي الآية :

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (5)

تعريض بغير المهتدين فيصح وصفهم بالطلاح وتجريدهم من صفة (الصلاح) التي تتحقّق في صورتها الكاملة في غيرهم . وتزيد الآية التالية الأمر توضيحا : أُولَئِكَ الذِّينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ (177) .

فقد حُصِرَتِ التقوى بمفهومها الصحيح في المسلمين الصادقين ، بحيث أنه لم يبق منها شيء يمكن أن يتحقّق في غيرهم ، فاستحقّوا صفة (المتّقون) فلا متّقين غيرهم وفي ذلك تعريض بمن لم يتخذ الإسلام دينا .

وهكذا فإنّ مفهوم القصر واحد في الطرق المختلفة ، وإنْ تفاوتت هذه الطرق في تغليب النفي على الإثبات (مَا . . . إلّا) أو الإثبات على النفي (إنّما) ، (الـ الجنسية) ، (ضمير الفصل) .

(56) التحرير والتنوير ج 1 ك 2 ص 694 .

VII القصر بتقديم عنصر من الإسناد

VII . 1 ـ جمعنا في هذا القسم ثلاث مسائل هي : تقديم المسند إليه على المسند الفعلي ، وتقديم المسند على المسند إليه ، وتقديم المعمول على عامله ، وهي مسائل عدّها أهل البيان من باب القصر (57) ويعتبر التقديم من أهم الظواهر النحوية التي تطرأ على التركيب ، وقد وضّح الجرجاني أهميته : « هذا باب كثير الفوائد ، جمّ المحاسن ، واسع التصرّف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفترّ لك عن بديعة ، ويفضي بك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدّم فيه شيء وحوّل اللفظ عن مكانه إلى مكان » (58) .

ويشدّد القول على من يرى الغاية من التقديم مجرّد العناية والاهتمام بالعنصر المقدّم : « وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية ولأنّ ذكره أهمّ ، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ولم كان أهمّ ؟ ولتخيّلهم ذلك صغُر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم وهوّنوا الخطب فيه ، حتّى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبُّعه والنظر فيه ضربًا من التكلّف ولم ترَ ظنّا أزرى على صاحبه من هذا وشبهه » (59) .

والواقع أنّ التقديم ظاهرة أساسية في اللغة ، تُمكِّنُ المتكلّم من التصرّف في عناصرها بتحويلها عن ترتيبها الأصلي لمقتضيات نحوية يفرضها التركيب أو لأغراض بلاغية يطلبها الكاتب عن قصدٍ . وقد يصحّ أكثر من سبب لتبرير تقديم عنصر من حقّه أن يتأخر ، ممّا يجعل من هذه العملية ظاهرة معقّدة التفسير إلاّ أننا سنكتفي فيها بما يكن تفسيره بالقصر التزاما بحدود الموضوع .

---

(57) الإتقان ص 85 ـ 86 .
(58) دلائل الإعجاز ص 72 ـ 73 .
(59) دلائل الإعجاز ص 74 .

VII . 2 تقديم المسند

يفسّر تقديم المسند بأسباب منها السبب النحوي :

وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ (7)

فقد قدم الخبر (على أبصارهم) لِتصحيح الابتداء بالمسند إليه النكرة المحضة ، وقدم أيضا في المثال التالي حتى لا يختلط بالصلة وهو سبب نحوي أيضًا :

وَمِنَ النَاسِ مَنْ يَقُولُ آمنَّا باللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بمؤمِنِينَ (8)

ومن أسباب التقديم مراعاة الوقف وانتهاء الآية بحرف خيشومي (الميم) انسجامًا مع سائر الآيات : وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (7) .

ويدخل ضمن السبب البلاغي القصر ، وقد تجلّى في بعض الآيات القليلة ، وقد دلّ عليه السياق العام واعتبار أنّ بعض الأعمال والأحداث هي من اختصاص الله ينفرد بها عن الخلق أجمعين :

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ (285)

فالرجوع والبعث إنما هو لله لا لغيره ، وبحصول هذا المعنى إثباتا بالمنطوق ونفيًا بالمفهوم يتحقّق القصر .

VII . 3 تقديم المسند إليه

ضبط الجرجاني أحوالاً يتقدّم فيها المسند إليه فيتحقّق تخصيصه بالخبر (60) وقد وافقه السكاكي في ذلك وزاد عليها (61) ويهمنا من تلك الأحوال

(60) لخصّها السيوطي في الفقرة الموالية : « تقديم المسند إليه على ما قاله الشيخ عبد القاهر : قد يقدم المسند إليه ليفيد تخصيصه بالخبر الفعلي والحاصل على رأيه أنّ له أحوالا أحدها ان يكون المسند اليه معرفة والمسند مثبتا فيأتي للتخصيص نحو أنا قمت وأنا سعيت في حاجتك . . . ثانيها ان يكون المسند منفيًا نحو أنت لا تكذب فإنه أبلغ في نفي الكذب من لا تكذب ومن لا تكذب أنت وقد يفيد التخصيص . . . ثالثها أن يكون المسند اليه نكرة مثبتًا نحو رجل جاءني فيفيد التخصيص إمّا بالجنس أي لا امرأة أو بالوحدة أي لا رجلان ، رابعها أن يلي المسند اليه حرف النفي فيفيده نحو ما أنت قلت هذا » الاتقان ص 85 .

(61) علم المعاني ص 143 .

ما استعمل في سورة البقرة . ومنه ورود المسند إليه معرفة والمسند فعلا مثبتًا : وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ (245) .

ومعناه أن الله ، لا غيره ، يمسك الرزق عمّن يريد ابتلاء ويوسعه لمن يرضى امتحانًا وذلك على اعتبار ان الجملة فعلية تحتوي على فعل يفيد الحركة والحدث وإنْ ظهرت اسمية عادية ، وقد ورد المسند فيها فعلاً متأخرًا ، وتقدم عليه المسند إليه لتخصيصه بقبض الرزق وبسطه (62) ويتأكد القصر بهذه الطريقة في الآية الآتية التي تعرض جدل سيدنا إبراهيم لنمرود :

أَلَمْ تَرَ الذِّي حَاجَّ إبراهيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ أَتَاهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذِّي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إبراهيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الذِّي كَفَرَ واللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258) .

ففي هذه الآية ثلاث جمل تفيد القصر ، أولاها (رَبِّيَ الذِّي يُحْيِي وَيُمِيتُ) أفادته بتعريف رُكنَيْ الإسناد ، وقد عرضنا ذلك في فقرة سابقة . وأما الثانية (أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) فقد قدّم فيها المسند إليه وهو ضمير المتكلم المفرد لقصر الإحياء والإماتة عليه قصرًا ادّعائيًا وذلك ردًّا على قول سيدنا إبراهيم إنّ ذَيْنك الحدَثَيْن مقصوران على الخالق قصْرًا حقيقيًا . أما الجملة الثالثة (فإنّ اللَّه يأتي بالشَّمسِ من المشرقِ) فهي من جنس الثانية من حيث التركيب وتفيد ما أفادته من قصر القدرة عليه تعالى ونفي أن يكون لغيره منها شيء ولو بمقدار يسير .

---

(62) « فإذا ما اعتبرنا أن تقديم عنصر من عناصر الجملة أو تأخيره من رتبته الطبيعية كثيرا ما يكون لغاية بلاغية وجب أن نستخلص ان الجملة الفعلية كما يعرفها جل النحاة موسومة بضرب من القصور من حيث طاقتها التعبيرية إذ لا يمكن في نطاقها ابراز الفاعل بتقديمه ولم يخف ذلك عن علماء البلاغة فهم وإن لم يرفضوا ما ذهب اليه النحاة من اعتبارات أشاروا الى قيمة تقديم المسند اليه في الجملة المتضمنة لفعل معتبرين ان علاقة هذين العنصرين لا تختلف في مستوى المعاني عن علاقة الفاعل بالفعل » المهيري ، الحوليات عدد 3 س 1966 ص 41 ـ 42 .

ففي هذه الطريقة كما في غيرها من طرق القصر يجتمع حكمان متقابلان أحدهما مقصود وهو الإثبات والآخر متوسّل به إلى تقوية الإثبات ودعمه وهو النفي . وليس بين تلك الطرق من اختلاف غير تعبيرها عن النفي إما بصيغة منطوقة أو بصيغة ضمنية .

VII . 4 تقديم المعمول على عامله

يتقدم المعمول على عامله سواء كان مفعولا أو ظرفا أو مجرورا وقد ضبط النحاة شروطًا لتقدمه وجوبًا أو جوازًا ، من ذلك أن المفعول إذا وقع ضميرًا متّصلا تقدم على فاعله الاسم الظاهر ، ومثاله من سورة البقرة :

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا (36) .

ولايكفي السبب النحوي لتفسير تقديم المعمول ، فوجب أن تلتمس له موجبات أخرى نهتمّ بما يعرض منها في سورة البقرة . وقد نصّ الجرجاني على أهمية البحث في هذه الموجبات : « فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلاً على الفعل في كثير من الكلام أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب أن تكون تلك قضية في كل شيء وكل حال » (63) .

إن من دواعي التقديم في سورة البقرة وربّما في النصّ القرآني عامّة الحرص في بعض الآيات على ضمان الوقف على حروف بعينها ليكون الانسجام الصوتي متوفرا في جميع الآيات :

وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شهِيدًا (143) .

فقد تقدم الجار والمجرور في هذا المثال لما توفّر في متعلّقه (شهيدًا) قبل حرفه الأخير من مدّ يناسب الوقف (64) وقد يذكر لتعليل ذلك سبب آخر

(63) دلائل الإعجاز ص 75 .

(64) التحرير والتنوير الجزء الثاني الكتاب الأوّل ص 21 ـ 22 .

وهو : « الاهتمامُ بتشريف أمر هذه الأمّة على أنّها تشهد على الأمم والرسل وهي لا يشهد عليها إلّا رسولها » (65) .

وقد يكون من أسباب التقديم التعبير عن القصر ، وقد تحقّق ذلك في آيات من سورة البقرة :

وَإِيَّايَ فَارْهَبونِ (40) .

تقدّم المفعول (إيّاي) على عامله (ارْهَبُوا) لدعوة المؤمن ألّا يخاف أحداً إلّا اللّه ، وقد « اختير من طرق القصر طريق التقديم دون (ما . . . إلّا) ليكون الحاصل بالمنطوق وهو الأمر برهبة اللّه تعالى وليكون النّهي عن رهبة غيره حاصلاً بالمفهوم » (66) وقد تقوى القصر في هذا المثال باشتغال الفعل بالمفعول المكرر واتصاله « بالفاء الجزائية الدّالة على تضمّن الكلام معنى الشرط كأنه قيل إنْ كنتم راهبين شيْئًا فارْهَبُونِ » (67) .

VII . 5 الخلاصة

إنّ التقديم ظاهرة متواترة في اللغة ، تفسّر بأسباب عديدة ، ليس القصر إلّا أحدها . وقد تتبعنا هذه الظاهرة في سورة البقرة واهتممنا بما يتصل منها بالقصر وهو لا يتعدى بعض الآيات ، وقد اهتدينا إلى تمييزها بالسياق ذلك أن « دلالة التقديم على القصر إنما هي بفحوى الكلام ومفهومه » (68) أو كما « قال الشيخ بها الدين ولا يتميّز ذلك إلّا بما يقتضيه الحال وسياق الكلام » (69) .

---

(65) نفس المصدر ونفس الصفحة .

(66) التحرير والتنوير ج 1 ك 2 ص 454 .

(67) تفسير البيضاوي ج 148/1 .

(68) علم المعاني ص 147 .

(69) الإتقان ص 85 .

واختلاف القصر بالتقديم عن بقية الطرق السّابقة لا يتعدّى التركيب ، فينبني دونها على التصرف في عناصر الجملة بالتقديم والتأخير ، ولكنه يلتقي معها في الإيفاء بالمفهوم العام للقصر وهو إثبات حكم لعنصر من عناصر الجملة ونفيه عمّا سواه .

VIII طرق أخرى في القصر

VIII . 1 ـ عرضنافي الفقرات السّابقة طرقًا في القصر اعتُمِدت أكثر من غيرها من سورة البقرة ، ونعرض في هذا القسم طرقًا أخرى لم نجد أمثلتها إلّا في آيات قليلة من السورة المذكورة ، وقد رأينا أن بعضها قد اعتبره أهل العربية من الطرق الاصطلاحية في القصر وهو المعتمد على أدوات العطف (لا ـ بَلْ ـ لكنْ) فقدّمناه وأخرنا طرقًا أخرى لم يرد ذكرها في كتب البلاغة وكتب النحو أنّها من صيغ القصر ، وقد يبدو للمتمعّن أنها إلى تلك الصيغ أقرب منها إلى غيرها .

VIII . 2 القصر بأدوات العطف

لئن كان القصر إثبات حكم للمذكور ونفيه عمّا عداه ، فإن من أدوات العطف ما يتحقّق به هذا المفهوم مثل (لا ، بَلْ ، لكنْ) وهي أدوات تفيد أن ما بعدها يخالف ما قبلها لذلك يصحّ اعتبارها من طرق القصر :

ف (لا) العاطفة الموضوعة للنفي بعد الإثبات وردت في آيتين فقط :

إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ (68)

إِنَهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا (71) .

ففي الآية الأولى تقدّم النفي وتأخّر الإثبات خلافا للأصل (إنها بقرة عوانٌ لا فارضٌ ولا بِكرٌ) لأن سنّ البقرة المتوسط (عَوَانٌ) يتحدّد بِسنّين هما

الكبر (فارضٌ) والصغر (بِكْرٌ) . أمّا في الآية الثانية فقد ورد التركيب على الأصل بتقديم الإثبات وتأخير النفي (مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا) .

واستخدمت (بَلْ) العاطفة في آية واحدة من سورة البقرة ، وذلك للإضراب عن صفة سابقة وتحقيق صفة لاحقة :

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (154) .

ففي هذه الآية تحقق النفي بـ (لَا) النافية . وتحقّق الإثبات بحرف الإضراب (بَلْ) وهو الترتيب الأصلي للحكمين المخالف للترتيب السّابق باستعمال أداة العطف (لَا) .

أمّا (لكن) العاطفة فتستخدم كـ (بَلْ) للإثبات بعد النفي وقد اشترطوا فيها « أن يسبقها نفي أو نهي وألاّ تكون مقترنة بالواو قبلها ، وأن يكون معطوفها مفردا لا جملة » (70) . وليس في سورة البقرة مثال منها مستوفٍ لهذه الشروط وعليه فإنها تعتبر حسب النحاة « حرف ابتداء محض واستدراك » 71) في الآيتين التاليتين لدخولها على الجملة لا على المفرد :

وَمَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (57) . . . (72) لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ باللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ (225) .

VIII . 3 القصر بأدوات مهملة

VIII . 3 . 1 القصر بالنفي والاستدراك

في سورة البقرة آيتان في تحديد معنى البرّ ، اعتمدت صيغتها على النفي بـ (لَيْسَ) والإثبات بـ (لكنَّ) ، ولا يفيد هذا الحرف الاستدراك بمعنى دفع

(70) النحو الوافي ج 540/1 (الهامش) .

(71) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(72) يلاحظ أن في هذه الآية قصرا بالتقديم وقد تناولنا ذلك في فقرة سابقة .

توهّم متولّد من كلام سابق كما في قولنا (زَيْدٌ غَنِيٌّ لكنَّهُ بَخِيلٌ) ولكنّه يفيد إقرار النفي قبله وإثبات نقيضه فيما بعده :

لَيْسَ البِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلَائِكَةِ وَالكُتُبِ والنَّبِيِّينَ (177) .

وَلَيْسَ البِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا البُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ البِرَّ مَنِ اتَّقَى (189) .

وتتّحِدُ (لكنَّ) في هذا الدور مع (بَلْ) فيمكن تعويضها بها دون أن يتغيّر المعنى :

لَيْسَ البِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ . . . . . بَلْ البِرُّ مَنْ آمَنَ . . . . . وإذا كان التركيب (لَيْسَ . . . إنَّ) قد اعتبر من صيغ القصر في مثل هذا البيت [بسيط] :

لَيْسَ الجَمَالُ بِأَثْوابٍ تُزَيِّنُنَا إِنَّ الجَمَالَ جَمَالُ العِلْمِ والأَدَبِ (73)

فإنّه من اللازم اعتبار (لَيْسَ . . . لكنّ) من صيغه أيضًا إذ أنّ إحلال هذا التركيب محلّ ذاك لا يغيّر شيئا من معنى البيت . ولولا إخلالٌ بالوزن يحدث لصحّ أن نقول :

لَيْسَ الجَمَالُ بِأَثْوابٍ تُزَيِّنُنَا لَكِنَّ الجَمَالَ جَمَالُ العِلْمِ والأَدَبِ (74)

VIII . 3 . 2 القصر بأدوات الشرط

لم تعتبر أدوات الشرط مفيدة للقصر إلّا في كتاب النحو العربي - نحو المعاني - فإننا نجد فيه أنّ للقصر طرقا مختلفة منها « إنْ الشرطية التي يُبدىء جوابها بالفاء ولام التعليل . . . : إنْ طُلِبَتِ الدُّنْيَا فَلِتُمْلَكَ ، فَإِذَا مُلِكَتْ فَلِتُوهَبَ . (زهر الآداب) » (75) . ولا نرى أن القصر يأخذ من أسلوب الشرط صيغته (إنْ . . . فلِـ . . .) فحسب ، فإنّ المتمعّن في بعض الآيات

---

(73) النحو العربي ، نحو المعاني ص 103 تنبيه .

(74) بهذا التعويض يختل وزن البيت وهو من البسيط .

(75) النحو العربي ، نحو المعاني ص 102 .

من سورة البقرة تستوقفه صيغ شرطية مغايرة يمكن إدراجها ضمن تراكيب القصر :

مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ (125) .

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ (272) .

فالتركيب في هاتين الآيتين اعتمد أداة شرط (ما) اقترن جوابها بالفاء ولام الملكية ، ولا شكّ أنه أفاد إثبات النفقة للوالدين والأقربين (الآية الأولى) ولأصحابها (الآية الثانية) ونفيها عن غيرهم ضمنيًا وذاك هو معنى القصر (76) .

ونقرأ في سورة البقرة صيغة أخرى للشرط :

فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فرجلٌ وَامْرَأَتَانِ (282) .

فهذه الصيغة (إِنْ . . . فَـ) داخلة على نفي (لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ) وإثبات (رَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) ، وتفيد الآية بهذه العناصر قصر كتابة الشهادة على رجل وامرأتين إذا استحال وجود رجلين .

VIII . 3 . 3 الخلاصة :

شمل هذا القسم إلى جانب الأدوات التي اصطلح على أنها تفيد القصر (لَا ، بَلْ ، لَكِنْ) أدواتٍ أخرى أهمل ذكرها في باب القصر وهي إن تمعّنّا في دلالتها ضمن الآيات التي عرضناها تبيّن لنا أنّ انتسابها إلى ذلك الباب ممكنٌ ، ناهيك أنها تتضمّن النفي والإثبات اللذين يتأسّس عليهما القصر . وهو ما يقوّي اعتقادنا أن مفهوم القصر لا ينحصر في صيغه الاصطلاحية المعروفة وإنّما يتّسع لصيغ أخرى يمكن استنتاجها بتوسيع المدوّنة النصّيّة . فإذا كانت سورة البقرة قد مكّنت من طرق قصرية إضافية فإنه من الأرجح أنّ في العربية طرقًا

---

(76) لعلّ للحذف في الآيتين السابقتين دوره في القصر ، ما أَنْفَقْتُمْ من خير فإنْفاقُكُمْ للوالدين والأقربين ، وَمَا تُنْفِقُوا من خير فإنفاقكم لأنفسكم .

أخرى تصلح للقصر يمكن تعيينها باستنطاق نصوص متنوّعة قديمة وحديثة . وما انحصار مفهوم القصر في طرق محدودة إلاّ للاعتماد في التقنين على أمثلة قليلة منتزعة من سياقاتها .

IX الخاتمـة

يقع القصر ضمن أبواب علم المعاني (77) وهو مفهوم بلاغي فحواه تمييز عنصر من عناصر المركّب الإسنادي وإفراده بحكم يختصّ به فلا يشاركه فيه سواه إطلاقًا ، فهو ضرب من التّعيين والتحديد والتقييد يمسّ جوهر اللغة باعتبارها مجموعة من العناصر المعيّنة تواضع عليها مستعملو اللغة لتقييد المعاني وحصرها ، وهو لون من التأكيد على غير صيغه المتعارفة (78) .

ويتوسل إلى هذا المفهوم بوسائل مختلفة منها العبارات المجرّدة مثل (فَقَطْ ، لاَ غَيْرُ ، فَحَسْبُ) (79) أو الظروف نحو قوله تعالى من سورة البقرة :

المُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ (228)

الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ (197) .

ومنها السياق :

لِلْفُقَرَاءِ الذِّينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ (273) .

فقد قصرت الصدقات في هذه الآية على الفقراء المجاهدين في سبيل الله دون غيرهم من الناس . وهذه الوسائل الثلاث لا تعتبر من طرق القصر الاصطلاحية ولا صلة لها بتراكيب مضبوطة بها تعرف وتميّز عن غيرها . لذلك

(77) « هو علم تعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق اللفظ مقتضى الحال » كشاف إصطلاحات الفنون مجلد 1 ص 18 .

(78) صيغ التأكيد المتعارفة هي التي يجمعها التأكيدان اللفظي والمعنوي .

(79) النحو العربي ، نحو المعاني ص 103 .

فقد أهملناها في هذا البحث وصرفنا العناية إلى الطرق المتعارفة التي لها أسباب لفظية تقيّدها وهي طرق متعدّدة ارتفع بها البعض الى أربع عشرة (80) منها ما هو اصطلاحي تواضع عليه أهل البيان وهو قليل (81) ومنها ما هو مذكور باختلاف (82) وقد زدنا عليها شكلين هما (النفي والاستدراك) و (صيغ من الشرط) استنتجناها من سورة البقرة ، وَلَوْ كان حقل الدراسة أوسع من هذه السورة لاهتدينا إلى أشكال جديدة تُثرِي باب القصر وتوسّع مداه ذلك أن القصر هو تعيين يتأسّس على حكمين متقابلين هما النفي والإثبات وَيُدْرَك بكل شكل يتضمّن هذين الحكمين سواء بالمنطوق أو بالمفهوم . ومن هنا يتحتّم فحص الأشكال التعبيرية في العربية القديمة والحديثة واختبار ما في بعضها من النفي والإثبات لتحديد صلته بالقصر .

وإن تعدّد الأشكال القصرية ينبىء بأهمية هذا الأسلوب وتواتره في الاستعمال ، من ذلك أنه من مجموع مائتين وست وثمانين آية من سورة البقرة نجد نيّفا ومائة آية قد توفر فيها القصر ، وهو ما يجعل منه أسلوبًا أساسيًا في اللغة جديرًا بأن يدرس من خلال نصوص عديدة قديمة وحديثة لملاحظة ما طرأ عليه من تطور في تراكيبه ، وفي تفاوت هذه التراكيب في الاستعمال .

على أنّ صيغه وإن تعدّدت فإنها تعود إلى صيغة واحدة نعتبرها الصيغة الأمّ أو الأساس وهي (النفي والاستثناء) وقد درجت كتب التفسير على الاستعاضة بها عن كل صيغة توفّر فيها القصر بصورة تكاد تكون آلية ، فكأنّما تلك الصيغة الأمّ مقياس به يصحّ اعتبار التركيب من القصر أو من غيره ، ولعلّ ذلك يعود إلى اعتبار المفسرين أن (النفي والإثبات) في هذه الصيغة أقوى

---

(80) الإتقان ص 82 ـ 86 .

(81) طرق القصر الاصطلاحية هي : النفي والاستثناء ، إنّما ، العطف بـ (لا ، بل ، لكن) ، ضمير الفصل ، تقديم ما حقّه التأخير ، تعريف الجزئين .

(82) كالتأكيد المعنوي مثل قولك جَاءَ زيدٌ نفسُهُ .

ممّا هو في بقية الصيغ وبالتالي فالقصر فيها أظهر وأوضح ، ولهذا الاعتبار قيمته ذلك أن كتب التفسير هي في رأينا الحقول التطبيقية للقواعد النحوية والبلاغية ، وما يرد فيها من ملاحظات يبقى ذا صلة بالاستعمال ، ولذلك فإنّ المفسّر عندما يستبدل صيغة قصر بأخرى لا يخطىء الصّواب ما دام التعويض يقع ضمن نصّ تحترم معانيه وسياقاته،وهل من نص آثر بالعناية من القرآن ؟ !

وإنّ اختزال صيغ القصر في صيغة واحدة تظهر النفي والإثبات بصريح العبارة لا يعني التماثل الدلالي بين تلك الصيغ ، فهو اختزال على معنى المحافظة على المعنى العام وهو النفي والإثبات ويبقى بين الصيغة والصيغة فارق دلالي هو الذي يميّز بينهما في الاستعمال.وعليه فالقصر مفهوم بلاغي تعود طرافته وثراؤه إلى تجلّيه في أشكال نحوية متعدّدة متنوّعة .

وقد اعتنينا بهذه الأشكال النحوية باعتبارها المولّدة للأبعاد المعنوية فكان بحثنا نحويًا في الأساس ، بلاغيًا بالتبعية ، على أن القصر يمكن أن يدرس من جانبه البلاغي أصلاً بالتركيز على ما يعرف بالقصر الحقيقي والقصر الإضافي والقصر الادّعائي وقصر الإفراد وقصر القلب وقصر التعيين وهي جوانب تتصل بالمقامات والأحوال يهتم بها في نطاق دراسة النص من حيث معانيه . ولكن دراسة الناحية البلاغية تتوقّف على تحديد التراكيب النحوية التي تولّدها ، ومن هنا كان للبحث في تلك التراكيب مزيّته في بلورة مفهوم القصر وفي هذا تكمن غاية هذا البحث .

الشاذلي الهيشري

ثبت في جمل القصر الواردة في سورة البقرة :

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصر
أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأُولَئِكَهُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	5	تعريف المسند + ضمير
يُخَادِعُونَ اللَّهَ والذِّينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ	9	مَا . . . إلاَّ
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ	11	إنّما
أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ	12	تعريف المسند + ضمير الفصل
أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ	13	» » » »
وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ	14	إنَّمَا
أُولَئِكَ الذِّينَ اشْتَرَوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ	16	تعريف المسند
كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُواهَذَا الذِّي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ	25	» » » »
فَأَمَّا الذِّينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ نَّهُ		

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصر
الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ	26	» » » »
وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الفَاسِقِينَ	26	مَا ... إِلاَّ ...
أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ	27	تعريف المسند + ضمير الفصل
ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ	28	التقديم
هُوَ الذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا	29	تعريف المسند
لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا	32	لاَ ... إِلاَّ ...
إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ	32	تعريف المسند + ضمير الفصل
إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ	37 _ 54	» » »
وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ	40	التقديم
وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ	41	» » » »
وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ	57	مَا ... لَكِنْ ...
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ	68	لاَ العاطفة
إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا	71	» » » »
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ	78	لاَ ... إِلاَّ ...

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصر
وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ	78	إنْ ... إلَّا ...
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً	80	لَنْ ... إلَّا ...
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ	83	لَا ... إلَّا ...
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا	83	التقديم
فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا	85	مَا ... إلَّا ...
وَهُوَ الْحَقُّ	91	تعريف المسند
وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ	99	مَا ... إلَّا ...
وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ	102	إنَّمَا
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ	105	تعريف المسند
قَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى	111	لنْ ... إلَّا ...
فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ	113	التقديم
أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ	114	مَا ... إلَّا ...
وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ	115	التقديم

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصرة
وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ	117	إِنَّمَا
قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الهُدَى	120	تعريف المسند + ضمير الفصل
فَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ	121	» » »
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ	127	» » »
وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ	128	» » »
إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ	129	تعريف المسند + ضمير الفصل
وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ	130	مَنْ ... إلاَّ ...
فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ	132	لَا ... إلاَّ ...
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ	137	إِنَّمَا
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ	137	تعريف المسند
وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ	143	مَا ... إلاَّ ...
وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ	144	تعريف المسند
وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ	149	» » »

جملة القصر	رقم الآيـة	طريقة القصرة
وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ	154	بَلْ العاطفة
إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ	156	التقديم
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ	157	تعريف المسند + ضمير الفصل
فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ	160	تعريف المسند
لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ	163	لاَ ... إلاَّ ...
إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ	169	إنَّـما
وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً	171	لاَ ... إلاَّ ...
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ	172	التقديم
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ	173	مَا ... إلاَّ ...
لَيْسَ البِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلاَئِكَةِ وَالكُتُبِ وَالنَّبِيِّينَ	177	لَيْسَ ... لكنَّ ...
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا	177	تعريف المسند
وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ	177	تعريف المسند + ضمير الفصل

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصر
فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ	181	إِنَّمَا
وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى	189	لَيْسَ ... ولكنَّ ...
فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ	193	لَا ... إِلَّا ...
فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى	197	تعريف المسند
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ	210	هَلْ ... إِلَّا ...
وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ	210	التقديم
وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ	212	» » » »
وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ	213	مَا ... إِلَّا ...
مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ	215	مَا ... فَ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ		
مَنْ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ	213	التقديم
وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ	216 ـ 232	» »
وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ	220	» » » »

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصرة
لَا يُؤَاخِذُكُمْ اللَّهُ باللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ	225	لَا ... وَلَكِنْ
لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ	229	لَا ... إِلَّا ...
وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ	229	تعريف المسند + ضمير الفصل
لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا	233	لَا ... إِلَّا ...
لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا	235	لَا ... إِلَّا ...
وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ	245	التقديم
وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ	247	» » » »
وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ	254	تعريف المسند + ضمير الفصل
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ	255	لَا ... إِلَّا ...
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ	255	لَا ... إِلَّا ...
وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ	255	تعريف المسند
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الذِّي يُحْيِي وَ يمِيتُ	258	» » » »
أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ	258	التقديم
فَإِنَّ اللَّهَ يأتِي بالشَّمْسِ مِنَ المَشْرِقِ	258	» » » »
وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ	261	» » » »
وَلَسْتُمْ بآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ	267	لَيْسَ ... إِلَّا ...

جملة القصر	رقم الآية	طريقة القصر
الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ	268	التقديم
وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الألبَابِ	269	مَا ... إلاَّ ...
لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ	272	لَيْسَ ... لكنَّ ...
وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ	272	مَا ... فَ ...
وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابتغَاءَ وجْهِ اللَّهِ	272	مَا ... إلاَّ ...
لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يتخبطه الشيطانُ مِنَ المسّ	275	لاَ ... إلاَّ ...
إِنَّمَا البَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا	275	إنَّما
فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ	282	فَإِنْ ... فَـ ...
وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مقبوضةٌ	283	إنْ ... فَـ ...
وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ	285	التقديم
لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا	286	لاَ ... إلاَّ ...

المصادر والمراجع

1) الدينيـــة :

- القرآن الكريم

- الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - الأجزاء 1 ، 2 ، 3 ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر 1967 .

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوي - الجزء الأوّل ص 41 - 274 طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

- تفسير التحرير والتنوير ، محمّد الطّاهر ابن عاشور ، الجزءان 1 و 2 . الدّار التونسية للنشّر والتوزيع .

2) المعجميـــة :

- لسان العرب ، ابن منظور ، سلسلة تراثنا ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

كتاب التعريفات ، الجرجاني (السيّد الشريف) ، مكتبة لبنان 1955 .

- كتاب كشاف اصطلاحات الفنون ، التهانوي ، المجلّدان 1 و 2 ، طبعة كلكته سنة 1862 .

3) النحوية والبلاغية :

- دلائل الإعجاز في علم المعاني ، الجرجاني، نشر محمد رشيد رضا 1331 هـ .

- شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، مكتبة المتنبي بيروت القاهرة .

- شروح التلخيص الطبعة الثانية 1342 هـ ، مطبعة السعادة مصر .

- الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة 1941 .

- البلاغة الواضحة، علي الجارم ومصطفى أمين، الطبعة العاشرة 1951، دار المعارف بمصر .

- النحو العربي ، نحو المعاني ، بكير ، المهيري ، نقرة وابن علية ، منشورات الديوان التربوي .

Grammaire de l'arabe classique R. Blachère et M. Gaudefroy - Demombynes, Troisième édition 1978 - Paris.

- علم المعاني ، الدكتور درويش الجندي ، دار نهضة مصر للطبع والنشر .

- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية 1968 .

الحرب في شعر عنترة العبسيّ

بقلم : مبروك المناعي

« كانت الحرب في بعض الأحيان تكاد تستأثر بكلّ تفكير البدو ، ولذلك لعبت دورا من أهمّ الأدوار في أشعارهم . ولم يكن عرضا أن سميت أقدم مختارات الشعر العربي بالحماسة نظرا الى أوّل أبوابها وأغزرها مادةً وهو بابُ التعبير عن ضروب الشجاعة . . . » .

كارل بروكلمان : « تاريخ الأدب العربي »

الحرب ظاهرة كونية معقّدة يصعب في الحديث عنها تحديد البدايات والأماكن ويحفظ منها التاريخ أمثلة تربو على كلّ حصر . ولئن أصبحت الحروب تُصَنَّفُ ـ في التاريخ الحديث ـ تبعا للتقنيات المستخدمة فيها أو بحسب أماكن وقوعها أو الأهداف التي ترمي إليها فإنّ الحرب ، في زعم بعض المفكّرين ، لم تكن هدفًا لذاتها (1) بل إنّ الهدف من كلّ حرب هو ـ عند التحليل والتأمّل ـ تحقيق السّلم ، لأنّ البشر إنّما يقتلون من أجل إحلال شكل من أشكال السّلم كلّما أعوزتهم صِيَغُ التفاهم السياسية . وقد اعتبرت الحرب مواصلةً للسياسة بوسائل أخرى أي أنّها لا تعدو ـ في حدّ ذاتها ـ أن تكون وسيلة . وهي لئنْ عُدّتْ وسيلة « عنيفة » فهي ليست على ما يبدو ، أكثر من السياسة عنفًا (2) .

(1) انظر : Encyclopedia Universalis. 2[e] ed. volume VIII/99 Paris 1980 : article « guerre ».

(2) نفس المرجع ص 99 أيضًا .

ولمّا كانت العلاقة بين الحرب والسّلم هي العلاقة بين القوّة والقانون فإنّ السّلم ، أي القانون ، ينفي الحربَ وينقضها ، غير أنّه لا يتحقق في الغالب الأعمّ إلّا بواسطتها ، والحجّة في ذلك أن أغلب الحروب انتهت باتفاقِيات سلمٍ وعُقود صُلح .

ولقد أردنا ـ بالبحث في الحرب في شعر عنترة العبسيّ ـ محاولة التأكُّدِ من هذه العلاقة والكشف عن بعض الجوانب التي كانت تكتنف الحرب عند العرب القدامى فيما يتعلّق بصورتها ووظيفتها من خلال شعر أحد شعرائها البارزين فيما قبل الإسلام .

وقادنا فحصُ مادّة (ح . ر . ب) في « لسان العرب » (3) ـ أي في الفضاء الثقافي والحضاري العربي القديم أساسا قبل النظر في الشعر ـ الى استنتاج أنّ معاني الحرب تدور على كونها « فعلا » و « شعورا » و « حالة » : فالحرب فعلٌ قد يقف عند الإغارة والسّلب والنّهب والسّبي وقد يتعدّى ذلك الى التقتيل . وهي تارة « غارة » إذا كانت سريعة خاطفة فجئيّة وكانت من طرف واحد وكان هدفها الأساسي النّهب ، وطورا « حرب » صُراح إذا اتّسع مداها واستعدّ لها الطرفان وكانت أكثر تعقيدا وأوْخمَ نتائج . والحرب شعورٌ ، دَلّ على ذلك وجودُ (حَرِبَ) بمعنى اشتدّ غضبُه و (احرَنْبى) بمعنى غضِب وتهيّأ للشرّ . والحرب « حالة » تقصر أو تطولُ أيْ وضعٌ نفسيٌّ هو وضع التعبئة النفسيّة والماديّة تحفّزًا للقاء عدوٍّ أو تحسّبًا لهجوم مباغت منه .

ولقد كانت الحرب في الجاهليّة أساس العلاقات بين القبائل العربيّة وقاعدتها في غياب سلطة مركزية منظّمة ، ولم تكن السّلم سوى استثناء لا يخيّم إلّا عند اتفاق قبيلتيْن أو أكثر عليه ، وشجّع الجاهليين نمط الحياة القائمة على الرّعي والتّرحال ، وعدم وجود ملكيّة قارّة مضمونة على أن تنشأ بينهم ظاهرة

(3) « لسان العرب » لأبن منظور . طبعة جديدة منقحة . دار المعارف . د . ت . 815/II .

الإغارة ، ودرّبتهم خصوصيات شبه جزيرة العرب الجغرافية على الهجوم من بُعد فرسخت فيهم التّقاليد الحربيّة وأصبحت الحرب وظيفة اجتماعيّة من أهمّ وظائف الحياة (4). بل إنّ حياتهم كانت « دامية حمراء لا تهدأ نارها ولا يخمد أوارها ، وكانت القبائل في حركتها الدّائبة من أجل لقمة العيش وجرعة الماء ونعرة السيادة ، لا تكاد تنفض أيديها من وقعة من الوقائع حتى تغبّرها في وقعة أخرى . وكانت الحياة العربية فيما قبل الإسلام بحقٍ أيّامًا وحروبًا مستمرة » . (5)

ولعلّ المبرّر لتتبّع صورة الحرب ومعانيها في الجاهليّة انطلاقًا من شعر عنترة العبسيّ أنّ هذا الشاعر صار على كرّ التاريخ ، رمزها الأكبر عندنا، تشهد بذلك وله حتّى تسميته : « فالعنترُ» الشّجاع المُحاربُ و « العنترةُ » الشجاعةُ في الحرب والذّبابُ الأزرقُ المؤذي ، و « عَنْتَرَهُ » طعَنَه . . . (6) ولا يهمّ كثيرا بعد ذلك أن يُحمل عنترةُ على اللغة أو أن تُحمل اللغةُ عليه ، فالاسم مقترنٌ بالحرب اقترانا . ولعلّنا لا نُغالي ـ في نطاق هذا التحسّس اللغوي البسيط ـ إذا أضفنَا أنّ اسمَ الأب(شدَّاد) واللقب (العبْسِيّ) يُعمّقان في هذا البطل صلةً بالحرب لا تقبل فكاكا .

وعنترةُ في الحضارة العربيّة ـ وحتّى الإسلاميّة ـ واقعٌ وأسطورة ، « وإنّ ترجمة حياته ، عندما تُحذَف منها عناصر التّهويل الشّعبي ، تبدو موجزة جدًّا : فقد ولد من أب عربيّ وأمَة سوداء وبقي في شبابه في وضع عبوديّ يرعى الإبل ، ثم تمكّن ـ في بعض حروب قبيلته عبس ضدّ دبيان وتميم ـ من البروز والتفوّق . (ولعلّ) هذا قد مكّنه من التّحلل من العبوديّة ، ثم مات شيخًا في معركة ضدّ طيء » (7) .

---

(4) انظر مقال « حرب » في : . Encyclopédie de l'Islam . Nouvelle édition . Leyde - Paris . 1971 III/184

(5) عفيف عبد الرّحمان : « الشعر وأيّام العرب في الجاهليّة » . ط 1 . دار الأندلس بيروت 1984 ص 5 .

(6) « لسان العرب » لابن منظور . 3121/IV

(7) أنظر فصل «عنترة» في : Encyclopédie de l'Islam . 2e ed . 1971 .I/537

إلاّ أن عنترة عبر عبورا قويًّا من التاريخ الى الأسطورة ، وعُدّتْ « سيرتُه » أنموذجا فريدا لرواية الفروسيّة العربيّة (8) فأصبح - وهو البطل الفرد - ممثّلا للطّبع العربي في جملته « فعنترة الجاهليُّ يصبح ، لا بطل الجاهليّة فحسب ، بل بطل الإسلام أيضًا ، وينعكس في سيرته مصيرُ العرب ومصير الإسلام المتقلّب على مدى خمسمائة سنة على الأقلّ » (9) .

وهكذا يكسب العربُ في سيرة عنترة - أيْ في الحكاية الأسطوريّة والخيالِ - جميعَ معاركهم ، ما ربحوا منها فعلاً وما خسروا : فينتصرون به حتّى في الحروب الصّليبيّة ! وفي جميع معاركهم المتأخرة ضد العجم وضدَّ « الغرب » : فقد فاض عنترة على الزّمان والمكان، سافر الى العراق وبلاد فارس ومصر والسّودان وإفريقيا والأندلس وروما وبلاد الهند والسّند بعد الجاهليّة بدهر ، وعبَر حتّى إلى التّاريخ العربي الحديث فحمّله الشعرُ والمسرحُ والسّينما أعباءَ « الحروب » العربيّة بمختلف أشكالها ، ووضعه العرب لسدّ كُلّ الثّغور المخوفة .

هكذا انتقل عنترة من التاريخ الى الأسطورة والرّمز : عنترة اليوم - وغدا - رمزٌ مُكتمل للحرب والبطولة والخُلُق الكريم ، رمزٌ لِمَا كان أو لما يظنّ الخيال الشعبيّ العربي أنّه كان؛ ورمزٌ كذلك لِمَا نودُّ أن يكون . بل هو شخصيّة مُثقلة بالرّموز ، مُشبَعة بعناصر الايحاء يهمّنا منها ، في هذا البحث ، جانبٌ واحد هو جانب البطولة والحرب ، وهو جانبٌ سنقصر اهتمامنا فيه على شعره دون سيرتهرغم ايماننا بأهميتها القصوى في دراسة الذّات العربيّة وبضرورة دراستها من منظار سوسيولوجي نفسيّ أو أنتروبولوجي .

ولن تكون مهمّة دراسة الحرب في شعر عنترة ميسورة لأنَّ شعره قد ناله هو الآخر - كما هو معلوم - تشويش الأسطورة .

---

(8) انظر قصّته في « الأغاني » . 235/VIII ط . دار الثقافة . بيروت . 1983 .
(9) انظر فصل « سيرة عنترة » في : E. I. 2. I/533

وسنعالج في هذا البحث ثلاث نقاط نعتبر أنّها تُوفي الحديث عن الحرب في شعر عنترة حقّه، وهي : حجم العرب من شعره، وصورتها ومعناها .

I / ـ حجم الحرب من ديوان عنترة :

قال الأصمعي : « ذهب أميّة بن أبي الصّلت في شعره بعامّة ذكر الآخرة وذهب عنترة بعامّة ذكر الحرب » (10) وقال صاحب فصل « عنترة » في دائرة المعارف الإسلاميّة إنَّ « أكبر قسم (من شعر هذا الشاعر) يتغنّى ببطولته وانتصاراته ممّا يؤهله لاستحقاق حبّ عبلة » (11) .

وأكّد هذين الحكمين إحصاء أجريناه في ديوان عنترة تبيّن منه أنَّ ما يقرب من ثلثيْ شعره ـ الذي تبلغ جملة أبياته حوالي الألفيْ بيْت ـ جاء في ذكر الحرب : فأنتَ إنْ طالعتَ ديوانه فكأنّك تطالع كتاب حرب ، وإنْ عالجته علاجًا معجميًّا بان لك أنّه معجمٌ حربيّ : وقد جرّد بعض الدّارسين ديوان عنترة لوضع معجم حربي غزير المادّة متنوّعها (12) .

ولا يقتصر احتفاء عنترة بن شدّاد بذكر الحرب على غرض الفخر والحماسة ـ وهو الإطار التّقليدي الذي ترد الحربُ ضمنه ـ بل إنَّ ذكرها يشيع عنده ويتسرّب إلى جميع أغراض شعره فتتلوّن معانيها بالحرب ويتأثّر بها معجمها وأساليب تصويرها ، فهو يقول متغزّلا :

« رَمَتِ الفؤاد مليحةٌ عذراءُ بسهـام لحظٍ مـالهنَّ دواءُ(13)

---

(10) محمود شكري الألوسي : « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ط 3 . دار الكتاب العربي . القاهرة . 1342 هـ .253/II

(11) أنظر : E. I. 2 الجزء 537/I .

(12) انظر : Antoine Boudot - Lamotte : « Lexique de la poésie guerrière dans le diwan de Antara Ibn Chaddad al Absi. Arabica. Tome XI Fas. 1 1964.

(13) اعتمدنا في الشواهد وفي العمل كله على شرح ديوان عنترة . طبعة دار مكتبة الحياة ـ بيروت 1980 . ويقع هذا الشاهد منه ص 9 .

ويقول :

وسَلّتْ حسامًا من سواجي جفونها كسيف أبيها القاطع المرهفِ الحدِّ(14)

فينقل صورةً تامّة من مجال الحرب إلى مجال الحبّ ويُضفي على الحبّ معاني الحرب وعلى العاشق حالَ المحروب ، مما قد يدلّ على أنّ الكوْن الحربي الذي كان يعيش فيه الجاهليون أثّر في مختلف شؤون حياتهم وصبغ أشكال تعاملهم بصباغه :

« ألاَ قاتل الله الهوى كم بسيفه قتيلُ غرام لا يُوسَّدُ في اللّحدِ » (15)

وهكذا يتلوّن الغزل عند عنترة بالحرب كما يتلوّن بها مدحه أيضا معنىً ومبنى :

« أُسُودُ غابٍ ولكنْ لا نُيوبَ لهم إلاّ الأَسنّةُ والهنديّةُ القُضُبُ » (16)

فيُضفي على ممدوحه صفات الشجاعة والحنكة الحربيّة والبطش والقوّة والسّرعة في لقاء الأعداء ويكسوه عُدَّة الحرب وتامّ سلاحها وآلتها ويرشحه لخوض المعارك وإحراز الانتصارات وغنم الغنائم وكسب المفاخر والذكر مؤكدًا على الدّوْر الحربي الذي كان أبرز أدوار الرّجل الجاهلي . ويتّخذها كذلك وسيلة للهجاء فيعكس الأمور ويقلبها رأسًا على عقِب فإذا المهجوّ جبانٌ في اللّقاء ، سريع الهرب ، وأثقلُ ما يُهجى به الرّجل هروبه من المعركة فَرَقًا وتركه متاعه وسلاحه :

تركوا اللَّبوس مع السلاح هزيمةً يجرون في عرض الفلاة المقفرِ(17)

أو تركه نساءه ـ وهو الأمر الأنكد ـ غنمًا سهلاً للغزاة السّابين :

---

(14) شرح ديوانه المذكور ص 83 .
(15) ص 76 .
(16) ص 16 .
(17) ص 102 .

فخلّوا لنا عَوْذَ النّساءِ وجَبّبوا عباديد منها مستقيمٌ وجانحُ
وكُلَّ كَعُوب خدْلَةِ السّاق فخمةٍ لها منبتٌ في آل ضبَّةَ طَامِحُ (18)

وكما يُمدح الرّجل بالحرب ويُهجى بها فهو يُرثّى بها أيضًا ، من ذلك رثاء عنترة لزهير بن جذيمة العبسي : فهو العون والعُدّة والدّرع ، وهو السّلاح في الحرب :

« كان عوْني وعُدّتي في الرّزايا كان درعي وذابلي والحُسامَا » (19)

وَفَقْدُه إنّما هو في الأساس خَسارة عسكريّة للقبيلة ونقصٌ في كفاءتها الحربيّة :

« وكان لدى الهيْجاء يحمي ذِمَارَها ويطعنُ عند الكرِّ كُلَّ طِعَانِ » (20)

أمّا الفخر فهو أوسع مجال ذُكِرتْ فيه الحربُ على الإطلاق وبالأخصّ عند عنترة ، ممّا يكاد يجعل الحديث عن الحرب في عموم شعره حديثًا عن مناقبه وخصاله ، ولذلك فلن نطيل في هذا الجانب لوضوحه ولكوْنه صُلب هذا البحث وقوامه ، وسوف نكتفي بالقول بأنَّ عنترة إنّما لَمَع بالبطولة والحرب أصلاً :

« ملكتُ بسيفي فُرصةً ما استفادَها من الدّهرِ مَفْتولُ الذّراعيْنِ أَغْلَبُ » (21)

وإنَّ أبرز مفاخره وأكثرها تواتراً صرْعُه الخصوم في الحرب وبثّ الرّعب في نفوسهم وبطشه بهم :

وكم من فـارس خَلّيْتُ مُلقًى خضيبَ الرّاحتيْن بـلا خِضابِ
يُحـرِّكُ رجْلَهُ رُعْبًا وفيـه سِنَانُ الرُّمْحِ يلمعُ كالشّهَابِ (22)

---

(18) ص 51 .
(19) ص 213 .
(20) ص 229 .
(21) ص 17 .
(22) ص 19 .

وتحكّمه المطلق في أرواحهم وأجسادهم وأملاكهم :

لِيَ النُّفُوسُ وللطَّيْرِ اللّحومُ وللْوَحْشِ العِظامُ وللخيَّالةِ السَّلَبُ (23)

وقد لوّنت الحربُ أيْضًا شكوى عنترة سوءَ وضعه وبؤسَ حظّه :

« كم يبعثُ الدهرُ مَنْ أَرْجُو أُقَارِبُهُ عنّي ويبعثُ شَيْطانًا أُحَارِبُهُ » (24)

وقساوة الدّهر عليه وعتابه إيّاه :

« يُرِيدُ مَذلّتِي ويدورُ حَوْلِي بجيْشِ النَّائباتِ إذا رَآني » (25)

كما لوّنتْ تظلُّمَهُ من قومه وذكر تألّبهم عليه :

« وقومي مع الأيّامِ عوْنٌ على دمي وقد طلبُوني بالقناء والصَّفائح » (26)

ولوّنت شعرَه الوصفيّ أيضًا بل أصبحتْ عنده لغةَ وصفٍ ، ويبدو هذا جليًّا خصوصًا في وصفه الفرس حيث يؤكّد على خصاله الحربيّة :

« ولربّ مُشْعَلَةٍ وَزَعْتُ رِعَالَها بِمقلّصٍ نَهْدِ المراكلِ هيْكَلِ »

« سَلِسِ العنانِ إلى القتال فعينُه قَبْلاءُ شاخصةٌ كعيْنِ الأحْوَلِ »

« فعليْه أقتحم الهيَاجَ تقحُّمًا فيها وأنقضُّ انقضَاضَ الأجْدَلِ » (27)

وصبغت الحربُ أيضًا شعرَ عنترة التأمّلي والحكميّ فتجسّدتْ فيها صورةُ الرّجل الكامل وغدتْ أرقى قيم الرّجولة :

وقد فازَ مَنْ في الحرب أصبح جائلاً يُطاعِنُ قِرْنًا والغُبَارُ مُطنِّبُ (28)

ولئن كانت الحربُ إحدى قيم ثلاثٍ اعتبرها طرفة بن العبد كمالَ الفتوّة الجاهليّة ، فإنَّ عنترة يختلف عنه ـ رغم الشّبه الكبير بينهما ـ في الاحتفاظ بقيمة

(23) ص 16 .

(24) ص 13 .

(25) ص 230 .

(26) ص 47 .

(27) ص ص 152 ـ 153 .

(28) ص 21 .

واحدة وتفويقها على سائر القيم وهي الحرب : فقد أسقط عنترةُ ـ في أكثر من موضع من ديوانه ـ الخَمْرةَ والمرْأة ، وأبقى على الحرب مُجسِّدًا أرْقى لقيمة الرّجل :

« في الخَافِقَاتِ السُّودِ لي شُغُلٌ   لَيْس الصَّبابةُ والصَّهباءُ مِنْ شُغُلِي » (29)

واستعاض بنشوة الغلب عن نشوة الخمرة ولذّة الحبّ :

وإنّي أعشقُ السُّمْرَ العوالي   وغيْري يعشقُ البيضَ الرِّشَاقَا (30)

بل إنَّ الحرب أصبحتْ سلوكًا يسلكه ومبدأً يصدر عنه ومثلًا أعلى إليه يدعُو وبه يؤمن :

« لَا تَقْتَضِ الدَّيْنَ إلَّا بالقَنَا الذُّبُلِ   وَلَا تُحَكِّمْ سِوَى الأسيافِ في القُلَلِ . . .

ولا تَفِرَّ إذا ما خُضْتَ معركةً   فما يزيدُ فِرارُ المرْءِ في الأَجَلِ » (31)

وهكذا يتّضح كيف أنَّ الحرب تمتدُّ في شعر عنترة لشيوعها في نفسيته فتصبغ لا شعر الفخر والحماسة فحسب وإنّما سائر الأغراضِ الأخرى ، وهي ملاحظة قد تنطبق على الشعر الجاهلي عمومًا وجانب من الشعر الإسلامي حتّى أنَّ مبحثًا جديدًا جديرًا بالدّراسة ـ في رأينا ـ يظهر من ورائها وهو دراسة الحرب كمعنىً لا كغرض ، أيْ دراسة الحرب في غير شعر الحرب : فقد بدا لنا أنَّ الحرب أصبحت عند عنترة لغةَ قوْلٍ شعريٍّ يستمدّ منها معجمهَ وصورَهُ وأساليبَه البلاغيّة :

إذا رشقتْ قلبي سِهَامٌ من الصَّدِّ   وبدَّلَ قُرْبي حَادثُ الدّهر بالبُعد

لَبستُ لها دِرْعًا من الصّبر مانِعًا   ولاقيتُ جيْش الشّوْقِ مُنفردًا وحدي (32)

---

(29) ص 169 .
(30) ص 142 .
(31) ص ص 167 ـ 168 .
(32) ص 75 .

II / صورة الحرب في شعر عنترة :

نعني بالصّورة خصائصَ فنّ الوصف الحربي في شعر عنترة والعناصر المكوّنة للوحة الحرب عنده . إنّ غزارة المادّة الحربيّة التي يتضمّنها ديوان عنترة بصفة فاقت ما عند غيره تبلور أمام الدّارس صورة غنيّة متكاملة العناصر للحرب الجاهليّة كما وصفها هذا البطل الشاعر . ولعلّنا يمكن أن نختصر مكوّنات المشهد الحربي في شعره في الأركان التالية : العدد والعُدّة ـ المعركة ـ البطل ـ العدوّ :

1 / ـ **العدد والعُدّة** : يحتوي هذا الرّكن على معطيات التعبئة المادّيّة والنفسيّة الضروريّة لكلّ حرب مهما كان حجمها ، ويشمل ، عند عنترة ، رفاق القتال من ناحية والخيل والسّلاح من ناحية أخرى .

أ ـ **رفاق القتال** : لا يؤكّد عنترة عندما يتعلّق الحديث بأعضاده في المعارك على النّاحية العدديّة بقدر ما يهتمّ بخصال نوعيّة أهمّها كرَمُ الأصل وهي صفة ترشّحهم للاستبسال والغلب :

« لا أبعد الله عن عيني غطارفةً إنْسًا إذا نزَلُوا جِنًّا إذا رَكبُوا » (33)

والصّبر على ويلات الحرب وجراحاتها :

« وفوارس لي علمتهمُ صُبْرٍ على التّكرارِ والكلْمِ » (34)

والصّدق والإخلاص لما من أجله يُحاربون :

« وإخوان صدقٍ صادقين صحبتهمْ على غارةٍ من مثلها الخيلُ تُسرَجُ » (35)

---

(33) ص 16 .
(34) ص 196 .
(35) ص 43 .

والشجاعة وهي الانتصار « الدّاخلي » إن صحَّ القولُ ـ أي التغلّب على هواجس النّفس ومخاوفها باعتبار ذلك خطوة أولى ضروريّة للتغلّب على الخصم :

« فأُقحمُها ولكن مَعْ رجالٍ كأنَّ قلوبَها جَجَرُ الصَّعيد »(36)

وإلى الشجاعة تنضاف المهارة والدّراية بفنون الحرب والقدرة على الخروج من مضايقها والإفلات من قبضاتها ، وهي صفاتٌ تُكتَسَبُ بالدّربة والتّجربة :

« من كلِّ أروعَ للكماةِ مُنازلٍ ناجٍ من الغمرات كالرِّئبالِ »
« ومعاودِ التكرارِ طال مُضِيُّهُ طعْنًا بكلِّ مثقَّفٍ عَسَّالِ »(37)

ولعلَّ أقوى ما صوّر به عنترة رفاقه في القتالِ أنّهم نارٌ تتّقد ، كناية عن حماسهم ونشاطهم وإقدامهم وخطرهم على الأعداء :

« يمشون والماذِيُّ فوقَ رؤوسهم يتوقّدون توقُّدَ الفحم »(38)

ب ـ **الخيل** : إنّ جيِّدَ الخيل من أنفس ما كان يُعدُّ للأيّام والغارات والحروب الجاهلية ، فقد كانت الخيل تُنتَقَى وتُربَّى وتُدَّخر بحرص شديد لأوْقاتِ الحاجة ، وكان الجاهلي يُؤثرها في العناية والغذاءِ على أفراد أسرته لأنّها وسيلته الأولى في السّيطرة على الفضاء الحربي سواء في الهجوم والغلب أو في الهروب والمنع . وفي شعر عنترة أنموذج نادر من العناية بالخيل يفوّق فيه جواده على زوجه ويخصّه باللّبن دونها ويزجرها إذْ عاتبته على ذلك ويهدّدها بالفراق إنْ هي أصرّتْ :

لا تذكري مُهري وما اطعمتُه فيكون جلدكِ مثل جلد الأجربِ
إنَّ الغبوق له وأنتِ مسوءةٌ فتأوّهي ما شِئْتِ ثمّ تَحَوّبي(39)

(36) ص 61 .
(37) ص 166 .
(38) ص 196 .
(39) ص 25 .

وأبرزُ ما تختصّ به الخيل المحاربة في شعر عنترة عن الخيل عامّة أنَّ صورتها لا يقع التأكيدُ فيها على الجانب الجمالي وهو الجانب الذي يبرز في تصوير الشعراء لها في أوقات السّلم : وإنَّ هذا ليتضح عندما نُقارنُ بين تصوير امرىء القيس مثلاً لجواده وتصوير عنترة : فامرؤ القيس لا يتوقّف كثيرًا - في معلّقته - عند ما نسميّه بصفات الجواد الحربيّة لأنَّ حديثه عنه جاء حديثًا في يوم تلذّذ ونُزْهةٍ فانصرف اهتمامه إلى النّاحية الجماليّة :

ضليع إذا استدْبرتَهُ سدَّ فرجَه بضافٍ فُوَيْقَ الأرض ليس بأعزلِ
كأنَّ سراته لدى البيت قائمًا مَداكُ عروس أو صَلايَةُ حنظلِ
كأنَّ دماءَ الهاديات بنحره عصارةُ حنّاءٍ بشيْب مُرَجَّلِ . . .
ورُحْنَا يكادُ الطرْف يَقصُر دونه متى ما تَرقَّ العين فيه تَسَهَّلِ (40)

أمّا عنترة فلا يكاد يصف جواده إلاّ في ساح المعارك ، ولهذا فإنّه يحشدُ له الصّفات والصّور المتصلة بالحرب ، وهو لا يملك من الوقت ما يُبذَلُ في الوصف الجمالي ، ثمَّ إنَّ هذا ليس من غاياته ، فصلتُه به تبدو صلةَ حربٍ أساسًا ، لذلك تختفي النّاحية الجمالية أو تكادُ ، بل إنَّ الغرض الحربي قد أبرز في تصوير عنترة للفرس ، ظاهرة عكسيّة هي الدّمامة وهي صفة تستدعيها الحربُ لتماشيها مع الرّغبة في إرهابِ العدوّ :

« وإنّا نقود الخيل تحكي رؤوسُها رؤوسَ نساءٍ لا يجدن فَواليَا » (41)

أمّا أبرزُ الصفات التي تدعوها الحربُ فقد أورد منها عنترة صفات الفراهة والضّمور والقوّة والسّرعة فبدتْ في وصف الجواد الذئب وصورةُ العُقاب :

« ويمنعنا من كلِّ ثغر نخافه أقبُّ كسرحان الأباءةِ ضامِرُ »
« وكلُّ سَبوحٍ في الغبار كأنّها إذا اغتسلتْ بالماءِ فتخاءُ كاسِرُ » (42)

---

(40) « شرح القصائد السّبع الطّوال الجاهليات » لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ط 4 . دار المعارف . 1980 . ص 98 .
(41) ص 249 .
(42) ص 91 .

وتنضاف الى السّرْعة صفة أخرى متفرّعة عنها هي اليقظة والنشاط :

« ولي جوادٌ لدى الهيجاءِ ذو شغَب يُسابقُ الرّيحَ حتّى ليس يُلتحَقُ » (43)

ويمتدح من الخيل - كما يُمتَدح من الفوارس - المجرّبُ الذي تمرّس بالغارات والمعارك :

« وخيْل عُوِّدتْ خَوْضَ المنايا تُشيِّبُ مَفرقَ الطّفل الوليدِ » (44)

ومن دلائل التجربة والتعوّد على الحرب آثار الجراح القديمة على جسم الجواد :

« إذْ لا أزالُ على رحالةِ سابحٍ نَهْدٍ تعاوَرَهُ الكماةُ مُكلَّمِ » (45)

وقد لا نجانب الصّواب إنْ قلنا إنّ في شعر عنترة الحربي تصويرًا نفسيًّا للجواد إذْ أنّ هذا الشاعر الفارس يرصد خلجات دقيقة يحاول من خلالها النّفاذ الى نفس هذا الكائن الأثير عنده فيشي شعره بتجاوب نفسيّ نادر بينه وبين جواده :

« يُجيبُ إشاراتِ الضّمير حساسةً ويُغنيكَ عن سوطٍ له ولجامِ » (46)

فالتّفاهم تامّ بينهما فرسًا وفارسًا زالتْ فيه وسائل التفاهم العاديّة بين الإنسان والحيوان (السّوط واللّجام) فكأنّهما التحما فصارا واحدًا كائنًا خرافيًّا ، إنسانًا - حيوانًا : ولعلّ هذا سبب من أسباب عبور عنترة بجواده الى مجال الأسطورة . وفي المعلّقة من هذا التّبادل « الرّوحي » أو العاطفي بينه وبين جواده ما لا نعرف له إلّا أمثلة نادرة في الشّعر العربي القديم مثل محاورة عامر ابن الطّفيل لجواده التي يقول فيها :

---

(43) ص 137 .
(44) ص 61 .
(45) ص 190 .
(46) ص 212 .

« إذا ازورّ مِنْ وقع الرِّماحِ زَجَرْتُه وقلتُ له ارْجِعْ مُقبلًا غير مُدْبِرِ »
« وأنبأتُه أنَّ الفِـرارَ خزايـةٌ على المرء مالم يُبْلِ جَهْدًا ويُعْذَرِ »
« ألستَ ترى أرْمَاحهمْ فِيَّ شُرَّعًا وأنتَ حِصانٌ ماجِدُ العِرق فاصْبِرِ » (47)

ومحاورة المثقِّب العبْدي لناقته إذْ يقول :

إذا قُمْتُ أُرْحِلُهـا بِلَيْـلٍ تَـأوَّهُ آهةَ الرَّجـلِ الحـزينِ
تقولُ إذا درأتُ لها وضيني أهـذا دينـه أبـدًا وديني ؟
أكُلَّ الدّهـر حلٌّ وارتحـالٌ ؟ أمَا يُبقي عليَّ ومـا يَقيني ؟ (48)

فعنترة البطل ـ الإنسان يشعر بالخوْفِ عندما يجدّ جدّ الحرب فيشدّ جواده البطل ـ الحيوان أزره ويشحنه نفسيًّا بالثّقة ويشحذ عزمه :

« خرجتُ إلى القرم الكميِّ مبادرًا وقد هجستْ في القلب منّي هواجسي »
« فقلت لمهري والقنا يقرع القنا تنبَّهْ وكُنْ مستيقظًا غير ناعسِ »
« فجاوبني مُهري الكريمُ وقال لي أنا مِنْ جيادِ الخَيْلِ كُنْ أنت فارسي » (49)

وإنَّ الجواد يُصبح ـ عند عنترة ـ سلاحًا أو رميةً يرمي بها الأعداء ويكوّنُ ـ مع السّلاح ـ امتدادًا ليده أي لقوّته ، أفقيًّا :

« مازلتُ أرميهم بثُغرة نحره ولبانه حتَّى تسربَل بـالدّمِ » (50)

ويكوّن له امتدادًا آخَرَ ، عموديًا ، يجعله يعلو أرضَ المعركة ومحاربيها عُلوًّا خارقًا فتُوجَّه الرّماحُ نحوه ـ وهو الكُتْلة الجاريةُ النّازلةُ ـ من أسفل إلى أعلى :

« يدعون عنتر والرِّماحُ كأنّها أشطانُ بئرٍ في لَبانِ الأدهم (51)

---

(47) « المفضّليات » ، للمفضّل الضبّي . ط 5 . دار المعارف . 1976 . ص ص : 361 ـ 352 .
(48) المرجع السّابق . ص ص : 291 ـ 292 .
(49) شرح ديوان عنترة . ط . دار مكتبة الحياة . بيروت . 1981 . ص 131 .
(50) المصدر المذكور . ص 194 .
(51) ص 194 .

ولا يبقى مع عنترة في لحظة البوْح الشعري الحربي ، عندما « تقْلِصُ الشفتانِ عن وضْح الفم » ، في اللّحظة الحاسمة التي تهمّ فيها الشجاعة بأن تنقلب على صاحبها رهْبة ـ سوى جواده يبثّه ـ ولا يهمّ الفاعل ـ أصدق مشاعر مرارة الموقف : لا يهمّ كثيراً مَن « شكا » و « بكى » في ذلك الموقف من المعلّقة ، إنّما المهمُّ هذه « المحاورة » وهذا « الكلام » الذي لم يتمّ :

« فـازورّ وقْـع القنـا بلَبـانـه   وشكـا إليَّ بعبرةٍ وتَحَمْحُمِ »
« لوْكان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلامَ مُكلّمي » (52)

ولا نعجب بعد ذلك من قول عنترة عن جواده :

« يفتـديني بنفسـه وأفـدّيـ   ـه بنفسي يومَ القتالِ ومالَي » (53)

فهما واحدٌ ، والكناية بالخيل عن الفوارس أمرٌ معروف .

ج ـ **السّلاح** : ليس من همّنا في هذا المجال ، أن نستخرج من ديوان عنترة ثبتًا بأسماء الأسلحة التي وردتْ فيه وأنواعها وموادّ صُنعها وخصائصها العامّة فذاك أمرٌ أغنانا عنه ـ وبه ـ المستشرق أنطوان بودو ـ لاموط (Antoine Boudot - Lamotte) في فصله القيّم الآنف الذّكر عن « المعجم الحربي في ديوان عنترة » فضلاً عن فصل « صبح الأعشى » (54) وعن الدّراسة التي قام بها المستشرق ف . و . شوارلوز (Friedrick Wilhelm Schworzlose) عن « الأسلحة العربيّة » باللغة الألمانيّة والتي ذكرها بودو ـ لاموط ونوّه بها (55) ، بل غايتنا إبراز النّاحية النّوعيّة والوظيفيّة والدّلالة الرّمزيّة للسّلاح في نطاق معنى الحرب في شعر عنترة : فالسّلاح ـ مهما كان بدائيًا ـ وجْهٌ من وجوه الذكاء

---

(52) ص 194 .
(53) ص 174 .
(54) « صبح الأعشى في صناعة الإنشا » لأبي العبّاس القلقشندي (ت . 821 هـ) . ط . المؤسسة المصرية العامة للترجمة والطباعة والنشر . القاهرة . 1963 . 139/II : فصل « آلات السّلاح » .
(55) A. Boudot - Lamotte المرجع السّابق . ص 20 .

في الحرب ، وهو مما تُضيفه الثقافة إلى الطّبيعة ، أيْ أنّه امتدادٌ للقوّة في شكل ثقافي متّصل بالتقنية والصّناعة ، وبدونه لا يصدق الحديث عن الحرب ، وهو إلى ذلك ضَمَانٌ نفسيٌّ : فإذا اعتبرنا الجواد ـ في الحرب البدويّة أصلاً ـ امتدادًا للسّاقين ، فإنّ السّيْفَ والرّمحَ والسّهمَ امتدادٌ لليديْن أيْ تفخيم للقوّة ، كما أنَّ الدّرع والقناع تفخيمٌ للبدن . . . فإذا أضفنا إلى وجود السّلاح توفّر نوعيته الجيّدة تمّ للمقابل حظٌّ هامٌّ من حظوظ الغلب كافٍ وحده أحيانًا لإدخال الوجل والرّعدة على قلوب خصومه .

ولقد أهتمّ عنترة في شعره الحربيّ ـ إلى جانب النّاحية الكميّة ـ بنوعيّة سلاحه بصورة بارزة : فقد عدّد في ذكره السّيفَ مثلاً ، الأسماء والصّفات فجعل منها ما يتعلّق بمكان الصنع فكانت صفاتُ « الهندي » و « المهنّد » و « الهندواني » و « المشرفي » و « اليماني »، وما يتعلّق بالحدّة والمضاءة فكانت صفات « الباطر » و « المِخذَم » و « الصّارم » و « الفيْصل » و « المِفصَل » و « الفصّال » و « العضْب » و « الماضي » و « الصّقيل » و « الصيْقل » « الحسام » ، وجعل منها ما يتّصل بالطول والاستواء فذكر « القضيب » وما يتعلّق بالعرض فذكر « الصّفيحة » ، وما يتّصل بالصّلابة وصراحة المعدن فكانت صفات « الحديد » و « الأبيض » و « الذكَر » . وذكر من الرّماح « الخطيّ » و « الرّدينيّ » و « السّمهريّ » و « الذّابل » و « المعلّب » و « الأصمّ » و « السّفّاك » و « الدّقيق » و « الأسمر » . . . ولا شكّ أنَّ لهذا التعداد والتكثيف طاقة تأثيريّة تكسبها الإيحاءاتُ والمعاني الحافّة فعلاً مهدِّمًا لمعنويات الخصم .

والملاحظ أنَّ للسّلاح عند عنترة دورًا يكاد يكون هجوميًّا بحتًا لذلك يكثر تواتر السّلاح الهجومي عنده (السّيف ـ الرّمح ـ السّهم . . .) في حين يقلّ بصورة واضحة ذكر سلاح الدّفاع والتحصّن كالدّرع مثلاً التي لا يذكرها

إلّا في نطاق فخره بتمامِ سلاحه ـ قبل المعركة ـ أوْ حين يشقّها رمحه وهي لبوس أعدائه ، لا في مواقف دفاعيّة فعنترة مهاجمٌ أبدًا لا يُعرَفُ له في الحرب قفا ، وهو ـ حتّى في حالات إدبار قومه ـ يظلّ يُناوِشُ طلائع المهاجمين حتّى يكفكفهم .

وصُورةُ السّلاح الأولى عند عنترة هي الصّورة المألوفة المتداولة عند شعراء الحماسة جميعًا وهي استخدامه في قتال الأعداء مجرّد وسيلة من وسائل الحرب :

« وإنّا أبدنا جمْعَهم برماحنا   وإنّا ضربْنا كبشهم فتحطَّما »
« بكلّ رقيق الشفرتيْن مُهنَّد   حُسام إذا لاقى الضّريبةَ صمّمَا » (56)

غير أنّ للسّلاح عنده صورًا أخرى هي التي تتكفّل ـ في نظرنا ـ بجانب الطّرافة فيما يتّصل بهذا الموضوع : صور مطبوعة بطابع الأناسة تحدّد بين الفارس وبين سِلاحه علاقة مشحونة شحنًا عاطفيًا ـ مثلما رأينا بخصوص الفرس ـ حتّى لَتبدو بينهما صلات ووشائج قُربى ، علامة بارزة على التّلازم بين الفارس والسّلاح :

« سيفي أنيسي ورمحي كلّما نهمتْ   أُسْدُ الدِّحال إليها مال جانِبهُ » (57)
وهو يحمي معي على كلِّ قِرنٍ   مثلما للنّسيب يحمي النّسيبُ (58)

بل إنّ ظروف عنترة الخاصّة وحماسة الحرب ونشوة النّصر تصل به إلى تعشّق السّلاح بدَل المرأة في نوع من التعويض النّادر :

« وإنّي أعشق السُّمْرَ العوالِي   وغيري يعشقُ البيض الرِّقاقا » (59)

(56) شرح الديوان . الطبعة المشار إليها سابقًا . ص 214 .
(57) ص 14 .
(58) ص 29 .
(59) ص 142 .

فعنترة الذي لم يحظ بالحبّ ، أحبّ ما اعتقد أنّه كفيلٌ بتحقيق الحبّ واللذّة والكمال الإنساني معًا :

وتُطرِبُني سيوفُ الهند حتّى أهيمُ إلى مضاربها اشتياقًا (60)

ولعنترة ، في تصوير علاقته بسلاحه ، أساليب أخرى تُضيف إلى هذه العلاقلا « الإنسيّة » معاني تتنوّع بين التّصغير من شأنِ العدوّ كقوله :

« يضحكُ السّيْفُ في يدي ويُنادي وله في بَنان غيري نحيبُ » (61)

وبين الاستخفاف به كقوله :

« وَسيْفي كان في الهيْجَا طَبيبًا يُداوي رَأسَ مَنْ يشكُو الصُّداعَا » (62)

والحاصل أنَّ العلاقة بين عنترة وسلاحه ـ كالعلاقة بينه وبين جواده ـ علاقة وجدانية حميمة أسبغ فيها هذا الشاعرُ الفارسُ من ثراء شخصيته ورهافة حسّه ما به بدا الجماد والحيوان إنْسًا رقيقَ النّفس فائض المشاعر : ولعلّ هذا سبب آخرُ لعبور عنترة إلى عالم الأسطورة والخيال .

2 / ـ المعرَكة :

ذكر عنترة الحرب ، في شعره الحماسي ، بتنويع كبير : ذكر المعارك التي خاض والمعارك التي يعزم على خوضها أو يهدّد بخوضها ، وذكر المعركة في مختلف أطوارها : الإعداد والسّيْر واللقاء والإنجاز والنّهاية ،وذكرها أحيانًا ذكرًا سريعًا في نتف شعرية مجملة وأحيانًا في قطع وأجزاء من قصائد، وخصّها في مواضع كثيرة من ديوانه بقصائد طوال تفصلّ في ذكر مراحلها ودقائقها تفصيلاً ، وأصبحت الحرب معه غرضًا قائماً في أغراض الشعر برأسه تُقصَّدُ فيه القصائد، قدَّمَ له بالنّسيب والطّلليات أحيانًا (القصيدة ص ص 49 ـ 52

(60) ص 141 .
(61) ص 29 .
(62) ص 127 .

والقصيدة ص ص 78 ـ 82 والقصيدة ص ص 102 ـ 102 والقصيدة ص ص 102 ـ 105 والقصيدة ص ص 138 ـ 140 والقصيدة ص ص 197 ـ 200 والقصيدة ص ص 213 ـ 214) وقدّم له بالتأمّل والشكوى أحيانًا أخرى (القصيدة ص ص 230 ـ 233) .

وأوّل ما يلفت الانتباه ، في وصف المعركة عند عنترة ، تنويعه في أسماء الحرب وصفاتها وكناها . والمتواتر عنده في هذا الصّدد ذكر كلمة « يوم » بمعنى حرب ، ومعلوم أنَّ « أيّام العرب » هي « الوقائع الحربيّة التي كانت تدور في الجاهليّة بين قبائل البدو (. . .) والتي دُوِّنت ابتداءً من القرن الثاني للهجرة، دوّنها الرّواة والإخباريون الذين اشتغلوا بالشعر الجاهلي (. . .) وهي تعني الحروب ، وقبل ذلك تعني الشّدائد والمحن » (63) .

وذكر عنترة كلمة « يوم » أحيانًا عديدة مضافة إلى مصدر تمحّض للاسميّة : فورد عنده « يوم اللقاء » ، مكنّيًا به عن الحرب تكنية لطيفة تتضمّن مَعْنًى حافًا هو معنى الشّوق، شوقه للحرب، وكذا « يوم النّزال » و « يوم الطعن » و « يوم الطّعان » و « يوم الزّحام » و « يوم القتال » و « يوم الهياج » ، كناية عن حال الغضب والثّورة ، وأضافه أحيانًا أخرى إلى المكان الذي دارت فيه المعركة كـ « يوم صهباء » و « يوم عراعر » و « يوم المصانع » ، وحدّده مرّة أخرى تحديدًا ظرفيًا زمانيًا كما في قوله مستعيرًا للغارة معنى « الزّيارة » :

« سلي ياعبلُ عنّا يوم زُرْنا قبائل عامر وبني كـلابٍ » (64)

أو قـولـه :

« غداةَ أَتَتْ بنو طَيّ وكلبٍ تهزّ بكفّها السُّمْرَ الطِّوالاَ » (65)

---

(63) محمد اليعلاوي : فصل « أدب أيّام العرب » . حوليّات الجامعة التّونسية عدد 20 . سنة 1981 .
(64) شرح ديوان عنترة . ص 19 .
(65) المصدر نفسه . ص 179 .

والملاحظ أنَّ التّنويع في أسماء الحرب آيةٌ على مختلف ضروب الإحساس بها وثراء أساليب تصويرها ممّا يُعطي عنها صورة متكاملة الجوانب : و « الحرب » هي التسميةُ الأشملُ لمختلف جوانب الظاهرة العسكرية وذلك لدلالتها على الحالة النفسيّة والفعل القتاليّ معًا و « المعركة » تعني المكان والحال ، باعتبار صيغتها الصّرفيّة وباعتبار معناها الأصلي (العِراكُ : ازدحام الإبل على الماء) (66) ، ومعناها الحافّ (الالتحام في القتال) ممّا يرشّح كلمة « معركة » للاضطلاع بتصوير المظهر البصري للحرب . أمّا كلمة « الوغى » فتضطلع بتصوير المظهر الصّوتي منها ، وكذلك « المعمعة » (صوتُ الحريق في القصَب ونحوه) وتضيف إضافةً لمسيّة باعتبار معناها الحافّ (شدّة الحرّ) . أما كلمة « الهيْجاء » ففيها كـ « الهياج » معنى الغضب والثّورة ، وهي تلتقي بـ « الغمرة » (بمعنى الشدّة) و « الوقيعة » (بمعنى الصّدْمة، صدمه الحرب والقتال) للتّعبير عن الجانب النّفسي للمحاربين وعن جوّ الحرب عمومًا ، بينما تدلّ صفة « العَوان » على الحرب التي تطول ويُحاربُ فيها مرّات : والأصل في « العوان » أنّها صفة المرأة التي تزوّجت أكثر من مرّة أي التي بدّلت الأزواج ممّا قد يُوحي بالنّحْس والشؤم ، وهي صفة تلتقي بصفة أخرى من صفات الحرب وهي « الكريهة » وتعني الانطباع الذي تخلّفه الحرب في نفوس النّاس وخوفهم إيّاها . وبهذا نرى غَنَاء الحقل المُعجمي والدّلاليّ المتعلّق بذكر الحرب والمعركة في شعر عنترة ، وفي الجاهليّة عامّة .

وأغلب المعارك التي وصفها عنترة في شعره قصيرة خاطفة يقتصر نقلها على ثلاث حركات موجزة هي الهجوم ، فمحق العدوّ ، فالعودة المظفّرة :

« وردتُ الحربَ والأبطالُ حوْلي تهزّ أكفُّها السُّمْرَ الصِّعادَا »
« وخضتُ بمهجتي بحرَ المنايا ونارُ الحرب تتّقـدُ اتّقادَا »

(66) « لسان العرب » ط . دار المعارف . ص 2911 وما يليها .

« وعدتُ مخضّبًا بدم الأعادي وكربُ الرّكض قد خَضَبَ الجوادَا » (67)

ثلاثةُ أفعالٍ فحسب تختصرُ شريط المعركة بكامله (وَرَدْتُ ـ خُضْتُ ـ عُدْتُ) ، غير أنَّ في ديوانه أيضًا معارك أطنبَ في وصف جُزئياتها ودقائقها فجاءت مطوَّلة واحتلَّ وصفُها الصّفحاتِ : من ذلك حائيته في ذكر إغارته على بني ضبّة وتميم (68) التي ذكر فيها مكان الحرب وزحف المتحاربين بعضهم إلى بعض ووصف السّلاح والرّايات وعمليّات الهجوم والطّعان والضّرب ووطيس المعركة ومداها الزّمني وانخذال الخصوم وانهزامهم وفرارهم وتركهم الجرحى والقتلى والأسرى والسّبايا؛ وداليته المعروفة بـ « العقيقة » (69) حيث يذكر مكان المعركة وزمانها ويصف الفوارس والخيل والسّلاح مطنبًا وحرارة المعركة وغبارها ويعدّد مختلف حركات القتال :

« وكررتُ والأبطالُ بين تصادُمٍ وتهاجُمٍ وتحزُّبٍ وتَشـدُّدِ »

« وفوارسُ الهيْجاءِ بين ممانعٍ ومُدافعٍ ومخادعٍ ومُعرْبِدِ . . . » (70)

ثم يذكر انتصار قومه وانتشار جثث قتلى أعدائه وشجى أصواتِ جرْحاهم . . . وقد دامت هذه المعركة يومًا كاملاً إذْ بدأ وصفها بقوْله :

« باكرتُها في فتيةٍ عبسيّة من كُلّ أرْوعَ في الكريهةِ أَصْيَدِ » (71)

وأنهاه بـ :

« والجوُّ أقْتَمُ والنّجومُ مُضيئةٌ والأفق مُغبَرّ العِنان الأرْبَدِ » (72)

وأبرز صوَر المعركة عند عنترة صورة « الرّحى » وصورة « النّار » وصورة

(67) شرح ديوان عنترة . ص 65 .
(68) ص ص 49 ـ 52 .
(69) ص 80 .
(70) ص 81 .
(71) ص 80 .
(72) ص 82 .

« السّوق » وصورة « العجاجة » : فالحربُ رحىً ترحي :

« ودُرْنَا كما دارتْ على قُطبها الرّحى ودارتْ على هَامِ الرّجالِ الصفائحُ » (73)

إذا ما الحربُ دارتْ لي رحاها وطابَ الموتُ للرّجُلِ الشديد

« ترى بيضًا تشعشعُ في لظاها قد التصقت بأعضادِ الزّنودِ (74)

وهذه صورة لئن أوحتْ بالحركة ـ حركةِ التطويق والمحق ـ فإنّه يغلب عليها المظهر الصّوتي : فهي صورة سمعيّة يمثّل فيها الشّاعرُما يمتلء به ميدان المعركة من ضجّة وصخب وجعجعة ويعضدها في مواضع أخرى بتأكيد واضح على النّاحية الصّوتيّة كأن يقول (75) :

« وأُسْكِتَ كُلُّ صَوْتٍ غيرَ ضربٍ وعتْـرسـةٍ ومـرميّ ورامِ

والحربُ نارٌ تُوقَدُ فتتّقد؛ يصلى لظاها الأبطالُ ويحترق بلهيبها وجمْرها الجُبَناءُ :

« وردتُ بمهجتي بحرَ المنايَا ونارُ الحربِ تتقّـد اتّقـادًا (76)

وللمعركة عند عنترة صورة أخرى نادرة ـ فيما نعلم ـ هي صورة « السُّوق » وهي صورة مركّبة متعدّدة الأبعاد والمظاهر ، فيها ما في السّوق من حركة وصوتٍ ولوْنٍ ومتاع ومدفوع ومقبوض وغُنْم وخُسر . . . تتواتر عنده بدون كبير تغيير في عناصرها : الحربُ سوقٌ والنّفوس بضاعتُها والسّيف تاجرُها والفارس ـ أوْ جواده ـ دلاّلُها (77) .

وتتواتر ، في وصف عنترة للمعارك ، صورة أخرى هي صورة « الغبار » فهو من العناصر القارّة أيْضًا ، وله عنده تسميّات عِدّة هي « الغبار »

---

(73) ص 51 .
(74) ص 61 .
(75) ص 199 .
(76) ص 65 .
(77) انظر ص 126 و ص 174 .

و « النّقع » و « العجاج » و « الرَّهْج » و « القَتام » . وصورة العجاج بَصريَّةٌ بحتة تتحمّل معنَى كثرة الحركة والسّرعة والاشتباك وتسير تدرّجًا من « الغبار » إلى « القَتام » ويؤكّد فيها الشاعرُ على التّناسب الطّردي بين اتساع الغبار وكثافته حتّى يُشبه ظلامَ اللّيْل ، وبين ضراوة المعركة :

« وضربٍ وطعنٍ تحت ظلّ عجاجةٍ كجنح الدّجى من وَقْعِ أيْدِي السَّلَاهِب »
« تطيرُ رؤوسُ القوْم تحت ظلامها وتنقضّ فيها كالنّجوم الثواقِب »
« وتلمعُ فيها البِيضُ من كلِّ جانبٍ كلمعْ بُروقٍ في ظلامِ غَيَاهِبَ » (78)

ولعلَّ أبرز ما يوحي به تصويرُ العجاجة معنى عشوائيّة الموت إذْ لاَ يعرف المُقاتِلُ ، عندما يقصُرُ بصرُه ، من أيْنَ يأتيه حتْفُه . . . وقد يتشكّل العجاج ـ عند عنترة ـ في صورة البحر الغامر :

« وترى بها الرّايات تَخْفُقُ والقنا وتَرى العجاجَ كمثل بَحْرٍ مُزْبِدِ (79)

وتنتهي المعركة بصورة لا تقلّ تواترًا عند عنترة عن سابقاتها وهي صورة انتشار أجساد الجرحى وجثث القتلى على ساحة المعركة ، وعثور خيْل المنتصرين بها وتَلَطُّخها بدمائها :

« حتّى رأيت الخَيْل بعد سوادها حُمْرَ الجلودِ خُضِبْنَ من جِرْحاهَا »
« يعثرنَ في نَقْعِ النّجيع جَوَافِلاً وَيَطَأْن من حَمْي الوغَى صَرْعَاهَا » (80)

أو عثورها بجماجم القوم عند العودة المظفّرة :

« وعادَ بي فرسي يمشي فَتُعْثِرُهُ جماجمٌ نُثِرَتْ بالبِيض والأسَلِ » (81)

ويمعن عنترة في التنكيل بخصومه وإظهار بطش قومه عندما يُنهِي المعركة

---

(78) ص 22 .
(79) ص 81 .
(80) ص 239 .
(81) ص 168 .

بالسّيْر فوق جثث الأعداد متّخذًا منها نعالاً لخيْله في صورة دامية قوية :

« ونُنعل خيْلَنا في كُلِّ حربٍ عظامًا داميات أوْ جلودَا »(82)

والحربُ عند عنترة صعبةٌ مُخيفةٌ :

« أعَاذلُ كم من يوم حربٍ شهدتُه له منظرٌ بادي النّواجذِ كالِحُ »(83)

ولكنّها رغم قساوتها وبشاعةِ صورتها محبوبة شهيّة إلى نفسه :

« فإنَّ غبار الصّافناتِ إذا علا نشقتُ له ريحًا ألذَّ من النّدِّ »(84)

فهو يحبّها ويشتاقُ إلى أيّامها وتُطربه أجواؤها :

« أحنُّ إلى ضربِ السّيوف القواضبِ وأصبُو إلى طعْن الرّماحِ اللّواعبِ
« ويُطربني والخيْل تعثُر بالقنا حُداةُ المنايا وارتهاجُ المواكبِ » (85)

3 / - البَطل :

يَستطيع الدّارسُ لشعر عنترة الحربي أنْ يؤلّف صورة متكاملة الجوانب لبطل الحرب الجاهليّة الكامل الذي تتوفّر فيه صفاتُ المحارب الأمثل وأداؤه وسلوكه الأخلاقي .

أ / - الصّفات والخصال الحربيّة : إنَّ أوّل ما يطالعنا من صفات الفارس الجاهلي الحربيّة صفة الحذَر والاستعداد للضّرورة الدّفاعيّة :

« « إنّي أحاذر أنْ تقول ظعينتي هـذا غبارٌ سـاطعٌ فتَلبَّبِ(86)

---

(82) ص 64 .
(83) ص 50 .
(84) ص 72 .
(85) ص 21 .
(86) ص 26 .

وإنَّ الذي يجعل البطل بطلاً - إلى جانب صفة دوام التأهُّب للحرب وانتقاء أجود الخَيْل والسّلاح لها وتعهّده حزمًا واحترازًا حتّى لا يُفاجَأ ويُؤخذ على غِرّة - صفةُ الشجاعة ورباطة الجأش :

« يُخْبِرْك بدرُ بن عمرو أنّني بطلٌ   ألقى الجيوش بقلبٍ قُدَّ مِنْ جَبَلِ » (87)

وصفة الصّبر على مكاره الحرب وتوطيد النّفس على النّصر :

« فصبَرت عارفةً لذلك حُرَّةً   ترسُو إذا نفْسُ الجبانِ تَطلَّعُ » (88)

وصفة الإقدام والجرأة والمبادرة بالهجوم والمبادرة بالضّرب . . . والملاحظ أنَّ هذه الخصال الحربيّة تُكتَسَبُ اكتسابًا ، يكتسبها المحارب من طول تمرّسه بالحرب وبلائه فيها :

« قد طال ما لبِس الحديدَ فإنّما   صدأُ الحديد بجلده لم يُغْسَلِ » (89)

ولقد أوقف عنترة حياته بكاملها على الحرب ، فهي لئن كانت في الجاهلية من الوظائف الاجتماعية الأساسيّة ، إلاّ أنّها عنده بالذّات تقف للحياة غاية :

« خُلِقْتُ للحرب أحميها إذا بردتْ   وأصطلي بلظاها حيث تحترقُ » (90)

وتستقطب مختلف مراحل العمر استقطابًا أسطوريًا ، من الطفولة :

« وفي الحرب العَوانِ ولدتُ طفلاً   ومِنْ لبَن المعامع قد سُقيتُ » (91)

إلى الشيخوخة والهرم مرورًا بالشباب والكهولة :

« والخَيْل تعلمُ والفوارسُ أنّني   شيخُ الحُروب وكهلها وفتاها » (92)

(87) ص 168 .
(88) ص 128 .
(89) ص 149 .
(90) ص 136 .
(91) ص 38 .
(92) ص 242 .

من هنا تمَّ لعنترة امتلاك الخبرة بالحروب وتوفّرتْ له أسبابُ الأداء الجيّد محاربًا وقائدًا .

ب / ـ **الأداء** : توفّرت لعنترة ، إلى جانب صفات المحارب الأمثل ، عناصر تتّصل بجودة أداء الفعل القتالي وكماله ، وأهمّ هذه العناصر السّرعة والدّقّة والقوّة : وقد عبّر عن سرعة إصابته الخصوم بأنّه « يأخذ » عدوّه أخذًا :

« كم فارسٍ بين الصّفوف أخذتُه والخيْل تعثر بالقنا المتكسِّرِ »(93)

أو « يخطف » الفرسان خطفًا :

« ولكم خطفتُ مدرّعًا من سرجه في الحرب وهو بنفسه لم يشْعُرِ »(94)

ويبدو من شعر عنترة الحربي حرصه على أن تكون طعنته أوْ ضربته دقيقة صائبة لمقاتل العدوّ :

« وإنْ طعَنَ الفوارسُ صدرَ قَوْمٍ فطعني في النّحور وفي التّراقي »(95)

فتكون قاضية ، ضربة خبير بالمعارك يسدّدها إلى حيث ينبغي حتّى يضمن لنفسه الغلَب السّريع . وأكثر مضارب العدو ومطاعنه ورودًا في شعر عنترة النّحر والترقوة والقلبُ والكلى :

« فهناك أطعن في الوغى فرسانها طعنًا يشق قلوبها وكُلاها »(96)

ومع الدقّة في الطعن يبرز عنده معنى العُمْق أيضًا :

« ولقد نكبْتُ بني حُرَيْقة نكبةً لمّا طعنتُ صميمَ قلب الأخْيَلِ »(97)

---

(93) ص 103 .
(94) ص 104 .
(95) ص 140 .
(96) ص 242 .
(97) ص 171 .

ومن مظاهر حُسنِ الأداء في حروب عنترة القوّةُ ، ويأتي تعبيره عنها إمّا في صور الضرب العنيف :

« يفلّقُ هامَ الدّراعين ذُبَابُه ويفري من الأبطالِ كفًّا ومِعصمًا » (98)

وصور الرّؤوس المتناثرة المهشّمة المشوّهة وجوهها تدوسُها حوافرُ الخيْل الجافلة :

« يُجرِّرْنَ هَامًا فلّقتْه رماحُنا تزيَّل منهنّ اللّحَى والمسايحُ » (99)

أو بأساليب إيحائية تتصدّرها صور الدّماء تتدفّق فائرةً فائضة :

« يُفيضُ سِنَاني دماءَ النّحورِ ورمحي يشقُّ مع الدّرع قلبَهْ » (100)

وبهذا تكتمل لعنترة أسبابُ البطش والتفوّق المطلق والمُذهِل على عدوّه ويصبح مُهابًا مخوفًا جانبُه ما أنْ يهمّ بخصمٍ حتّى يطيرَ قلبُه فَرَقًا :

« لمّا رآني قد نزلتُ أريدُه أبدى نواجذَه لغيْر تبسُّمِ » (101)

وهو يذكر أعداءه تارة في حال الجمع وطورًا في حال الإفرادِ ، فإنْ كانوا جمعًا فلهم منه أنْ يفرّق شملهم ويصدّ هجومَهم :

« تولَّوْا سِراعًا والقنا في ظهورهمْ تشكّ الكلى بيْنَ الحشا والخواصرِ » (102)

وأنْ يسوقَهم سوق الأنعامِ ويتغنّى بفرارهمْ منه هلعًا :

« وراحتْ خيْلهم من وجه سيفي خِفافًا بعدما كانتْ ثِقالاَ » (103)

غير أنّ عنترة غالبًا ما يصف بطشه بالأبطال فُرادى ويتخيّرُ منهم أشرفهم وأبسلَهم وأتمّهمْ سلاحًا يختلي به في موْقع بارزٍ من مشهد المعركة ، ويأتي حديثه

---

(98) ص 214 .
(99) ص 52 .
(100) ص 13 .
(101) ص 192 .
(102) ص 98 .
(103) ص 180 .

عنه إمّا بذكر بطشه به بصورة سريعةٍ ساحقة ، لَمْ يُغنِ عنه تمامُ سلاحه ولا كثرةُ أنصاره وشدّتهم :

« ومسربَلٍ حلَقَ الحديد مدجَّج كاللَّيث بين عرينةِ الأشبالِ »
« غادرتُه للجنب غيْرَ موسَّدٍ مُتثنِّيَ الأوْصالِ عند مجالِ »(104)

أوْ بتفصيل فعله به تفصيلاً في تصوير دامٍ مُرعب كالذي نجده في المعلّقة :

« وحليل غانيةٍ تركتُ مُجدَّلاً تمكو فريصتُه كشدقِ الأعْلَمِ »
« سبقتْ يداي له بعاجل طعنةٍ ورشاش نافذةٍ كلوْن العنْدم . . . »(105)

إلى قـوْلـه :

« فطعنتُه بالرّمح ثمّ علَوْتُه بمهنّدٍ صافي الحديدةِ مِخْذَمِ »
عهدي به شدَّ النّهار كأنَّما خُضِبَ البَنانُ ورأسُه بالعَظْلمِ »(106)

ج / ـ أخلاقه العسكريّة : وأضاف عنترة إلى استعداده شبه الفطري للحرب ومهارته فيها وتفوّقه أخلاقًا يمكن نعتُها بأخلاق الحرب ، وأوّلها سرعة تلبية النّداء إلى الحرب لنصرة القوم وشدّ أزرهم :

« إذا ما مُنادي الحيّ نادى أجبْتُه وخيْلُ المنايا بالجماجم تعثُرِ »(107)

وإغاثتهم في المواقف الحربيّة الحرجة :

« وإنْ دارتْ بهم خيْلُ الأعادي ونادوْني أجبتُ متَى دُعِيتُ »(108)

---

(104) ص 164 .
(105) ص 190 .
(106) ص 192 .
(107) ص 96 .
(108) ص 37 .

ونجدة المكروب المشرف على الموت :

« ومكروبٍ كشفتُ الكرب عنه بضربة فيْصلٍ لمَّا دَعَاني »(109)

غيْر أنَّ المنادي قد لا يكون قريبًا مستضعفا بل هو عدوّ معتدّ بقوّته يُناديه متحدِّيًا في نطاق « التذامر » أي التحرّش والاستفزاز المتبادل بين المتحاربين . وعنترة نفسه يدعو الأبطال في الحروب ويصرخ فيهم ولكن بهدف إرهابهم وفلّ عزمهم والنّيل من معنوياتهم :

« فصرخْتُ فيهم صرخَةً عبْسيَّةً كالرّعْدِ تدوِي في قلوبِ العسكرِ »(110)

إلاّ أنَّ حِلم عنترة وعلوّ همّته يجعلان منه شخصًا رحيمًا ليِّنًا في مَواقف كثيرة من حروبه يعفو عمَّنْ ظلموه عفْوَ القدير الغالب :

« ذلَ الأُلَى احتالُوا عليَّ وأصبحوا يتشفّعون بسيْفيَ الفتّاكِ »

« فعَفَوْتُ عن أموالهم وحريمهم وحميْتُ ربْعَ القوْمِ مثل حماكِ »(111)

ولمْ تكن الغنيمة ولا المرأة على ما يبدو ـ دافعًا من دوافع الغزو عند عنترة كما سنبيّن في مكان لاحق من هذا البحث : فقد صرّح في معلّقته بأنّه يخفّ إلى الحرب ويعفّ عند اقتسام الغنم :

« يخبرْكِ من شهد الوقيعة أنّني أغشى الرّدى وأعفّ عند المغنم »(112)

وعنترة لا يغتنم فرصة الحرب والظروف الاستثنائية التي تخلقها للنّيل من عرض غيره ، فقد أُثِرَ عنه أنّه كان يترفّع ـ في الأحوال العكرة ـ عن إخضاع النّساء لرجولته حتّى اللاّئي سباهنّ وأصبحْن بحكم سيادة القوّة والغلب في حوزته :

« ما استمْتُ أنثى نفسَها في موْطنٍ حتّى أُوَفِّيَ مهرَها موْلاها »(133)

(109) ص 231 .
(110) ص 104 .
(111) ص 145 .
(112) ص 191 .
(113) ص 239 .

وإنَّ عنترة إذْ تكتمل لديْه صفات المحارب الأمثل وأداؤه الكامل وأخلاقه العالية يتمحّض بداهةً للاضطلاع بدوْر القائد في الحروب ؛ وشعره الحربي يُبرزه بهذه المثابة :

« إذا خطرتْ عبْسٌ ورائِيَ بالقنا علوْتُ بها بيتًا من المجد مُعلَمَا »(114)

ويبدو من خلال شعر عنترة الحربي ومن خلال أخباره في « الأغاني » (115) أنّه كان ـ إلى قيمته العسكريّة ـ خبيرًا بخطط الحرب وجوانبها السّتراتيجيّة والتقنيّة ـ كما يُقالُ اليوم ـ عارفًا بأجوائها النّفسيّة : انظر كيف ينظّم جيْشه ـ في الأبيات التالية ـ ويصيح فيه لتعبئته ودفعه للهجوم ، بعد لحظة ضعف وإحجامٍ وتردّد ، وكيف يختار الطريق إلى قائد جيش العدوّ وأبرز أبطاله بادئًا بالأضعف من رجاله :

« فأتيتُها والشمسُ في كبد السّما والقوْم بين مُقَـدَّمٍ ومؤخَّـرِ »
« ضجّوا فصحتُ عليْهم فتجمّعُوا ودنا إليَّ خميسُ ذاك العسكرِ »
« فشككتُ هذا بالقنا وعلوْتُ ذا مع ذاك بالذّكر الحُسام الأبْتَرِ »
« وقصدتُ قائدهم قطعتُ وريدَهُ وقتلتُ منهم كُلَّ قرْمٍ أكبرِ . . . »(116)

وانظر حديثه عن هذا الترتيب الدّقيق وهذه المرحلية المدروسة في الخبر الذي يُروَى عنه في « الأغاني » : قيل لعنترة : أنت أشجع العرب وأشدّها ؟ قال : لا ، قيل : فبماذا شاع لك هذا في النّاس ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيْتُ الإقدام عزمًا ، وأُحجمُ إذا رأيْتُ الإحجامَ حزمًا . ولا أدخل إلاّ موْضعًا أرى لي منه مخرجًا ، وكنتُ أعتمد الضّعيف الجبان فأضربه الضّربة الهائلة يطيرُ لها قلبُ الشجاع فأثْنّي عليه فأقتله . . . » (117) .

---

(114) ص 214 .
(115) ج 235/VIII - 244
(116) ص ص 101 ـ 102 .
(117) « الأغاني » 241/VIII - 242 .

بهذا كلّه تكاملت لعنترة جميع عناصر البطولة وشروطها فغنمتْ من وجوده قبيلتُه عبْس ما ضمن لها السّؤدد والمناعة والذّكر زمنًا :

« أنَا الحِصنُ المشيد لِآلِ عبْسٍ إذا ما شادتِ الأبطال حِصنَا »(118)

وملأ الدّنيا وشغل النّاس في حياته :

« ولِي في كُلِّ معركةٍ حديثٌ إذا سمعتْ به الأبطالُ ذَلُّوا »(119)

ثمّ طبّقتْ مآثره الحربيّة الآفاق والحقب حتّى غزا مجال التّاريخ الملحمي وميدان الأساطير الغزْوَ الذي تعرف ، وبات قابضَ النّفوس مقسّم الأرزاق :

« لِيَ النّفـوسُ وللطيْرِ اللّحـومُ وللوحشِ العظامُ وللخيّالةِ السَّلَبُ »(120)

وأضحى البطل الخارق الذي لا يموت :

« فما للرّمح في جسمي نصيبٌ ولا للسّيْف في أعضايَ قُوتُ »(121)

هكذا وَلَجَ عنترة عالم الأسطورة ، ولقد برهنت حياتُه الدّامية وشعره النّاري على ما أثبتته الأنتروبولوجيا الثقافية في العقود الأخيرة من أنَّ الأسطورة إنّما تُؤَسَّسُ دائمًا على نواةٍ تاريخيّة ثابتة قابلة للشُّيُوع والاتّساع والتضخّم .

4 / ـ العـــدوّ :

للعدوّ في معارك عنترة صورتان متقابلتان تتناسبُ أولاهما مع ما قبل المعركة وثانيتهما مع ما بعدها ، وإنّما إفاضتُه في ذكر العدوّ تقع في هاتين المرحلتين في حين يخصّ نفسه ورفاقه في المعركة بالوسط :

أ / ـ قدوم العدوّ : تسيطر على هذه المرحلة من الحرب في شعر عنترة صورة متواترة هي صورة المطر القويّ المفاجىء ، مطر المناطق الصّحراويّة والمناخات القطريّة المعروف بغزارته وتدفّقه :

(118) شرح الدّيوان ص 228 .
(119) ص 161 .
(120) ص 16 .
(121) ص 38 .

« سَلِي فزارة عن فعلي وقد نَفَرَتْ في جَحْفلٍ حافِلٍ كالعارض الهَطِلَ »(122)

وصورة السّيل الجارف كناية عن غزارة الجيْش :

« إذا ما مَشوْا في السّابغاتِ حسبتهم سُيولاً وقد جاشتْ بهنّ الأباطِحُ »(123)

وعنترة حريص على التأكيد على كثرة العدوّ في حال هجومه الجماعي ، غير أنّه قلّ أنْ يحيد عن استخدام صورة المطر والسّيل ويجنحَ للتّصوير المباشر للكثرة عن طريق التّشكيل اللّغوي كما نجد في هذا الشاهد من شعره :

« بجيْشٍ كُلّما لَاحـظْتَ فيـه حسبتَ الأرضَ قد مُلِئَتْ رِجالاَ »(124)

أمّا في وصف العدوّ الفرد فإنّ الصُّورَ تتنوّع كثيرًا ولكنّها تلتقي في صورة الفارس الكامل ؛ ولهذا الفارس ثلاثة مظاهر : مظهر يتعلّق بجسمه ، ومظهر يتعلّق بمكانته الاجتماعيّة ، ومظهر يتّصل بسلاحه وكفاءته الحربيّة :

فخصم عنترة قويٌ بدينٌ وسيمٌ :

« فَلَرُبَّ أبلجَ مثل بعلك بادنٍ ضخْمٍ على ظهر الجوادِ مهيَّلِ »(125)

وغريمه سيّدٌ في قومه ، بطلٌ يتمتّع بكلّ ما ترغبُ فيه النّساء :

« وكم بطَل تركتُ نساهُ تبكي يُـرِدّدْنَ النّواحَ عليـه حُزنـا »(126)

وغريمه ذو مكانة في قومه ، غنيّ عليه سيماء التّرف ، يلبسُ مصبوغ النّعال ، جوادٌ في الأزماتِ متلافٌ لماله بيْن الخمر والمْيسر :

« رَبِذٍ يداهُ بالقداح إذا شتا هتّاك غاياتِ التّجار مُلَوَّمِ »

« بطل كأنَّ ثيابه في سرحةٍ يحذى نِعالَ السِّبْتِ لَيْس بِتَوْأَمِ »(127)

---

(122) ص 168 .
(123) ص 50 .
(124) ص 79 .
(125) ص 151 .
(126) ص 228 .
(127) ص 192 .

وغريمه منيعٌ تامّ السّلاح ، ومحاربٌ شجاعٌ عنيدٌ ، شديد المراس :

« وفيهم كلّ جبّارٍ عنيدٍ شديد البأس مفتول السِّبالِ »(128)

ومُجمل القول إنّ للخصم في حرب عنترة صورةً تبلغ الكمال وتدخل عالَمَ الأسطورة هي الأخرى ؛ وإنّ عنترة يَعمد في شعره إلى ما يشبه عمليات « السّحر التّمثيلي » (129) فيُصوّر بطله أكمل تصوير ثم يصرعه أكمل صرع ، تمامًا كما يفعل السّاحر حين يمثّل في سحره خصمَه الذي يريد لعنَه وإهلاكه على هيئة دمية يضع فيها جميع خصائصه ، ثمّ يُحطّمها اعتقادًا منه بأنّه إنّما يُهلكه بإهلاكها . وإنّ لنا ـ في مكانٍ لاحقٍ من هذا البحث ـ تعليقًا على الرّأي النّقدي الذي مُؤدّاه أنّ عنترة إنّما يقدّم خصمه في أكمل صورة حتّى يُعطى لانتصاره عليه معنىً هو أنّ غالبَ الأقوياء أقواهم وقاهر الشجعان أشجعهم .

ب / ـ انهزام العدوّ : بقدر ما تبدو صورة العدوّ إيجابيّة في بداية المعركة تبدو سلبيّة جدًّا في نهايتها . وأولى صور الانهزام الإدبار والفرار من ساحة القتال :

« تركوا اللّبوسَ مع السّلاح هزيمةً يجرون في عرض الفلاة المقفرِ »(130)

وإذْ يُدبِرُ الأعداءُ يُمعن الغالبون في طِرادهم وضرب مؤخّرتهم حتّى لا يعودوا :

« إذْ أدبروا فعملنا في ظهورهمُ ما تعمل النّار في الحلفا فتحترقُ »(131)

ثم يعود عنترة لتصوير ساحة المعركة ، بعد فرار الأعداء ، وتتواتر عنده صور الجرحى والأسرى والقتلى في تعابير تتكرّر فيها أفعالٌ بعينها هي « تركتُ »

(128) ص 175 .

(129) راجع ـ في هذا الصّدد ـ كتاب ج فرايزر : « الغصن الذّهبي » . ترجمة أحمد أبو زيد وآخرين ، ط 1 . الهيئة المصرية العامّة 1971 .

(130) ص 102 .

(131) ص 136 .

و « غادرتُ » و « خَلَّيْتُ » في جميع خواتم معاركه تقريبًا : فمن صورة مفردة لعدوّ مغرّز جسمه بالرّماح :

« وغادرْنَ نضْلةَ في معركٍ يجرّ الأسنّةَ كالمُحتطِب » (132)

إلى صورة أخرى مفردة لعدوّ جريح يتلوّى ألمًا ورُعْبًا وقد تضرّج بالدّم :

« يحرّك رجله رُعبًا وفيه سنانُ الرّمح يلمعُ كالشّهابِ »(133)

إلى صورة ثالثة مركّبة تجمع بين الأسرى والجرحى والقتلى :

« والبيضُ تلمع والرّماحُ عواسلٌ والقوْم بين مجدَّلٍ ومُقيَّدِ

« وموسّدٍ تحت التراب وغيره فوق التراب يئنّ غير موَسَّدِ . . . »(134)

ومن عادة عنترة أن يتغنّى أواخر المعارك بأسماء مَنْ يقتل من الأبطال والسّادة :

« وقتلتُ فارسَهم ربيعةَ عنوةً والهيْذُبان وجابر بن مهلهل »

« وابنيْ ربيعةَ والحريس ومالكًا والزّبرقان غدا طريح الجندلِ . . . »(135)

وتحتلّ مكانًا بارزًا من مشهد انتشار جثث الجرحى والقتلى صورة الجوارح والضّواري وهي إمّا تنتظر فرصة انقطاع حركة الجريح حتّى تنهش جثّته :

« تركتُ الطيْر عاكفةً عليه كما تَرْدِي إلى العُرْس الغوانِي

« وتمنعهنّ أنْ يأكلن منه حياة يدٍ ورجلٍ تركُضانِ . . . »(136)

أوْ أنّ الجثّة قد خمدتْ وهي تمزّقها أشلاء .

(132) ص 24 .
(133) ص 19 .
(134) ص 82 .
(135) ص 172 .
(136) ص 232 .

وإذا فُرِّقَ شملُ الأعداء وذهبوا بين هاربٍ وأسيرٍ وجريح وقتيل برزتْ آخر صوَر الإذلال والإهانة وهي صورةُ نسائهم بواكيَ مَسبيات :

فخلّو لنا عَوْذَ النّساءِ وجَبّبُوا عَباديدَ منها مستقيمٌ وجانِحُ . . . »(137)

وهكذا تنتهي معارك عنترة بقلب صورة العدوّ رأسًا على عقب : فبقدرما يكون قدومه هائلاً مرعبًا تكون نهايته ـ في عين عنترة ـ سعيدة مفرحة . يُستخلَصُ ممّا سبق أنَّ صورة الحرب عند عنترة ثريّة غزيرة المادة متنوّعة المظاهر ، متعدّدة الأبعاد . ولئن كانت الحرب قوّةً ورعبًا ودَمًا أيّان دارتْ رحاها وحيثما وُصِفتْ فإنّها عنده أقوى وأشدّ رعبًا وأغزر دمًا منها عند غيْره دلَّ على ذلك شعرُه كلّه ودلّت عليه المعلّقة بصورة خاصّة : وإنَّ لتحليل معنى الدّم في شعر عنترة فائدة سنقف عليها في القسم الموالي من هذا البحث .

III / ـ معنى الحرب عند عنترة

تبيّن من الفصل الأوّل من هذا البحث ، المتعلّق بحجم الحرب من ديوان عنترة ، أنَّ شعره غلَب عليه ذِكْرُ الحرب ـ كمًّا ونوعًا ـ وأنَّ المعاني الحربيّة تتمشّى في شتّى أغراضه وتؤثّر في معجمه الشعري وأساليبه في القول ، وأنَّ عنترة شاعرُ حرب أساسًا ؛ وظهَر من خلال الفصل الثاني من هذا البحث أيضًا أنَّ صورة الحرب في شعر عنترة تتلخّص في ثنائيّة متضاربة وهي أن الحرب سيّئة حسنة معًا. وإنّ حلّ هذا التضارب يتمثّل ـ في رأينا ـ في تبيان دلالةِ الحرب عند هذا الشاعر ، وتحليل الوظيفة التي اضطلعتْ بها في حياته : أنَّ جوهر الصِّراع الإنساني ـ والحربُ أبرزُ مظاهره ـ يتجلّى في كوْنه صراعًا يهدف إلى امتلاك القوّة أوْ تجاوز الضّعف ؛ ولقد كان عنترة في

(137) ص 51

حاجة ماسّة إلى تجاوز ألوان من الضّعف تردّى فيها ، فكان اختيارُه الحرب وهيامُه بها . وإنّ النّاظر في ديوان هذا الشّاعر سرعان ما يُلاحظ أنّ الحرب كانت عنده مهربًا لجأ إليه من وضع كان يشقى به كثيرًا ، وأنّها كانتْ الحلّ الوحيد لمشكلتيْن كانتا تتوزّعان نفسه هما مشكلتا المنزلة الاجتماعيّة واللّون .

1 / ـ مشكلة المنزلة الاجتماعيّة :

وُلد عنترة كما تقول أخباره من أبٍ عربيّ أبيض حُرّ وأمَة سوداء ، فاقتضى العرف الاجتماعي أنْ يعُتبَر عبدًا لأنّ مَنْ كانت هذه ولادته كان يُعتَبَرُ إذّاك عبدًا أوْ كالعبد ؛ فكان عنترة مشدودًا من هذه النّاحية إلى وضع عبوديّ لأنّه « ابن لأمّ تنتمي إلى الطبقة الثالثة من النّساء بعد الحرائر والسّبايا ؛ فالسّبيّة كانت وقفًا على رجلٍ واحدٍ أمّا الأمَة فكانت شيئًا مُشاعًا . . . » (138) وقد تأذّى عنترة من هذا الوضع وتحدّث عنه كثيرًا في قصائده ، وكان حادّ الوعي به حيث ذكر ثلاث عشرة مرّة في ديوانه أنّه « عبد » وذكر كيْف كان رعيةُ الإبل وهوانه . وقد اتّبع حديثه عن عبوديته منحيَيْن لئن التقيا في الضّيق والحرج الذي صاحب ذكرها فقد اختلفا في الدّرجة : فهو أحيانًا يذكر عبوديته في شيءٍ من الرّضا المرّ وكأنّه مقتنع بها ؛ ونحن نفترض أنّ هذا الموقف كان منه في شبابه وبواكير شعره وفي مرحلة استرضاء قبيلته ؛ ويبدو هذا في مثل قوله :

« أنا العبدُ الذي خُبِّرْتَ عنه رعيتُ جمالَ قومي من فطامي »
« أروح من الصّباح إلى مغيب وأرقد بيْنَ أطناب الخيَام »(139)

وقوله ـ في أسلوبٍ تأمّلي :

« ومَنْ يكنْ عبدَ قومٍ لا يخالفهم إذا جَفَوْهُ ويسترضي إذا عَتَبُوا » (140)

(138) عبده بدوي : « الشعراء السّود وخصائصهم في الشعر العربي » ط . الهيئة المصرية العامّة للكتاب . القاهرة 1973 . ص 30 .
(139) شرح ديوانه ص 216 .
(140) نفسه . ص 15 .

ولكنّه ، في الغالب الأعمّ من شعره ، لا يذكر عبوديته إلّا ليقابلها بحسنة من حسناته وكأنّه يُريد محوَها بها : والملاحظ أنّ هذه الحسنات كلّها « مكتَسب » غير موروث ؛ ومن هنا يتّضح الفاصل بين أصل عنترة أو نسبه ـ الوضيع ـ وبين مزايا الفتى المرموق التي استطاع هو أن يحصل عليها بنفسه .

وتأتي في أوّل رتبة من هذه الصّفات الحسنة التي يُقابل بها عبوديته ويفوّقها عليها ، البطولة في الحرب :

« أَنَا العبْدُ الذي خُبِّرْتَ عَنْهُ يُـلاقي في الكريهـةِ أَلْفَ حُرٍّ »(141)

فالحرب إذن هي الصّفة الأولى « المكتسبة » التي حاول بها عنترة تجاوز سوء وضعه الاجتماعي . أمّا غيرُ صفات الحرب فلا يهمّنا في هذا المقام .

والحرب تكمّل نصفَ عنترة الغائب في الحالات التي يشعر فيها بأنَّ نصفَه الآخر ـ المتأتّي من أبيه ـ حاضرٌ موجودٌ :

« إنّي امرؤ من خيْرِ عبس منصبًا شطري وأحمي سائري بالمنصلِ » (142)

ولكنّ هذه الحالة من التوازن حالة مؤقّتة لم يردْ ذكرها في شعر عنترة سوى مرّة واحدة ، في حين تواترتْ شكواه من العُري التامّ أيْ درجة الضَّعَة المطلقة مرّات عديدة ؛ ولعلّ هذا يوافق أطول مرحلة من حياته ، مرحلة العبوديّة . وهو لم يجدْ في هذه المرحلة سوى الحرب أُمًّا وأبًا تمنحه نسبًا كاملاً صُراحًا :

« وقد طلبتُ من العلياء منزلةً بصارمي ، لا بأمّي لا ولا بأبِي » (143)

---

(141) ص 108 .
(142) ص 147 .
(143) ص 15 .

ولعلّنا من هنا نفهم دقائق العلاقة بيْن عنترة وفرَسه وسلاحه وحرارتها العاطفيّة و « إنسانيتها » : فهو يستعيض بفرسه وسلاحه عن القريب والنّسيب :

« جوادي نسبتي ، وأبي وأمّي حُسامي والسّنانُ إذا انتسبنا » (144)

ومن هنا نفهم بعض معاني الحرب عند عنترة وجزءًا من دورها في حياته ، فقد كانت الوسيلة الأولى التي وجدها ليُعتَرف بإنسانيته وليكون لحياته معنى في بيئةٍ أنكرتْهُ :

« أوْ أنكرتْ فُرسانُ عبْس نِسْبتي فسنَـانُ رمحي والحُسام يُقِـرُّ لِي »
« وبذابلي ومهنّدي نلتُ العُلا لا بالقرابة والعديد الأجْزَل. . . » (145)

ومن هنا نفهم بعض ما كان يجعل عنترة يحبّ الحرب وينتظرها فقد كانتْ فرصتَه الوحيدة ليَظهر ويعرف النّاسُ قدْرَه ، وكانت ساحة المعركة المكان الوحيد الذي لا « يُجهل » فيه .

« أنا في الحربِ العَـوانِ غـيْرُ مجهـولِ المكـانِ »
« أيْنـما نـادى المنـادِي في دجَى النقـع يـرَانِي »(146)

أمّا في أوقات السّلم فلم يكنْ لعنترة وجود فعليّ ، بل إنَّ وجوده رهين الحروب ، فلا كانتْ سلم !

« يُنادونني في السّلم يا ابنَ زبيبةٍ وعند صدام الخيْل يا ابنَ الأطايبِ »(147)

لهذا فضّل عنترة الحربَ على السّلم ، فالحرب تمنحه ـ وإنْ وقتيًّا ـ نَسبًا ، أيْ حريّة ، في بيئةٍ « يرتبط فيها معنى الحريّة ارتباطًا وثيقًا

---

(144) ص 228 .
(145) ص 176 .
(146) ص 218 .
(147) ص 32 .

بصراحة النّسَب وجلاء الأصل » (148) : أيْ أنّك تكون حُرًّا بقدر ما تكون متحدّرًا من أصل صريح ممّا ينتج عنه تشابك بين النّسَب والحريّة والدّم ، وكلّها واحدٌ في الجاهليّة ؛ وتأتي الحرب ، أيْ إراقةُ الدّم ، لتحديد موْقف من قضيّة النَّسَب ـ الحريّة: وشعر عنترة « أحمرُ » فَارَ فيه دمٌ غزير، مُتدفِّقًا مصوّتًا ، ولنا في معلّقته أمثلة بارزة من التعابير الدّامية (تمكو فريصته كشدق الأعلم ـ برشاش نافذة كلوْن العندم ـ خُضبَ البَنان ورأسه بالعظْلم ـ حتّى تسربَلَ بالدَّمِ . . .) و « الدّم ، في اعتقاد الجاهليين ، مكانُ الرّوح وإراقته دليلُ تشهير ، وفعلُ خطِر وحدَث جلَل لأنّه رمزُ النّسب . . . » (149) .

كانت حرب عنترة إذن تصفية حساب وتسوية وضع طالما عقّد صاحبَه وسبّب مأساته ، طلبها ليعرُج بها من الحضيض والهامشيّة الاجتماعية إلى صفّ الأحرار ويخترق بها جدار النّسب : فالموقف النابذ الذي وقفه أبوه ـ أو المجتمع القبلي ـ اقتضاه أنْ يردّ الفعل بتأكيد ذاته تأكيدًا قويًا فكانت الحرب سلاحه في ذلك وكانت قويّة شديدة شدّةَ الاستلاب الذي كان يمارَس عليه و « الإنسانُ ، في المجتمع القبلي ، يتهدّم من الدّاخل إذا لم تقبَلْه القبيلة ، لذا نراه يجهد نفْسَه ليُثبِتَ أنّه نافعٌ للعشيرة مبيّنًا الخِصال التي يتميّز بها ، وكلّها ذو جدْوى للجماعة بهدف إقناعها بقبوله عضوًا فيها » (150) .

2 / ـ عقدة اللّوْن :

ذكر عنترة سواد لوْنه أكثر من عشرين مرّة في ديوانه ، معبّرًا عن ضيقه الشديد به ، وعانى منه « حتّى وهو في قمّة شعوره بحريته ونشوة انتصاراته

---

(148) صدقي إسماعيل : « العرب وتجربة المأساة » . ط 1 . دار الطليعة ببيروت 1963 . ص 61 .

(149) استوحينا هذا الرّأي من دروس الأستاذ محمّد عبد السّلام التي ألقاها على طلبة التبريز خلال السّنة الجامعيّة 1983 ـ 1984 .

(150) يوسف اليوسف : « مقالات في الشعر الجاهلي » منشورات وزارة الثقافة . دمشق 1975 ص 32 .

(151) تبيّنُ ذلك أخبارُه في كتاب « الأغاني » (152) . وتواترت في شعره شكواه من أنّه كان « يُعَابُ » بسواد جلده وأنّه كان يُعاب عليه ذلك :

« وما وجد الأعادي فيَّ عيبًا فعابوني بلوْنٍ في العيونِ »(153)
وقد أَمْسَوْا يعيبوني بأمّي ولوْني كلّما عقدوا وحَلّوا (154)

والملاحظ أنَّ عنترة لم يلجأ كثيرًا ـ في الفخر بسواده ـ إلى الحرب مثلما فعل في الحديث عن نسبه ، بل إنَّ ذلك لم يرد عنده إلاّ بصورة باهتة وفي أبياتٍ نادرة من مثل قوله :

« لئنْ يعيبُوا سوادي فهو لي نسَبٌ يوم النّزال إذا ما فاتني النّسَبُ »(155)

وما دام اللّوْن موروثًا فإنَّ القيمَ المكتسبة لا يمكنها محوه ؛ لذلك لَمْ تنفع الحرب كثيرًا في مساعدة عنترة على تجاوز عقدة لوْنه ، فحلّ محلها الفعل الأخلاقي ، وكان المعوّضُ لسواد الظاهر بياضُ الباطن :

« تُعَيِّرُني العِدا بسوادِ جلدي وبيضُ خصائلي تمحو السّوادا »(156)

وشَعر عنترة أحيانًا بالتداخل بين ضعة نسبه وسواد لوْنه فحاول تبريرهما معًا بالجمع بين خصاله الأخلاقية وأدائه الحربي :

« سوادي بياضٌ حين تبدو شمائلي وفعْلي على الأنساب يزهو ويفخرُ »(157)

ولئن كان وضع العبوديّة قابلاً للتغيّر ، فإنَّ وضع اللّون نهائيّ ، لذلك تحقّق تأذّي عنترة منه وبات أمرًا واقعًا ، ولم يبق أمامه سوى أحد أمريْن : إمّا

---

(151) عبده حنفي : « الشعراء السّود . . . » ص 30 .
(152) انظر تعريض قيس بن زهير في « الأغاني » 238/VIII.
(153) شرح ديوان عنترة . ص 235 .
(154) نفسه . ص 235 .
(155) ص 15 .
(156) ص 65 .
(157) ص 95 .

أنْ يعبّر ـ في تقرير حِكميّ ساذج ـ عن كون السّواد ضروريًّا للحياة ملازما فيها للبياض ملازمة اللّيْل للنّهار ، وكأنّه يلتمس لوجوده الأعذار :

« يعيبون لوْني بالسّواد جهالةً ولوْلا سواد اللّيْل ما طلع الفجرُ » (158)

وإمّا أنْ يسلك سبيل التّحدّي والمكابرة متّخذًا من أمّه ـ وهي مصدر بلواه في النّسب واللوْن ـ سببًا للمفاخرة والإعلاء النّفسي :

« وأنا ابنُ سوداء الجبين كأنّها ضَبُعٌ تَرعرعَ في رُسوم المنزل »
« السّاقُ منها مثل ساق نعامةٍ والشعرُ منها مثل حبّ الفُلفُل »(159)

ويوشك سواد عنترة أن يتجاوز ، في نظرنا ، مستوى القضية الفردية ليرتقي الى مستوى الرّمز الاجتماعي : أي أنَّ وضعه قد يلتقي ، ولو جزئيًا ، بالوضع العبودي في ما قبل الإسلام عامّةً : فنحن نزعم أنَّ شعر عنترة يفي ـ بالرّغم من خصوصيات هذه الشخصيّة ـ بما يتّصل بنظرة المجتمع الجاهلي إلى العبد ونظرة العبد إلى المجتمع وإلى نفسه ، وأنّه يصوّر إذن جانبًا من وضع العبيد آنذاك وطرفًا من توقهم إلى الخروج من ذلك الوضع عن طريق لفت نظر المجتمع إليهم وجلب عطفه ورضاه أوْ خشيته باستخدام المثل الأعلى الأخلاقي لهذا المجتمع ذاته وبتذكيره به إنْ هو نسِيَهُ أوْ تناساه : فقد يُعتَبر عنترة ، من هذه الزّاوية ، رمزًا لِنضال المهمَّشين وتوقهم إلى وضع أحسن يضمن لهم منزلةً في المجتمع . وإنَّ أخبار عنترة وسيرته يؤكّدان ـ أوْ ينزعان على الأقلّ إلى التأكيد ـ على أنَّ مجتمعه قد كافأه بعضَ المكافأة ، إنْ لم يكنْ بعبلة ـ وهي رمزٌ آخر سوْف نحلّله ـ فبمنحه الحريّة وإنْ جزئيًا أو مؤقّتًا ، ممّا يفي ـ ولوْ نظريًّا ـ بأنَّ نظام العبوديّة في المجتمع العربي الجاهلي لم يكنْ نظامًا مغلقًا ونهائيًا ، بل إنّه كان يترك فُرصًا للحُريّة وفُرَجًا لها ممكنة . وإنّما مردّ هذا

(158) ص 106 .
(159) ص 172 .

إلى طبيعة هذا المجتمع وهي كوْنه مجتمعًا حربيًا ، لكلّ إنسانٍ فيه حقّ حمل السّيْف ، أي حمل أداة التّغيير ، وهو ما لم يكنْ مُتاحًا إطلاقًا ـ على حدّ علمنا ـ للعبيد في مجتمعات قديمة أخرى .

وإنَّ نظرة عنترة إلى سواده تكاد تكون ، في رأينا ، نظرة العرب ـ أو ضميرهم ـ إليه : السّواد قشرة خارجيّة بياضُها الأخلاق والفعلُ . والإنسان بفعله لا بلونه وبجوهره لا بعرضه . ولكنَّ عنترة ، لا شكّ ، كان يُفضّل ـ لو خُيِّرَ ـ الحريّة على العبوديّة والبياض على السّواد : هذا ما يفي به شعره :

« لعلَّ عبلة تُضْحِي وهي راضيةٌ على سوادي ، وتمحو صورةَ الغَضَبِ »(160)

كان عنترة يُعاني إذن من عقدتيْن : عقدة المنزلة الاجتماعية وعقدة اللوْن ، فقد كان هجينًا وكان أسودَ . ولا نضيف إلى هاتيْن العقدتيْن أنّه كان دميم الخلقة مقسوم الشفة إذْ كان يُعيَّرُ بالفلحاء ، ولا أنَّهُ كان مهمَلاً رثيث الثوْب، شكا ذلك وذكر هُزْءَ عبلة منه . ولكنه كان ، إلى هذا ، ذا نفس توّاقةٍ إلى حياة العزّ والكرامة فطلب طلبيْه المعروفيْن : الحريّة والحبّ : طلب أنْ تتبنّاه قبيلتُه وتعترف له بكامل إنسانيته وأنْ تزوّجه عبلة ، فكان ردّ الفعل الأوّل التّهكّم والاستخفاف ثم الرّفض القطعي الصّارم . ولم يجدْ عنترة أمامه سوى قوّة خارقة في جسمه وقدرة عجيبة على البطش في الحروب وعزيمة ماضية بلاها فصدقتْ ، فسلك أوّلاً سبيل إرضاء القبيلة ، واستخدم الحرب أساسًا لتجاوز وضعه المأسوي وسدِّ ثغرات ذاته ؛ وأحرزتْ عبْس بفضله الانتصارات تلو الانتصارات ؛ ولكنّها ظلّتْ تماطله فيما كان يطلب ؛ وظل هو يَجْهدُ نفسَه ويمنّيها بحياةٍ أخرى كلّما نشبتْ حرْب ، ولكنْ دون طائل . ويبدو من أخبار عنترة أنَّ أكبر مَنْ غاضهم تفوّقُهُ ـ وهو الهجين الأسود ـ وأحرجهم بلاؤه وفتوّته وشحُّوا عليه بما كانت تطمح إليه نفسه شخصان : قيْس بن زهيْر ، سيّد

(160) ص 30 .

عبس ، ومالك بن قراد ، أحد كُبرائها وعمّ عنترة . فأمّا قَيْس فقد غاضه كثيرًا أنْ ينهزم جميع فرسان عبْس ـ وقد كانت عبْس من الجمَرات ـ وأنْ يحوّل عنترة هزيمتهم إلى نصْر عند ما حاولتْ عبْس غزوَ بني تميم فانقلبتْ عليها وكادتْ تلحق بها شرّ الهزائم (161)، فعرّض بعنترة . وأمّا مالك فقد وعده بعبلة عديد المرّات ثم أخلف وكذب ، وصل إلى أنْ فرّ بابنته من وجه عنترة لخوفِهِ إيّاه محتميًا ببني شيْبان، ثم قبِل تزويجها من عمارة بن زياد العبسي لنسبة وغناه (162) بعد أنْ كان عاهد عنترة عليها أوْقات الخوف . وحسد عنترة خلْقٌ كثير ، من قوْمه ، وكرهوه وتألّبوا عليه ، وكان هو بطلاً شاعرًا فألي ذلك منهم ودافعهمْ وهجا بعضهم وذكَر ظُلمَهم كثيرًا في شعره وتنكّرهم له :

« أذكّر قوْمي ظلمَهم لي وبغْيَهم وقلّة إنصافي على القربِ والبُعْدِ »
بنيْتُ لهم بالسيْف مجدًا مشيَّدًا فلمّا تناهى مجدهم هدموا مجدي »
« يعيبون لوْني بالسّواد وإنّما فِعالهُمُ بالخبث أسودُ من جلدِي . . . »(163)

وشكا بَغْيَ عمّه ونقمَ عليه بصورة خاصّة وأفادتْنا أخباره وشعره بأنّه كان، أكثرَ أقربائه ظلمًا له وإيذاءً :

« سقَى اللهُ عمّي من يد الموْت جُرعةً وشُلَّتْ يداهُ بعد قطْع الأصابع »
« كما قاد مثلي بالمحال إلى الرّدى وعلّقَ آمالي بذيْل المَطامعِ . . . »(164)

غير أنَّ عنترة كان فطِنًا وكان يدرك تمامًا أنْ لا قيمة للفرد مُفرَدًا عن قبيلته في مجتمع قبَلي ، فلم يتجاوز ـ في البداية على الأقلّ ـ طوْر العتاب والشكوى ؛ وكان يصرّح في ذات الوقت بحبّه لقوْمه وتعلّقه بهم :

« همُ الأحبّةُ إنْ خانوا وإن نقضُوا عهدي فما حُلتُ عن وجدي وعن فِكَري »(165)

(161) انظر « الأغاني » 238/VIII.
(162) انظر شرح ديوان عنترة . ص 88 و ص 119 .
(163) نفسه . ص 71 .
(164) ص 116 .
(165) ص 100 .

« أحبّ بني عَبْسٍ وإنْ هدروا دمي محبَّةَ عبْدٍ صادق القولِ صابِرِ »
« وأدنو إذا ما أبعدوني وألتقي رماحَ العِدا عنهمْ وحَرَّ الهواجِرِ »(166)

وظلّ قومُه على ظلمِه وأصرّ هو على وفائه لهم وإسداء جليل الأعمال كلّما غمرتْهم الغمرات غير آبه بغدرهم وتنكّرهم :

« فجُورُوا واطلبوا قتلي وظلمي وتعـذيبي فـإنّي لا أمَـلُّ »
« ولا أسلو ولا أشفي الأعادي فساداتي لهم فخرٌ وفضْـلُ »
« إذا جاروا عدلنا في هواهمْ وإنْ عزّوا لعزّتهم نَذَلُّ . . . » (167)

وكانت علاقته بعبلة ـ الحسناء البيضاء بنت السّادة ـ علاقة ذلٍّ وإهانة وهُزْءٍ :

« فتضاحكتْ عجبًا وقالتْ يا فتى لا خيْرَ فيك ، كأنّها لم تحفَلِ »(168)

« وكان حبّه لها مرَضًا لا حبّا » (169) لأنّه حبّ عبدٍ لغانية حُرَّة كريمة المحتد ؛ وكان عذابًا استعذبَهُ وقبله قبولَهُ ظلْمَ أبيها : وإنَّ ظلمَ القبيلة وتمنُّعَ عبلة وجهان لشيْء واحد هو التنكّر لهذا الفارس الهجين ورفضه ؛ بل إنّنا نذهب إلى القوْل بأنَّ عبلة وقبيلتها وَحْدة لا فكاك لها رفضتْ عنترة وتأبّتْ عليه ، وبأنَّ عبلة رمزٌ مكتمل لعبْس والحبّ والحريّة : هي رمزٌ تعلّق به واتّخذَ الحربَ وسيلةً إليْه كما اتخذه وسيلة إلى الحريّة ، لذلك اقترن تصوير الحرب بذكر الحبّ في أحمى معارك عنترة ، وكان يسعى إلى قتْل السّادة الكرام أزواج الحرائر الجميلات ليتبوّأ مكانهم من العزّ والحبّ :

« وحليلِ غانيةٍ تركتُ مجدَّلاً تمكوا فريصتُه كشدْقِ الأعلم »(170)

---

(166) ص 98 .
(167) ص 160 .
(168) ص 150 .
(169) عبده حنفي : « الشعراء السود . . . » ص 32 .
(170) شرح ديوان عنترة . ص 190 .

وكانت صورة عبلة تطالعه كلّما لاحَ بارقُ نَصْرٍ في معركةٍ فاصلة :

« ولقد ذكرتُك والرّماحُ نواهِلٌ منّي وبيضُ الهندِ تقطر من دمِي »
« فوددتُ تقبيل السّيوف لأنّها لمعتْ كبارق ثغرِكِ المتبسّمِ »(171)

فالذي « لَمع » هو الحياة الكريمة ، حياة الحريّة والحبّ والقَبول الاجتماعي . وإنّ دليلنا على هذا البُعد الرّمزي لشخصية عبلة أنّ عنترة لا يتغزّل بها في شعره كما يفعل غيره من الشعراء الغَزِلين ، بل إنّه يسارع في خطابه الشعري لها إلى الحديث عن نفسه حتّى إنّ غزلياته فيها إنّما هي فخريّاتٌ بنفسه ، وحديثه عنها حديث عن نفسه ، ممّا يُؤَكّد لديْنا أنّ عبلة الحسناء الحرّة إنّما هي بوّابَةُ العالم الحُرّ الأبيض الجميل الذي كانت نفس عنترة تتحرّق على وُلوجه وتحلُم به : عبلة هي القبيلة والحياةُ الكريمة فيها ، وعنترة « لمْ تكنْ تهمّه عبلة لذاتها بقدر ما كانت تهمُّه نَفْسُه ، فالمهمّ ، في غزله بها وحديثه عنها ، هو لا هي : المهمّ هو دخوله القبيلة وحصوله على مكان لائقٍ مرموقٍ فيها » (172) وما محاولاته الصعبة اليائسة في نيْلها إلاّ محاولات لإثبات وجوده الاجتماعي .

وبينما اقترنت صورة عبلة ـ الطموح والحبّ ـ بصورة الحرب ، اقترنتْ صورةُ أمّه زبيبة ـ العبوديّة والدّونيّة ـ بصورة السّلم :

« يُنادونني في السّلم يا ابن زبيبةٍ وعند صدام الخيل يا ابنَ الأطايبِ »(173)

فهما على طرفيْ نقيض : عبلة هي المنزلة التي يتوق إليها ، وزبيبة هي المنزلة التي يتردّى فيها . الأولى تُناديه إلى أعْلى ، والثانية تشدّه إلى أسفل :

« تُعنّفني زبيبةُ في المـلامِ على الإقدامِ في يوم الزّحامِ »
« مَقـالٌ ليْس تقبله كـرامٌ ولا يرضى به غيرُ اللّئامِ »(174)

(171) نفسه . ص 191 .
(172) دروس الأستاذ محمّد عبد السّلام المشار اليها .
(173) شرح الديوان . ص 32 .
(174) ص 205 .

وإنّما نفى عنترة أمَّهُ وعصاها ـ كما كره زَوْجَهُ السّوداءَ وقلاها ـ :

« لاتذكُري مُهري وما أطعمتُه فيكون جلدكِ مثل جلدِ الأجْرَبِ »(175)

لأنّما أرادتا أنْ تحولاَ بينه وبين الحرب ، وسيلتِهِ الوحيدة في إنجاز ذاته وإثبات وجوده . وإنَّ المرأة الجاهليّة يُوجدُها البطلُ الشاعرُ ويُحبّها ويُعْلِيهَا طالمَا كان وجُودها قادحًا لجذوة الفتوّة والبطولة في نفسه ، مُذْكِيًا فيه قبس الأداء الحربيّ :

« يَقُتْنَ جيادَنا ويَقُلْنَ لستم بعولتَنا إذا لمْ تمنعـونَا »(176)

فإذا وَقَفَتْ دونَ الحرب نَفاها .

غيْر أنَّ محاولات عنترة في الإعراج الأجتماعي ـ إن صحّ القولُ ـ فشلتْ ولم يُكافأْ بالحُبِّ والحريّة إلاّ في الحكايات وضعيف الأخبار : كافأه الخيالُ الشعبيّ العطوفُ في « سيرته » فحسب في حين أنّه لم يَنَلْ بالرّغم ممّا قدَّم كبير شيْءٍ ولم يُعترف له بجليل قيمة ، ولقِيَ الإهمالَ إذْ طرده قيس بن زهير عن القبيلة وحرمه عمّه عبلة فاستخدم الحرب أيضًا ـ وسيلته الوحيدة ـ مرّةً أخرى ولكنْ لرفع المظلمة هذه المرّة ولردّ الاعتبار وإثبات وجوده السّليب بحدّ السّيْف وفي ساحات المعارك ، فكانت الحرب إعلانًا عن نفسه المقهورة كي تلمع وسط ركام الظلمة القاتمة : كانت الحربُ الحلَّ الوحيدَ الباقي لمأساة القهر الاجتماعي فكانت على حدّ قوله الموحي « إصلاحًا بالفَساد » :

« ولا عيبٌ عليَّ ولا ملامٌ إذا أصْلحتُ حالي بالفَساد »(177)

---

(175) ص 25

(176) انظر معلّقة عمرو بن كلثوم في « شرح القصائد السّبع الطوال الجاهليات » للأنباري ، المعارف . 1980 . ص 424 .

(177) شرح ديوانه . ص 57 .

كان عنترة إذن واعيًا تمام الوعي بما في الحرب من خبائث ، وكان يُدرك أنّها كريهة مُرّة ، ولكنّها كانت وسيلته الوحيدة لتغيير العالم وتسوية وضع طافح بالظّلم والمرارة :

« أثْني عليَّ بما علمتِ فإنّني سمْحٌ مُخالطتي إذا لمْ أُظْلَم »
« فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظلمي باسِلٌ مُرٌّ مَذاقتُه كطعم العَلْقم »(178)

أراد عنترة بالحرب أنْ يُذكَرَ ويُرَى ويَسْمَع النّاسُ عنه حتى يشهدوا له باستحقاق الحياة الكريمة ، فقد صرَّح أربعين مرّة في ديوانه برغبته في أنْ تسمع عنه عبلة ، أو القبيلة ، أو الخلق أجمعون ، ما هو أهلُه في صيغ مثل (« سَلِي » و « اسألِي » و « سائلي » و « هل أتاها أنّ . . . » و « يُخبرك مَن . . . ») وبرغبته في أنْ تراهُ ويراهُ غيرها في صيغ مثل (« انظري » و « عايني » و « إنْ تُغْدِفِي دوني القناع . . . ») وفي أنْ يُذكرَ لديْها . وأشهدَها على جميع انتصاراته ومآثره الحربيّة بما يرمُز إلى رغبة في الخروج من وضع الهامشيّة والإهمال والهوان :

« قفِي وانظري يا عبلَ فِعلي وعايني طِعاني إذا ثار العجاج المكدَّرُ »(179)

حارب عنترة إذنْ حروبه لينظُر العالم إليْه فيعترف به أوْ يُعيد التعرّف عليه على أساس صحيح : ألم يَقُلْ هيجل « إنَّ الحربَ إعادةُ تعارف » وإنّها « وسيلة (سلبيّة) من وسائل التواصل بين البشر » (180) ؟ أليْستِ الحربُ على حدّ قول نيتشة « شكل الوجود الملائم لِمَنْ سُلِبَ حُرّيته وطمح إلى استرجاعها » ؟

---

(178) نفسه . ص 189 .

(179) ص 97 .

(180) انظر ـ لمعرفة رأي هيجل ونيتشة وغيرهما من الفلاسفة في الحرب ـ دراسة الأستاذ فتحي التريكي : « Les philosophes et la guerre » منشورات الجامعة التونسيّة . 1985 . ص 20 .

لقد كان عنترة يعيشُ في مجتمع « لا يتقوّمُ وجودُ الفرد فيه إلّا بمقدار ما يؤكّد ذاته ، لا بمقدار ما يتنازلُ عنها » (181) ، فحاول تأكيد ذاته بالعنف . كانت الحرب عند عنترة إذن وسيلة لإطفاء الغُلّة وإشفاء النّفس من دائها :

« ولقد شفى نفسي وأبْرأَ سُقْمَهَا   قِيلُ الفوارسِ ويْك عنترَ أَقْدِمِ »(185)

وكانت ردَّ اعتبار لرجُلٍ غاضِبٍ مَوْتُورٍ طالب ثأرٍ كبير ، فجاءتْ قويّة دامية مدوِّية ، محبوبة موصوفة فوقَ ذلك بالخيْرِ لا بالشرّ : هذه صورة الحرب في شعر عنترة ، وذاك معناه ومَوْقفه منها .

مبروك المناعي

---

(181) يوسف اليوسف : « مقالات في الشعر الجاهلي » . ص 25 .

مواقف ابن جبير السّياسية من خلال رحلته

بقلم : أحمد الشتيوي

إنّ الشّهرة التي نالتها رحلة ابن جبير (1) عظيمة لأنّها نموذج فن الرّحلة عند العرب (2) ولأنّها وثيقة لا غنى عنها للمؤرخ (3) وقد استفاد منها كثير من الباحثين ، واستغلّوها في مواضيع شتّى (4) إلاّ أنهم أغفلوا موضوعًا طريفا يهمّ ابن جبير نفسه وهو موقفه من سياسة حكّام البلدان الّتي مرّ بها. وهو موضوع رأينا العناية به في هذا البحث حتّى نكشف النّقاب عن جانب آخر من جوانب أهميّة هذه الرّحلة . وقد قسّمنا عملنا حسب محاور الاهتمام التّالية : حكّام المشرق وحكّام المغرب وحكّام النّصارى .

---

(1) هو أبو الحسين محمد بن جبير الكناني الاندلسي الشاطبي البلنسي (540/1145 ـ 614/1217) كان شاعرا مجيدا ، وعمل كاتبا لدى والي غرناطة الموحّدي عثمان بن عبد المؤمن بن علي . وقد حج سنة 579/1183 ، وسنة 585/1189 وسنة 614/1217 . وفي الأولى وضع « تذكرة بالأخبار على اتفاقات الأسفار » وهو كتاب وصف رحلته ـ انظر فصل شارل پلاّ .Ibn Djubayr EI_2 Pellat)

(2) إنّه لا مِرَاء اليوم في أن رحلة ابن جبير تمثل فنّ الرحلة عند العرب . هناك إجماع على هذا الرأي .

(3) استفاد منها المؤرخون في وصف الممالك الصليبية في الشام ، وصقلية ، والحركة التجارية ، وحركة الملاحة ، ووصف الحرمين .

(4) وقع استغلال رحلة ابن جبير في عدّة مجالات مثل الحضارة واللّغة والأدب والجغرافيا .

حكّام المشرق : تركّز حديث ابن جبير على الخليفة وصلاح الدين الأيّوبي والدّيوانيين وأمير مكة وأمير الركب العراقي والخواتين .

الخليفة : لقد اقتصد ابن جبير في كلامه عنه اقتصادا يثير الاستغراب فلم يقدّم عنه إلاّ معلومات لا تتجاوز الصفحة والنّصف (5) ولكن ما قاله عنه كاف للتّعرّف على مكانته في الهرم السّياسي في ذلك الوقت .

إنّ أوّل ما جلب اهتمام ابن جبير في بغداد العاصمة السّياسيّة للأمّة الإسلامية موقع قصور العبّاسيين . فهي منفردة في الناحية الشرقية وفيها « جميع العباسيين (. . .) معتقلون اعتقالا جميلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم » ومنها « للخليفة (. . .) جزء كبير قد اتخذ فيها المناظر (6) المشرفة (. . .) والبساتين الأنيقة » .

وكان الخليفة إبّان مرور رحّالتنا ببغداد هو أبو العباس أحمد النّاصر لدين الله (7) شاهده ابن جبير راكبا في زورقه في دجلة ووصفه بقوله « أشقر اللّحية ، صغيرها كما اجتمع بها وجه ، حسن الشكل ، جميل المنظر ، أبيض اللّون ، معتدل القامة ، رائق الرّواء ، سنّه نحو الخمس والعشرين سنة ، لابسا ثوبا شبه القباء برسوم ذهب فيه ، وعلى رأسه قلنسوة مذهّبة مطوّقة بوبر أسود من الأوبار الغالية القيمة المتخذة للّباس ممّا هو كالفنك ، وأشرف متعمّدا بذلك زيّ الأتراك تعمية لشأنه » .

---

(5) انظر ص ص 202 ـ 204 من طبعة صادر ، 1964 ، وهي التي نعوّل عليها في هذه المقالة .

(6) مفرده منظرة وهي قاعة واسعة في الطبقة السّفلية أو العلوية يقيم فيها الخليفة لاستقبال الضّيوف أو الفرجة ـ انظر Dozy. Supplément 2/687

(7) هو الخليفة الرابع والثلاثون ، حكم بين 575/1180 ـ 622/1225 ـ انظر عنه فصل Al - Nāṣir : E I : 111/920 (F. Taeschner)

وتحدّث عن نظام حكومته فذكر أنّها تتكوّن من :

- نائب وزير (8) مكلّف بحضور « الدّيوان (9) المحتوي على أموال الخلافة ، وبين يديه الكتب فينفّذ الأمور » .

- قيّم يشرف على القصور .

- أمين يُلقب بأستاذ الدّار (10) مكلّف برعاية « جميع من تضُمّه الحُرْمَة الخلافية » .

- قائد عسكرية تحت طاعته « أمراء الأجناد من الأتراك والدّيلم وسواهم » .

ويبدو أنّ ابن جبير قد وقف من الخلافة العباسية موقفين متناقضين : موقف ديني أملته عليه عقيدته . وفيه لم يتردّد في إعلان تمجيده للعبّاسيين لأنّهم ينحدرون من بني هاشم (11) . فقد قال عن بغداد « لم تزل حضرة الخلافة العبّاسية ومثابة الدّعوة الامامية القرشية الهاشمية » (12) وعن النّاحية الشرقية منها « وأمّا الشرقية فهي اليوم دار الخلافة وكفاها بذلك شرفا واحتفالا »

(8) عن وظيفة الوزارة وتطوّرها انظر ابن خلدون : المقدمة ، الباب 3 الفصل 34 في مراتب الملك والسلطان وألقابها (الوزارة ص ص 419 ـ 425) طبعة الكتاب اللبناني ، 1967 .

(9) يطلق هذا المصطلح على عدّة وظائف منها : ديوان الرسائل والكتابة ، وديوان الأعمال والجبايات ، والوظيفة الأخيرة هي المقصودة هنا . انظر عنها المرجع اعلاه ص ص 430 وما بعدها .

(10) هذا تحريف شائع للقب « إسْتِدَّار » وهو لقب على الذي يتولّى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه وتمثّل أوامره فيه وهو مركب من لفظتين فارسيتين إستذ ومعناها الأخذ ودار ومعناها المْمسك . فأدغمت الذال في الدال . وقد يقال سِتدار . والمتشدّقون من الكتاب يقولون : أُستدار وربما قالوا : أستاذ الدار ، ظنا منهم أن المراد حقيقة الدار في اللفظ العربي ، وأُستاذ بمعنى السيد ولذلك يقولون « استادار العالية » أو « أستاذ الدار العالية » وهو خطأ صريح ـ انظر عنه القلقشندي : صبح الأعشى القاهرة د . ت . 457/5 .

(11) هم سلالة هاشم بن عبد مناف ، الجدّ الأعلى للرسول محمد ـ صلعم ـ انظر عنه فصل : Hashim EI2 : 111/267 (W. Montgomery Watt)

(12) ص : 19م .

(13) . وموقف سياسي مستمد من وضعية هذه الخلافة . فهي ضعيفة ، وأصحابها « معتقلون » وليس لهم من السّلطة إلّا اللقب ممّا يدفع الى التهاون بشأنهم وإهمال ذكرهم وفي رأينا أنّ في إشارة ابن جبير الى الدعاء في الخطبة لأستاذ الدار ، وتعجبه من قائد العسكرية في أبهته وأملاكه ، وتركه الدعاء للخليفة ما يدلّ على أنّ هذا الأندلسي لا يعترف بالخلافة العبّاسية سياسيا .

صلاح الدّين الأيّوبي (14) : كادت القطيعة تقع بين المغرب والمشرق أثناء حكم الفاطميين (15) الذين فرضوا على الحجيج المغاربة دفع مكس العبور (16) بمصر ، حتّى أباح الفقهاء ترك هذه الفريضة والى ذلك أشار ابن جبير في قوله « فمن يعتقد من فقهاء الأندلس إسقاط الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح (. . .) فراكب هذا السّبيل راكب خطر ، ومعتسف غرر » (17) .

وعندما قضى عليهم صلاح الدّين ، وطهّر منهم البلاد ، واستقام له الحكم في مصر أعاد الاعتبار للحجيج . ولا شكّ في أنّ الخبر بلغ الى المغرب العربي وانتشر في أصقاعه وسمعه الخاصّ والعامّ واطمأنت له النفوس . وممّا يدلّ على ذلك ما ورد في رحلة ابن جبير . فإنّ هذا الرحّالة ما كاد يدخل الإسكندرية حتّى انبرى يثني على صلاح الدّين ويعدّد مناقبه ويتتبعُ أخباره .

---

(13) ص : 202 .

(14) هو يوسف بن أيوب بن شادي (532/1137 ـ 589/1193) مؤسس الدولة الأيّوبية في مصر والشام ، ومحارب الصليبيين ، انظر عنه الزركلي : الاعلام 9/291 ـ 2 .

(15) تنسب دولتهم الى فاطمة بنت الرسول وزوج علي بن ابي طالب . وينسبها المؤرخون العرب قديما الى مؤسسها عبيد الله المهدي سنة 296/909 ، في افريقية (تونس) ثم انتقلت الى مصر سنة 362/972 ، لمحاربة العبّاسيين حتى وقع القضاء عليها سنة 567/1171 . انظر عنها فصل : Fatimides. EI 2 : 870 - 884 (G Marçais) وعن نشأتها : F. Dachraoui : le califat fatimide au Maghreb; S.T.D. ; 1981

(16) هذا المكس فرضه الفاطميون على المغاربة عقابا على ولائهم للعبّاسيين وهو « سبعة دنانير ونصف دينار من الدنانير المصرية . . . على كل رأس » وهو مقدار عظيم حسب ابن جبير ، الرحلة ص 20 . ولم يكف الفاطميين هذا العقاب فعضدوه بإرسال أعراب الصعيد وتسريحهم لمهاجمة إفريقية . وكان من الأعراب ما تحدّثت عنه كتب التاريخ من تخريب العواصم .

(17) ص 55 ، وأيضا 31 .

ولم يتوقف على الإشارة بفضله إلاّ حين خرج من الشام . فجاءت رحلته وثيقة من أحسن الوثائق عنه . ويمكن توزيع المعلومات الكثيرة عنه الى ثلاثة محاور هي التالية :

- إبطال المكوس : ذكر ابن جبير أنّ الفاطميين قد نوّعوا المكوس فمنها أداء العبور وهو مكس وظفوه على الحجيج المغاربة . فما من حاجّ دخل مصر إلاّ وأُلْزِم بدفع هذا الأداء فإذا وصل إلى عيذاب (18) ولم يفعل « يتناول بأليم العذاب (. . .) وربّما اخترع له من أنواع التعذيب التعليق من الأنثيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة » وحتّى إن أفلت ووصل الى جُدّةَ (19) بدون علامة الأداء فإنّه يُعذّب أيضا (20) . وقد كان هذا الأداء يُدفع « باسم ميرة (21) مكة والمدينة » . وكان أوّل عمل قام به صلاح الدّين إعفاء الحجاج من هذا الأداء وعوّضه بما « يقوم مقامه من أطعمة وسواها وعيّن مجبى (. . .) وتكفّل بتوصيل جميع ذلك الى الحجاز » (22) .

ومنها ما وُظّف على الرعية مثل الضرائب التي تستخلص « على كلّ ما يباع ويُشرى ممّا دقّ وجلّ حتى كان يُؤدّى على شرب ماء النيل » (23) فألغاها صلاح الدّين جميعا ووسّع على النّاس .

---

(18) أشهر مدينة تجارية على البحر الأحمر في ذلك الوقت فمرساها « من أحفل مراسي الدّنيا » حسب تعبير ابن جبير ، انظر الرحلة ص ص 47 ـ 50 . وقد وقع تخريب هذه المدينة ولم يبق لها أثر انظر عن ذلك فصل : Aydāb : EI 2 : 1/805 - 6 (H.A.R. Gibb) .

(19) كان الحجاج المغاربة والمصريون يركبون البرّ الى عيذاب ثم يركبون البحر الأحمر الى ميناء أبْحَر الواقع على جزيرة العرب « وهو على بعض يوم من جدّة ، وهو من اعجب المراسي وضعا » (الرحلة ص 51) ثم ينتقلون الى جدّة حيث تتمّ مراقبة من تأخر عن دفع مكس العبور .

(20) ص 31 .

(21) هي الطّعام يجلب للنفس أو للبيع ، والمقصود هنا ما التزم بدفعه صلاح الدين الى أمير مكّة .

(22) ص ص . 30 ـ 31 ، وقد ذكر ابن جبير أن العوض هو ألفا دينار وألفا إردب من القمح حاشا إقطاعات بصعيد مصر وباليمن . انظر الرحلة ص 55 . وذكر أبو شامة بأنّ أمير مكّة كان يأخذ من حاجّ المغرب رسما على عدد الرؤوس فعوضه له صلاح الدين بثمانية آلاف إردب قمح ، وتمّ ذلك سنة 572/1176 ـ انظر كتاب الروضتين في اخبار الدّولتين طبعة دار الجيل ـ بيروت د. ت، 3/2 .

(23) ص 31

وَلَمْ يُبْقِ هذا السلطان من مواردَ لبيت المال إلّا الجزية على اليهود والنصارى وزكاة العين . وكان لا يأخذ منها « سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان » الباقية يضيفها الى الأوقاف (24) .

توفير المرافق : اعتنى صلاح الدّين بتعمير بلاده وتوفير المنشآت الاجتماعية المختلفة فيها . وأوّل ما اهتمّ به هو إعادة بناء القاهرة بعد التخريب الّذي لحقها بسبب الحريق الّذي أحدثه فيها الفاطميون أثناء الحرب بينهم وبين صلاح الدين (25) وقد شاهد ابن جبير أعمال الترميم والبناء فيها على قدم وساق ، ولاحظ أنّ « أكثرها (. . .) مستجدّ » (26) . كما اعتنى بتحصينها فبنى القلعة الشهيرة لتكون مسكنه ومقرّ حكومته ومد سورًا بين مصر (27) والقاهرة (28) وقد ترك ابن جبير وصفا موجزًا ودقيقا لأعمال البناء فقال « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتّصل بالقاهرة حصين المنعة يريد السلطان أن يتّخذه موضع سكناه (29) ويمدّ سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . والمسخّرون في هذا البنيان والمتولّون لجميع امتهاناته ومؤونته العظيمة كنشر الرّخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المُحدق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق يُنقر بالمعاول نقرا في الصّخر عجبًا من العجائب

---

(24) ص 16 .

(25) وقع ذلك سنة 1169/564 ، ودام الحريق شهرين ـ انظر الرحلة ص 29 وابن خلدون : العبر 619/5 .

(26) ص 29 .

(27) تسمّى أيضا الفسطاط ، وهي من تأسيس عمرو بن العاص ، انظر عنها فصل Mist : EI. 111/590 - 1 (A. J. Wensinck) .

(28) هو اسم المدينة التي بناها جوهر الصقلّي للفاطميين قريبا من مصر (الفسطاط) وعندما بنى صلاح الدين سورا بين المدينتين غلب اسم القاهرة ، انظر الفصلين : Al-Kāhira : EI 2 : IV/442-64 (J.M. Rogers) et le Caire : E.I. : 1/835-46 (C.H. Becker) J. Jomier) .

(29) تُسمى هذه القلعة أيضا قلعة الجبل لأن بناءها على جبل المقطم بين القاهرة ومصر والنيل والقرافة ، وهي قلعة عجيبة واسعة حصينة اتخذها الملوك بعد صلاح الدين مقرّ حكمهم وسكناهم . انظر عنها المقريزي : الخطط 201/2 ـ 207 .

الباقية الآثار ، العلوج الأساري من الرّوم وعددهم لا يُحصى كثرة (30) » (31) .

كما بنى هذا السلطان المدارس والمساجد والجوامع ووفّر لها جميعا الأموال اللاّزمة بتعيين الأوقاف ووظّف عليها قيّمين . فما منها مؤسّسة « إلاّ وفضل السّلطان يعمّ جميع من يأوي إليها ويلزم السّكنى فيها » (32) . كما عمّر - في القاهرة - مارستانا فيه قسم للنساء ، وقسم للرّجال (33) . واعتنى خاصة بأبناء الفقراء والأيتام وتعليمهم فأمر « بعمارة محاضر (34) ألزمها معلمين » وأجرى عليهم « الجراية الكافية لهم » (35) .

وكانت عناية صلاح الدّين بتوفير المرافق أوسع من أن تقتصر على رعيته في مصر والشّام . فلم يهمل تدبير شؤون الغرباء الواردين على بلده من سائر الأقطار الإسلامية ، وخاصّة أهل الطلب والتعبّد الّذين « يفدون من الأقطار النّائية » . فإن دخل الواحد منهم الإسكندرية وجد « مسْكنا يأوي إليه ومُدَرِّسا يعلّمه الفنّ الذي يريد تعلّمه ، واجراء يقوم به في جميع أحواله ، واتسع اعتناء السّلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمّون فيها متى احتاجوا الى ذلك . ونصب لهم مارستانا » (36) . أمّا إذا وصل الغريب الى القاهرة فإنّه يجد أيضا المأوى والمعاش والرّعاية الكاملة (37) .

---

(30) مصدر هؤلاء الأسارى هو الحرب بين صلاح الدين والصّليبيين . وكثرتهم تدلّ على انتصارات صلاح الدّين . وقد كانت عادة تشغيل الأسارى في الأعمال الشاقة متبعة عند المسلمين والنّصارى .

(31) ص 25 .

(32) ص 27 .

(33) ص 15 .

(34) مفرده محضرة ، وهو مصطلح خاصّ بابن جبير . ويبدو أنّه يقصد بها المدرسة يُلزم الصّبيان بحضورها لنوع خاص من التعليم . انظر الرحلة ص ، 27 ، 245 ، 250 ، 306 .

(35) ص 27 .

(36) ص 15 .

(37) ص 24 .

واكثر الغُرباء حظوة عند صلاح الدّين هم المغاربة . فإنّه ـ وإن لم يقصّر في الإحسان لسائر المسلمين ـ مكّن المغاربة من بعض الميزات دون سواهم . فاهتمّ بتسهيل حجّهم ، وأمّنهم ، ووفّر لأبناء السبيل منهم المعاش فعيّن « خبزتين لكل إنسان في كل يوم بالغاً ما بلغوا ، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنسانا أمينا » (38) وخصّص للطلبه منهم المسجد الطولوني (39) « يسكنونه ويحلّقون فيه وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر (. . .) وجعل أحكامهم إليهم » (40) .

ـ الجهاد : هذه أهمّ منقبة اتّصف بها صلاح الدّين وردّد ابن جبير ذكرها الحسن . فقد وقف هذا السلطان حياته على حرب الصّليبيين ، لطردهم من بلاد الشام وخاصّة بيت المقدس (41) . وتوخّى لتحقيق هذه الغاية ثلاثة مذاهب (42) هي الدفاع والهجوم والمطاردة .

أمّا المذهب الأوّل فجسّمه في تحصين القاهرة ضدّ كل هجوم مُباغت ببناء سور . وفي تسهيل تنقل الجنود منها إلى الإسكندرية أثناء فيض النّيل وامتناع السّبل ببناء قناطر عظيمة . وقد وصف ابن جبير هذا البناء بإعجاب

---

(38) وقد ذكر ابن جبير أنّ عدد الخبزات يمكن أن يصل الألفي خبزة (2000) يوميا وهذا يعني أن عدد المغاربة المتحصلين على هذا المعاش فقط قد يصلِ الى الألف . كما ذكر أنّ بعض الدسّاسين نصح صلاح الدين بابطال هذا الإحسان عن المغاربة لأنهم ليسوا في حاجة اليه ، فرفض السلطان ذلك . انظر الرحلة ص ص 16 ـ 17 .

(39) بناه أحمد بن طولون (ت 270/884) مؤسس الدولة الطولونية بمصر ، وكان المسجد كبيرا وضخما انظر عنها : EI_2 : Ahmad B. Tulun (C.H. Becker)

(40) ص ص 26 ـ 27 .

(41) وتسمّى أيضا القدس ، واكثر استعمالا ، فتحها المسلمون سنة 17/638 ، وهي ثالثة المدن المقدسة بعد الحرمين . احتلّها الصليبيون في 7 شعبان سنة 492/15 جويلية 1099 وبعد حروب ومفاوضات استردها صلاح الدين في شعبان سنة 582/نوفمبر 1187 . انظر عنها فصل : Al-Kuds : EI2.V/311 - 345 (O. Grabar)

(42) استعرنا هذا المصطلح الحربي من ابن خلدون . انظر المقدمة ، الباب 3 الفصل ، 37 في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها .

كبير فقال « ومن مفاخر هذا السّلطان وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين القناطرُ التي شرع في بنائها بغربي مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها ، بعد رصيف ابتدىء به من حيز النيل بإزاء مصر كأنّه جبل ممدود على الأرض ، تسير فيه مقدار ستة أميال حتّى يتّصل بالقنطرة المذكورة ، وهي نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسيّ القناطر . والقنطرة متصلة بالصّحراء التي يُفضى منها إلى الإسكندرية . له في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعدادًا لحادثة تطرأ من عدوّ يدهم جهة ثغر الإسكندرية عند فيض بالنيل وانغمار الأرض به (43) وامتناع سلوك العساكر بسببه . فأعدّ ذلك مسلكًا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك » (44) .

وأمّا المذهب الثاني فتمثّل في محاصرة المدن الصليبية محاصرة دائمة . وقد حدّثنا ابن جبير عن الجهد الذي كان يبذله هذا السلطان في استرداد حصن الكرك الاستراتيجي (45) . ورغم أنّه لم يستطع تحقيق انتصار على الصّليبيين في هذا الحصن لتألّبهم عليه من كلّ أَوْب فإنّه لم يضيّع الفرصة فانتهز غرّتهم

---

(43) كان المصريون يراقبون فيض النيل لخطره على الفلاحه واثر ذلك على الجباية وكان لهم مقياس تضبط به زيادته ، وهو يوجد بجزيرة الروضة في النيل ، وصفه ابن جبير بدقة وحدّد مدة الفيض بقوله « واستشعار ابتدائه في شهر يونية (جوان) ومعظم انتهائه أغشت (أوت) وآخره اول شهر اكتوبر » انظر الرحلة ص ص 29 ـ 30 .

(44) ص 27 .

(45) هذا الحصن أخطر حصون الصّليبيين على المسلمين لأنه كان يهدد ذهابهم الى مكة والمدينة وهو السبب في تعطل المسلك البرّي بين مصر والبقاع المقدسة . وقد وصفه ابن جبير بقوله « من أعظم حصون النصارى ، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البرّ ، بينه وبين القدس مسيرة يوم أو أشف قليلا » انظر الرحلة ص 260 . ووصفه ابن بطوطة عيانا بقوله « هو من أعجب الحصون وأمنعها ، وأشهرها (. . .) الوادي يطيف به من جميع جهاته ، وله باب واحد ، قد نُحت المدخل اليه في الحجر الصّلد ، ومدخل دهليزه كذلك ، وبهذا الحصن يتحصن الملوك » انظر رحلته ، تحقيق الكتاني ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1975 ، ج 1/ص 129 . ونلاحظ أن هذا الحصن كان مصدر هجومات متكررة على القوافل . ولم يستطع صلاح الدين استرداده ولم يتمكن من ذلك الا أخوه العادل سنة 1188/584 . انظر عنه : : Hisn Al - Karak EI2 (D. Sourdel) IV/633 - 4 .

« ودَهم مدينة نابلوس (46) وهجمها بعسكره فاستولى عليها . وسبى كلّ من فيها وأخذ إليها حصونا وضياعًا » (47) .

وأمّا المذهب الثالث فركّزه على مراقبة حركة الصّليبيين وتنقّلهم لأنّه أدرك أنّهم يرومون التّوسّع وتثبيت قدمهم في بلاد المسلمين ، ويسعون الى تطويق التجارة التي كانت أهمّ مورد من موارد اقتصاد العرب . وقد حدّثنا ابن جبير عن إحدى محاولاتهم للتّسرّب من الحدود التي فرضها عليهم صلاح الدين قصد الوصول إلى الحرمين . ذلك أنّهم كوّنوا مجموعة من الفدائيين في حصن الكرك ودفعوهم نحو الحرمين لإخراج الرّسول ـ صلعم ـ من قبره وترويع المسلمين حجيجا وتجارا وأهالي. وقد استطاع هؤلاء التّوغّل في البحر الأحمر « وأحرقوا فيه نحو ستّة عشر مركبا، وانتهوا الى عيذاب فأخذوا فيها مركبا كان يأتي بالحجاج من جُدّة ، وأخذوا أيضا في البرّ قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يُحْيُوا أحدًا . وأخذوا مركبين كانا مُقْبلين بتجّار من اليمن وأحرقوا أطعمة كثيرة (. . .) واحدثوا حوادث شنيعة » (48) وكان صلاح الدّين وقتئذ بالشّام . فما كاد يبلغه الخبر ويسمع به حتّى أمر حاجبه

---

(46) مدينة صليبية سعى صلاح الدين الى استردادها من الصليبيين مرات لكنه لم يتمكن من ذلك بصفة نهائية ـ استرجعها المسلمون سنة 1202/598 ،
انظر عنها فصل : Nābulus : EI : 111/860 - 1 (F. Buhl)

(47) ص 272 .

(48) صدق ابن جبير ما اشاعه المهاجمون من أنهم كانوا يقصدون المدينة المنورة لإخراج الرسول من ضريحه ـ انظر الرحلة ص 34 . والحقيقة ان الهجوم كان بدافع اقتصادي . فقد أدرك صاحب حصن الكرك « روني دي شاتيون Renaud de Chatillon » أهمية التجارة في قوة صلاح الدين فجهز هذه الحملة سنة 1182/578 قصد التعرف على مدى احتياط المسلمين . انظر عن ذلك فصل : Karak .

المعروف بلؤلؤ مع انجاد من المغاربة البحريين (49) فلحقوا العدو ، وهو قد قارب النجاة بنفسه ، فأُخذوا عن آخرهم » (50) .

هذه المناقب الثلاثة التّي أطال ابن جبير في الحديث عنها ، وبعض المناقب الأخرى التي اكتفى فيها بالإشارة مثل الحِلْم والكرَم والعدل (51) هي السبب في تعلّق هذا الرحّالة الأندلسي بصلاح الدين الى درجة العشق . فلم يتردّد في اعتباره « محيي دولة (52) » (53) وصاحب « المفاخر » (54) والمآثر (55) ولم يملّ من تكرار عبارة « السّلطان العادل » (56) . وقد بلغ به الحبّ الى تنزيهه عن كلّ خطإ مهما كان حقيرا . وحتّى عندما لحقه أذى الدّيوانيين أثناء التمكيس لم يحمّله أيّة مسؤولية بل دافع عنه وبرّر موقفه بقوله « وهذا أمر يقع القطع على أنّ صلاح الدين لا يعرفه . ولو عرفه لأمر بقطعه ، كما أمر بقطع ما هو أعظم منه ، ولجاهد المتناول له » (57) . بل لقد ذهب الى تقديسه ، فلم ير ضيْرًا ولم يحسّ بحرج في التحذير من اتهامه بالزّلل فيقرّر بأنّه لا يجوز أن « يُسعى فيما يُسيء الذكر بمن قد حسّن اللّه ذكره ، ويقبّح المقالة في جانب من أجمل الله المقالة عنه » (58) .

---

(49) هذه الاشارة تؤكد أن المغاربة هبوا لنجدة صلاح الدين في الجهاد ، رغم ما كانوا عليه من جهاد في الأندلس ، وهذا ما يفسر حبّ صلاح الدين لهم .

(50) وذكر ابن جبير أنّه شاهد أفراد العدو في الإسكندرية « راكبين على الجمال ووجوهم الى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق » وذكر أنهم « قُتلوا وأسروا وفُرق (منهم) على البلاد ليقتلوا بها ووجه منهم الى مكة والمدينة » انظر ص ص 34 ـ 35 .

(51) ص ص 270 ـ 271 .

(52) يقصد أنه أحيى الدّولة العبّاسية .

(53) ص 25 .

(54) ص 26 ، 27 .

(55) ص 27 .

(56) ص 14 ، 16 ، 23 ، 31 ، 38 ، 39 ، 45 ، 55 ، 56 ، 73 ، 80 ، 124 ، 149 ، 219 ، 222 ، 257 ، 270 ، 272 .

(57) ص 38 وأيضا ص 14 .

(58) ص ص 38 ـ 39 .

ولم يكن حبّ ابن جبير لصلاح الدّين مجرّد تقوّل أو ادّعاء أو مبالغة أو إسراف ، ولم يكن لهجه باسمه (59) واسترساله في تعديد مناقبه وحرصه على تتبّع أخباره ، ورفعه إلى درجة الكمال ، وتفضيله على جميع حكام المشرق العربي ، حتّى على الخليفة ، لِهوًى في النفس أو بغية صِلة أو لتحصيل مكانة . فهو لم يلاق السّلطان ولم يره ولا وقعت بينهما مراسلة أو وُصلة . وإنّما أعجب هذا الأندلسي بسلطان فذٍّ حقّا ، انفرد بصفات في الحكم نادرة وبحبّ للعدل عجيب حتّى « أنّ الناس في بلاده لا يخلعون لبَاس الليل تصرّفًا فيما يعنيهم ، ولا يستشعر لسواه هيبة تثنيهم » (60) وكفل الغرباء بتوفير المعاش وتأنيسهم وتسكين نفوسهم . وأعزّ المسلمين بإعلان الجهاد وإحياء سُنّته وتسهيل الحجّ وتأمين السّبل وضمن التجّار حتّى كادت تضيق بقوافلها المسالك (61) فكيف لا تخفق « الألسنية بالتأمين عليه من كلّ مكان » متى ذُكِرَ ؟ (62) .

الدّيوانيون : كانت عملية تمكيس المسافرين في الإسكندرية وقوص وغيرهما من المدن المصرية قد جلبت اهتمام ابن جبير . فأورد عنها معلومات تفيد في معرفة طريقة التمكيس وموقف ابن جبير منها (63) .

---

(59) ذكره في أكثر من 20 صفحة .

(60) شاهد ابن جبير ذلك في الإسكندرية والقاهرة . انظر الرحلة ص 17 ، 31 .

(61) لقد عرفت التجارة في عهد صلاح الدين ازدهارا عظيما كان ابن جبير أحد شهود العيان عليه انظر الرحلة ص ص : 40 ، 41 ، 42 ، 43 ، 44 .

(62) ص 73 ، 80 ، 124 .

(63) تحدث عن التّمكيس في الإسكندرية ص ص 13 ـ 14 وبإخميم وقوص ومنية ابن خصيب من الصعيد المصري ص ص 38 ـ 39 .

كانت عملية التّمكيس تتمّ بصفة دقيقة خاصّة في الإسكندرية أعظم المراسي المصرية (64) فما أنّ يرسو مركب حتّى يخضع المسافرون فيه الى مراقبة صارمة تتمّ حسب المراحل التّالية :

- طلوع الأمناء لتقييد السلع المجلوبة وأمتعة المسافرين وتدوين أسمائهم وصفاتهم وأسماء بلادهم .

- استجواب أحد المسافرين الثقات المطّلعين على أحوال المركب والمسافرين فيه ، فيسأله رئيس الدّيوان (65) ثم القاضي ثم أهل الدّيوان ثم جماعة من حاشية الرئيس . والغاية من هذا الاستجواب مقارنة قول الشاهد بما يقول المسافرون .

- إنزال السلع والأمتعة إلى الدّيوان .
- استحضار التجار والمسافرين لتفتيشهم واحدًا واحدًا .
- استحلافهم .
- استخلاص المكس .
- إطلاقهم .

ولا تختلف طريقة المراقبة للتمكيس في سائر الدّواوين كثيرا عمّا يقع في الإسكندرية .

---

(64) لقد فوجىء ابن جبير بالديوانيين يسيئون الى المسافرين في الإسكندرية فلم يذكر شيئا عن مرساها . الا أن ابن بطوطة قال عنه سنة 726/1326 « لها المرسى العظيم الشأن ولم أر في مراسي الدنيا مثله إلا مما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفاربسُرداق ببلاد الترك ، ومرسى الزيتون ببلاد الصّين » انظر رحلته 37/1 . وهذا يعني أنها واحدة من المراسى الخمسة في العالم . وقول ابن بطوطة حجّة لأنه تعرف على هذه المراسي مباشرة .

(65) ورد في الرحلة : السلطان ، قال ابن جبير « فطيف به مرقّبا على السلطان أولا ثم القاضي . . . » وهو يقصد إمّا الوالي أو رئيس الديوانيين وهذا ما رأيناه أقرب الى السّياق .

وقد وقف ابن جبير من الدّيوانيين موقف استنكار وتنديد . ولم يكتف بالتعبير عن شعور المرارة والألم فقط بل حدّد الأسباب ، وهي التالية :

ـ عدم مراعاة شروط أداء المكس وهي مراعاة محلّه ، وحلول الحول وإدراك النّصاب .

ـ سوء معاملة المسافرين بالتّكشّف على أمتعتهم وإدخال الأيدي « إلى أوساطهم بحثا عمّا عسى أن يكون فيها » و « فحصا عمّا تأبّطوه أو احتضنوه من دراهم أو دنانير » وبإلزامهم على الأيمان المغلّظة عمّا يملكون . وأكثر ما هزّ شعور ابن جبير أسلوب استكشاف ما في الغرائر والأعكام ، وقد كشف عن ألمه في قوله « ومن أشنع مَا شاهدناه (. . .) خروج شرذمة من مَرَدة أعوان الزّكاة ، في أيديهم المِسَال الطويلة ذوات الأنصبة (. . .) فلا يتركون عكمًا ولا غرارة إلاّ ويتخلّلونها بتلك المِسَال الملعونة مخافة أن يكون في تلك الغرارة أو العكم اللّذين لا يحتويان سوى الزّاد شيء غُيِّب عليه من بضاعة أو مال وهذا أقبح ما يؤثر في الأحاديث الملعّنة ، وقد نهى اللّه عن التجسّس . فكيف عن الكشف لما يُرجى ستر الصّون دونه من حال لا يريد صاحبها أن يُطَّلَع عليها إمّا استحقارًا أو استنفاسًا دون بخل بواجب يلزمها » .

ـ عدم احترام الحجيج وتمييزهم عن التجّار . فكيف يُحملون على دفع أداء الزّكاة والحال أنّهم « لم يستصحبوا سوى زاد لطريقهم » ؟ بل كيف لا يقع « تجنّب اعتراض الغرباء المنقطعين ممّن تجب الزكاة له لا عليه » ؟

إنّ هذه الأسباب كافية في نظر ابن جبير للدعوة إلى جهاد أهل الدّيوان وهو يعتبر « أن جهادهم من الواجبات لما يصدر عنهم من التعسّف وعسير الإرهاق وسوء المعاملة » وهي مصادر إهانة للحجاج خاصة « تذكّرهم أيّام المكوس » التي كانت إحدى معرّات الفاطميين . ولهذا لم ير أهلا للقيام بهذا الواجب الدّيني إلاّ صلاح الدّين (66) .

(66) كان ابن جبير يعتقد أن صلاح الدين لم يكن على بينة مما يشين ملكه من سوء تصرف الديوانيين إزاء الحجيج ، وكان يعتقد أنه لو علم به لحاربهم وقضى عليهم . انظر الرحلة ص 14 ، 38 ، 39

أمير مكة : هذا الأمير هو مُكثر بن عيسى (67) . وظيفته حماية الحرمين ، والسّهر على راحة الأهالي والمجاورين والحجيج . إلاّ أنّه كان « ممّن يعمل غير صالح » (68) . ولعلّه لهذا السبب شهّر به ابن جبير ونفّر منه . فقد عُرف بسوء الأدب إزاء الحجيج « فمتى أبطأت (. . .) الوظيفة (69) المترتبة [له] عاد هذا الأمير الى ترويع الحاج وإظهار تثقيفهم (70) بسبب المكوس » وصادف أن لم تصل في موسم 579/1184 في وقتها ، فما كان منه إلاّ أنّ منع الحجيج من الخروج من جُدّة (71) الى مكّة . وقد وصف ابن جبير ذلك بقوله « واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جُدة . فأُمسكنا بها خلال ما خوطب مكثر الأمير المذكور ، فورد أمره : أن يَضْمَن الحاج بعضهم بعضا ، ويدخلوا الى حرم الله . فإن ورد المال والطعام اللّذان برسمه من قِبل صلاح الدّين [أرجع لهم ضمانهم] (72) وإلاّ فهو لا يترك ما له قِبل الحاجّ . هذا لفظه » ويعلّق ابن جبير على هذا السّلوك الأرعن بقوله « كأنّ حرم الله ميراث بيده ، محلّل له اكتراؤه من الحاج . فسبحان مغيّر السّنن ومبدّلها ! » (73) .

وبما يؤكد هذا المعتقد أنه في حجته الثانية سنة 585/1189 ، عندما تعرّض في الإسكندرية الى سوء المعاملة من الديوانيين أيضا قال فيه قصيدة تتكون من 54 بيتا يمدحه فيها وينصحه بمقاومة ظلم الديوانيين . انظر القصيدة في رحلة العبدري ـ تحقيق محمد الفاسي ، الرباط 1968 ص ص 94 ـ 96 .

(67) آخر اشراف مكة الأمراء (ت 597/1201) تحدث عنه ابن جبير ووصف ابهته وبعض أعماله في خدمة الكعبة . انظر عنه الرحلة ، الفهرس ، وأيضا الزركلي ، الأعلام 211/8 .

(68) ص 57 .

(69) هذا استعمال خاصّ بابن جبير وهو يعني به المال والطعام اللذين يحملهما صلاح الدين الى أمير مكة سنويا . انظر 2/821 Dozy. Supplément .

(70) التثقيف ، هو التسوية . والمقصود هنا تأديب الحجاج بحبسهم وسجنهم انظر Dozy. Supplément : 1/160 .

(71) كانت جدّة محلّ تجمّع الحجيج المصريين والمغاربة ، وفيها تتم مراقبة دفعهم مكس العبور الذي عوّضه صلاح الدين بالميرة .

(72) لم ترد هذه الجملة في جميع النسخ المطبوعة ، وأضفناها ليستقيم المعنى .

(73) ص 54 ، ويلاحظ ابن جبير أنّ أمير مكّة لم يُخلّ سبيل الحُجّاج فينفصلون عن جُدّة إلاّ بعد أن ضمنوا بعضهم بعضا وثبتت اسماؤهم في زمام عند قائد جدّة . انظر الرحلة ص 57 .

أمير الركب العراقي : كان الخليفة العبّاسي يكلّف سنويا أميرا من أمرائه لمصاحبة ركب الحاج العراقي (74) وتمثيله في موسم الحجّ . وقد تحدّث ابن جبير عن هذا الأمير واهتم خصوصا بمضربه . فوصفه بدقّة تدلّ على إعجابه به . فذكر أنه مضرب « أحدق به سرادق كالسّور من كتّان » وللسّرادق « أبواب مرتفعة كأنّها أبواب القصور المشيدة يُدخل منها إلى دهاليز وتعاريج ، ثم يُفضى منها إلى الفضاء الذي فيه القباب » . والقباب « كلّها سواد في بياض ، مرقّشة ملوّنة كأنّها أزاهير الرّياض » ولم يُخْفِ رَحّالتنا دهشته من هذا الأمير ومسكنه فكأنّه « ساكن في مدينة قد أحدق بها سورها ، تنتقل بانتقاله وتنزل بنزوله » .

ولئن لم يُفْصِحْ ابن جبير عن رأيه في أبّهة الأمير وعظمته ، ولم يَقُلْ كلمته بصراحة فإنّنا نرجّح أنّه يميل الى الاستهجان . هذا ما يوحي به قوله « وهي من الأبهات الملوكية (. . .) التي لم يُعْهد مثلها عند ملوك المغرب » وقوله الآخر « [وَهذا] ممّا يدلّ على سعة الأحوال وعظيم الانخراق في المكاسب والأموال » . (75)

الخواتين (76) : لقد وجد هذا الرحالة الأندلسي ما يدعو إلى الإعجاب بسيرة هؤلاء النّسوة وما يبرّر حديثه عنهنّ في رحلته . ذلك أنهنّ تميّزن بالإحسان للمسلمين . فهذه خاتون ، رغم سنّها الصّغيرة الّتي لم تتجاوز خمسة وعشرين عامًا ، لم تأْلُ جهدها في « أفعال من البرّ كثيرة في طريق الحاجّ : منها سقْي الماء للسبيل ، عيّنت لذلك نحو الثلاثين ناضحة ، ومثلها

(74) سنّ الرّسول ـ صلعم ـ امارة ركب حجيج المسلمين . ثم استمر الخلفاء على هذه السنة . وكان من وظائف أمير الركب نقل كسوة الكعبة التي يعدّها الخليفة ، وحماية الحجيج ، وتمثيل الخليفة في مراسم الحج . انظر عنه فصل : Amir Al - Hādj : EI2. 1/456 (J. Jomier)

(75) ص ص 153 ـ 154 .

(76) مفرده خاتون . لفظة أعجمية تعني السيّدة وهو لقب يطلق على ملوك الترك وقريباتهم . انظر فصل : Khātūn : EI2 - IV/1164 (J.A. Boyle)

للزّاد ، واستجلبت لما تختصّ به من الكسوة والأزودة وغير ذلك نحو المائة بعير» (77) وتلك « استجلبت معها إلى المسجد [النبوي بالمدينة المنورة] حملين من المتاع للصّدقة » (78) وأخرى « موصوفة بالعبادة والخير . مؤثرة لأفعال البرّ. فمنها أنّها أنفقت في طريقها (. . .) إلى الحجاز ، في صدقات ونفقات في السّبيل، مالا عظيما، وهي تحبّ الصالحين والصالحات وتزورهم متنكّرة رغبة في دعائهم ، وشأنها عجيب كلّه ، على شبابها ، وانغماسها في نعيم الملك » (79) .

وقد لاحظ ابن جبير أنّ الخواتين لا ينقطعن عن الإحسان للحاج حتّى وإن تأخرّن عن الحجّ فلهن « في كل عام (. . .) نواضح مُسَبَّلة مع الحاجّ يُرسِلْنها مع ثقات يسقون أبناء السّبيل في المواضع المعروف فيها الماء وفي الطريق كلّه ، وبعرفات ، وبالمسجد الحرام ، في كل يوم وليلة ، فلهنّ في ذلك أجر عظيم . . . » (80) .

ولكن هذا الأعجاب لم يكن صافيا خالصا إذ شابه شعور بالأسى أمام ما ظهر عليه الخوانين من أبّهة وإسراف في الزّينة مثل تجليل القباب « سبائك ذهب مصوغة أهلّة ودنانير سعة الأكفّ وسلاسل وتماثيل بديعة الصّفات » ومثل تجليل أعناق المطايا بالذهب . ومثل كثرة الجواري والغلمان ولم يرَ في ذلك إلاّ غرورًا بمتاع الدّنيا وتعلّقا بحُطامها، وعُجْبا وخيلاء بملك بفانٍ « والملك مُلك الحيّ القيوم » (81) و « كل مُلْك يفنى إلاّ مُلك الواحد القهّار » فيدعو لهنّ بالهداية (82) .

---

(77) ص 162 .
(78) ص 177 .
(79) ص 213 .
(80) ص 164 .
(81) ص ص 206 ـ 207 .
(82) ص ص 212 ـ 213 .

وأكثر ما أسخط هذا الأندلسي كون البعض من الخواتين أميرات عسكر، يَقُدْنَه ويأمُرْن رجاله أثناء حجهنّ. فخاتون بنت مسعود (83)، وخاتون أم عزّ الدّين صاحب الموصل (84) كانتا ترأسان عساكر الشام والموصل وأرض الأعاجم، وتُشرفان على رعاية الحاج. وعندما انفصل ركبهما ـ في بغداد ـ عن الركب العراقي وجد ابن جبير نفسه تحت إمرتهما ففزع من هذه الوضعية، وحزّ في نفسه أن يكون ضمن ركبهما، فلم يتردّد في إعلان حزنه في قوله «واللّه لا يجعلنا تحت قول القائل: ضاع الرعيل ومن يقوده» (85).

ونعتقد أن هذا الرحالة استمد موقفه هذا من ثقافته الدينية. فلا شكّ أنّه كان يدور بخَلَده قول الرّسول ـ صلعم ـ «ما أفلح قوم يلي أمرهم إمرأة» (86) ولهذا حزن، فالحديث ينطبق عليه ما دام تحت سلطة امرأتين.

حكام المغرب: لم يكن في نيّة ابن جبير الحديث عن حكام المغرب، وما كان يجوز له ذلك لأنّه قيّد أخبار رحلته تقييدا مباشرا، بدأ ببدايتها وانتهى بنهايتها (87) فلا محلّ لأخبارهم. إلاّ أنّه تعرّض إلى ذكرهم عرضا، فجاء كلامه نافعا مفيدا.

(83) هي بنت ملك الدّروب والأرمن وما يلي بلاد الرّوم، تحدث عنها ابن جبير. انظر الرحلة ص 161، 177، 179، 206، 212.

(84) هي زوج قطب الدّين بن اتابك أخي نور الدين زنكي. انظر الرحلة ص 162، 206.

(85) ص 206.

(86) خرّجه أحمد بن حنبل.

(87) بدأ ابن جبير رحلته بقوله بعد البسملة «ابتدىء بتقييدها يوم الجمعة الموفى لشهر شوال سنة 578 25 فيفري 1983» وأنهى تقييدها بوصوله الى غرناطة في 22 محرم سنة 581/25 أفريل 1185.

تحدّث عن ملوك الطوائف في الاندلس ، أثناء وصفه مدينة دنيصر (88) فقال « هذه البلدة لسلاطين شتّى كملوك طوائف الأندلس . كلهم قد تحلّى بحلية تنسب إلى الدّين. فلا تسمع إلاّ ألقابا هائلة، وصفات لدى التحصيل غير طائلة، قد تساوى فيها السّوقة والملوك، واشترك فيها الغنيّ والصّعلوك، ليس فيهم مَن اتّسم بسمة به تليق، أو اتّصف بصفة هو بها خليق » وبعد أن استثنى منهم صلاح الدّين لاجتماع الاسم والمسمّى فيه وتوافقهما أضاف « وما سوى ذلك في سواه فزعازع ريح ، وشهادات يردّها التجريح ، ودعوى نسبة للدّين برّحت به أيّ تبريح ! [البسيط] .

ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهرّ يحكي انتفاخًا صولة الأسد (89) » (90)

إنّ موقف ابن جبير من ملوك بلده واضح وصريح فهو لا يعترف لهم بالسّلطة ما داموا يحملون القابًا هي أبعد ما يكون عن حقيقتهم وصفاتهم وأعمالهم . فبينما كانوا يهوّلون تلك الالقاب ، وينوّعونها ويتفنّنون في صيغها ، لم يكونوا بقادرين على حماية بلدهم ودفع العدوان عنها وحمايتها من حركة

---

(88) هي مدينة شامية تقع على طريق القوافل بين الموصل ومنبج . دخلها ابن جبير ومن جملة ما قال عنها « . . . مائلة الطبع إلى البادية ولاسور لها ، وهي مشحونة بشراً ، ولها الأسواق الحفيلة والأرزاق الواسعة ، وهي مخطر لأهل بلاد الشام وديار بكر وآمد وبلاد الروم . . . » . انظر الرحلة ص 216 .

(89) هذا بيت ثان لبيت آخر هو :
ممّا يزهدني في أرض أندلس — أسماء مُعتمد فيها ومعتضد
وفي نسبتهما خلاف . نسبهما ابن خلكان لذي الوزارتين أبي بكر محمّد بن عمار الأندلسي (ت 1085/477) قالهما في هجاء المعتمد بن عباد وبسببهما قُتل . انظر الخبر في ترجمة ابن عمار ، في وفيات الأعيان . طبعة باريس 1838 ، 4/425 ـ 429 . ونسبهما ابن خلدون لابن شرف . انظر المقدمة الباب 3 الفصل 32 في اللقب بأمير المؤمنين وانظر ايضا البيتين في عبد العزيز الميمني ، النّتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، 1343 ، ص ص 24 ـ 25 .

(90) ص 216 .

الاسترداد الصّليبية . على أن ابن جبير قد كان يشعر بنخوة الانتساب الى الأندلس والاعتزاز بها . ولم يرَ سواها معيارًا للحضارة والتّمدّن (91) .

كما تحدّث عن دولة الموحّدين (92) عرضًا أيضا . فعندما أساء أمير مكّة الأدب إزاء الحاجّ في جدّة ، تألّم ابن جبير ألمًا شديدا ، وسرعان ما تذكر سوء معاملة الدّيوانيين في الإسكندرية واخميم وقوص ، فقرّر أنّ « هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم قد تفرّقوا على مذاهب شتّى . وهم يعتقدون في الحاجّ ما لا يُعتقد في أهل الذّمّة قد صيّروهم من أعظم غلّاتهم التي يستغلّونها ، ينهبونهم انتهابا ، ويسبّبون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابًا ، فالحاج معهم لا يزال في غرامة ومؤونة الى أن يُيسّر اللّه رجوعه الى وطنه . ولولا ما تلافى اللّه به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدّين لكانوا من الظلم في أمر لا يُنادى وليده ولا يلين شديده » (93) .

هذه الفقرة تُخفي في طيّها سؤالا هامًّا وهو : إذا كان الظّلم عامًّا في بلاد المشرق ، ولا يستطيع صلاح الدّين وحده مقاومته والتّصدّي له ، فكيف يمكن الخروج من هذا المأزق ؟

لم يجْرِ رحّالتنا جوابًا عن هذا السؤال . فقد كان يعتقد أنّ الموحّدين ـ هم وحدهم ـ القادرون على تحقيق هذه الغاية النبيلة وهي « تطهير » البلاد من « البدع المجحفة عن المسلمين » . وما ذلك بعزيز عليهم

(91) كان ابن جبير ينظر الى المدن التي عبرها في المشرق أو صقلية من خلال حضارة المدن الأندلسية . انظر الرحلة مثلا ص 97 ، 214 ، 216 ، 217 ، 218 ، 228 ، 232 ، 296 ، 297 ، (لا يتردد هنا في القول بأن صقلّية « ابنة الأندلس ») .

(92) يمكن اعتبار نشأتها بخروج عبد المؤمن بن علي بجيوشه من تيممال سنة 1140/535 للقضاء على المرابطين في مراكش . وقد عمل خلفاؤها على توحيد بلاد المغرب ، ودفع خطر الإسبان في الأندلس . انتهت دولتهم سنة 1269/668 . انظر عنها عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحّدين في المغرب والأندلس ، القاهرة 1964 .

(93) ص 54 .

ما داموا « أنصار الدّين وحزب اللّه أولي الحقّ والصّدق،والذّابّين عن حرم اللّه عزّ وجلّ والغائرين على محارمه ، والجادّين في إعلاء كلمته وإظهار دعوته ونصر ملّته » (94) .

وقَد جرّه هذا المعتقد الى البحث عن حجج موضوعية تُقنع القارىء وتدعم موقفه فقدّم منها ثلاثا وهي :

أ ـ « لا إسلام إلّا ببلاد المغرب لأنّهم على جادّة واضحة لا بُنيّات (95) لها » وهذا يدلّ على فخر ابن جبير ـ على غرار سائر المغاربة ـ بوحدة العقيدة والمذهب في المغرب . فهم مسلمون على مذهب مالك ، وليس فيهم « فرق ضالة وشيع » كما عند المشارقة . وقد سعى رحالتنا الى تتبّع أخبار الفرق هناك (96) .

ب ـ « لا عدل ولا حقّ ولا دين على وجهه إلّا عند الموحّدين » وفي هذا الكلام إشارة الى أهمّ مبدإ من مبادىء الموحّدين وهو التوحيد الذي يعني عندهم : التوحيد في العقيدة والتوحيد في السياسة .

ج ـ الموحّدون عادلون لأنّهم لا « يعشرون تجار المسلمين كأنّهم أهل ذمّة لديهم » ولا « يستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب » ولا « يركبون طرائق من الظلم لم يُسمع بمثلها » كما كان يفعل المشارقة .

ثمّ عمد ابن جبير الى البحث عن صدى حكم الموحّدين وحركتهم السّياسية في مصر حتّى يُدعّم موقفه . فوجد أن المصريين كانوا مطلعين على أخبار هذه الدولة ، بل إنهم كانوا متعلّقين بها ، متوقّعين « ملكتها » لهم بناءً على « آثار حِدْثانية وقعت بأيدي بعضهم أنذرت بأشياء من الكوائن فعاينوها صحيحة » . ومن تلك الآثار الإنذارية أورد اثنين :

(94) تحدث ابن جبير عن الموحّدين في صفحتين انظر ص ص 55 ـ 57 .
(95) بُنيّات الطريق هي الطّرق الصّغار تتشعّب من الجادّة . والمقصود هنا الترهات والتشعبات المذهبية .
(96) انظر مثلا ص 56 ، 215 ، 224 ، 225 ، 229 .

الأوّل اعتقادهم أنّ القنطرة التّي بناها صلاح الدّين لتسهيل عبور العسكر من القاهرة الى الإسكندرية أثناء فيض النّيل إنّما هي « إيذان باستيلاء الموحّدين على [مصر] وعلى الجهات الشرقية » (97) .

الثاني اعتقادهم في تمثالين أنّه إذا سقط الناظر منهما الى الشرق تغلّب على مصر أهل تلك الجهة ، وإذا سقط الناظر منهما الى الغرب تغلّب على مصر أهل تلك الجهة ، وحدث أن سقط الناظر منهما الى الشرق « فتلا وقوعه استيلاءُ الغزّ (98) على الدّولة العبيدية وتملكهم ديار مصر وسائر البلاد وهم الآن (99) متوقّعون سقوط التمثال الغربي » وتملّك الموحّدين لهم .

وقد بلغ التوقّع عند بعض فقهائهم الى حدّ اليقين وهو ما استطاع ابن جبير التعرّف عليه في الإسكندرية والقاهرة . قال « ونُمي إلينا أن بعض فقهاء هذه البلاد المذكورة وزعمائها قد حبّر خُطبا أعدّها للقيام بها بين يدي سيّدنا أمير المؤمنين (100) . . . » .

هذا هو رأي ابن جبير في الموحّدين وموقفه من سياستهم . فهو يعتقد أنّهم جديرون ـ وحدهم ودون سواهم من الحكام ـ بحكم البلاد ، وتدبير

---

(97) هذا المعتقد ذكره ابن جبير عرضا اثناء حديثه عن القناطر التي بناها صلاح الدين . انظر الرحلة ص 28 .

(98) اسم لجنس من الأتراك يتكون من تجمع تسع قبائل ، ثاروا على امبراطور الأتراك الغربيين وكوّنوا امبراطورية لهم حوالي القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد . ومنهم انفصلت جماعة ، فتميّزت ببعض الصفات ، ودخل أفرادها البلاد العربية . انظر فصل : Ghuzz : EI2. 11/1132 - (Cl. Cahen). ونلاحظ أن المقصود هنا بالغزّ صلاح الدين الأيوبي .

(99) دخل ابن جبير القاهرة يوم 11 من ذي الحجة سنة 7/578 أفريل 1183 .

(100) نلاحظ أن ابي جبير لقب سيده الموحّدي بأمير المؤمنين ، وهو لقب خاصّ بخليفة المسلمين . عن هذا اللقب وتداوله بين السّلاطين ، انظر ابن خلدون ، المقدمة ، الباب 3 ، الفصل 32 في اللقب بأمير المؤمنين وأنّه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء . كما نلاحظ أن أمير المؤمنين الموحّدي الذي يقصده ابن جبير هو أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (حكم بين 1163/558 ـ 1184/580) . وكان هذا السلطان من اعظم خلفاء الدولة الموحّديّة ، محبّا للجهاد . انظر عنه عنان ، عصر المرابطين والموحّدين 2/ص ص 10 ـ 130 .

شؤون العباد ، وتوحيد المسلمين وخاصّة العرب منهم ، وتطهير الدّين من البدع، وإحيائه .

والحقيقة أنّ ابن جبير لم يجانب الصّواب في رأيه . فقد كان المهدي ابن تومرت (101) مؤسس الدّولة الموحّدية وواضع مبادئها ، غاضبا عمّا رآه في الإسكندرية من بدع وضلال . فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر حتّى نُفي عنها ، ولم يتخلّ عن نيّة تطهير تلك البلاد عند نشأة دولته في المغرب . فقد رُوي عنه أنه قال لجلسائه تحت شجرة الخرّوب المواجهة لمسجده بتيمنلّل ذات مرّة « لَيُبصرنّ منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها » (102) وهو يشير بذلك الى امتداد حكم الموحّدين الى بلاد المشرق وإخضاع حكّامها لهم . ولم تزل هذه الفكرة تراود سلاطين الموحّدين . فهذا المراكشي (103) أحد المؤرخين هنا يشهد بذلك عندما ينقل خبر مشروع المنصور (104) لغزو مصر في قوله « بلغني عن غير واحد أنّه صرّح للموحّدين بالرحلة الى المشرق وجعل يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع

---

(101) هو مؤسس الحركة الموحّدية وواضع مبادئها ، من أصل بربري ، ارتحل الى الأندلس ثم الى المشرق ثم عاد الى بلاده سنة 1117/511 . فانبرى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو الناس الى التوحيد ويعلمهم ويحرضهم على مقاومة البدع بالسيف حتى تكونت حوله جماعة كبيرة ثارت على المرابطين بقيادة عبد المؤمن بن علي . مات سنة 1132/527 ودفن بتيمنلّل . انظر عنه : عنان ، عصر المرابطين والموحدين 1/ص ص 156 ـ 176 وفصل : Ibn Tumart. EI2 : 111/983 - 4 (J.F.P. Hopkins) .

(102) انظر المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب (من لدن فتح الأندلس الى آخر عصر الموحّدين) تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ط. 1 . 1949/1369 . ص 291 .

(103) هو عبد الواحد التميمي (1181/581 ـ 1249/647) مؤرخ ارتحل الى المشرق . من تصانيفه المعجب في تلخيص أخبار المغرب . انظر عنه الزركلي : الاعلام 210/6 .

(104) هو يعقوب المنصور ثاني الخلفاء الموحّدين (حكم بين 1184/580 ـ 1199/595) أعظم الخلفاء الموحّدين في ظلّه بلغت الدولة أوج قوتها . كان يحب الجهاد . انظر عنه : عنان ، عصر المرابطين والموحدين 2/ص ص 130 ـ 238 وفصل : Abu Yusuf Ya'kūb: EI2 : 1/169 - 171 A. Huici Miranda .

ويقول « نحن إن شاء الله ـ مطهّروها » ولم يزل هذا عزمه الى أن مات » (105) .

وبقطع النظر عن صدق هذه النيّة وإمكانية تنفيذها (106) فإن ابن جبير كان محقّا في حبّ الموحّدين لما بذلوه من جهد في مقاومة الإسبان والمحافظة على الأندلس ، ولما ظهروا عليه من حماس ديني لا بد منه لإذكاء جذوة الجهاد ، ولما أبدوه من رغبة في توحيد المغرب والقضاء على النّعرات والعصبيات والطّامعين في الحكم (107) ، ولما كانوا يتوقون إليه من جمع شمل المسلمين مغربًا ومشرقا (108) ولمَا جسّموه من قوة عسكرية في البحر الأبيض المتوسّط شهد لهم بها صلاح الدّين وابن خلدون أمّا الأوّل فقد استعان ـ في محاربة الصّليبيين ـ بالمنصور في رسالة بعثها له سنة 585/1189 « يستجيشه على الرّوم الفرنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية » ويطلب منه تحريك أسطوله نحو صقلية وإيطاليا ليسدّ عليهم الطريق (109) وأمّا الثاني فقد قال عنهم « لمّا استفحلت دولة الموحّدين في المائة السّادسة وملكوا العَدْوَتَيْن أقاموا خطّة (. . .) الأسطول على أتمّ مَا عُرف وأعظم ما عُهد » وقال عن يوسف بن عبد المؤمن (110) « انتهت أساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبلُ و بَعْدُ فيما عهدناه » واعتبر ابن خلدون أنّ شوكة

---

(105) المراكشي : المعجب ص 284 .

(106) يذهب عبد الله عنان الى ان « فكرة غزو مصر ـ إن كانت ـ لم تكن لدى الموحّدين سوى أمنية خيالية بعيدة المنال » انظر عصر المرابطين والموحدين 2/ص ص 243 ـ 244 .

(107) مثال ذلك بنو غانية الذين أسّسوا دولتهم في بجاية سنة 578/1182 وهم موالون للعبايين . انظر عنهم : المراكشي ، المعجب ص 267 وما بعدها .

(108) كان ابن تومرت يقول لأصحابه « أنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم » انظر المراكشي المعجب ص 188 .

(109) انظر هذه الرسالة في صبح الأعشى 6/ص ص 526 ـ 530 .

(110) تقدم التعريف به . انظر التعليق 100 .

المسلمين في البحر الأبيض المتوسط قد خضدها النصارى بضعف الدولة الموحّدية وذهاب ريحها (111) .

حكّام النّصارى : عندما أنهى ابن جبير مناسك الحجّ وأدّى الفريضة قرّر عدم الرّجوع الى بلده من البلاد المصرية لما لحقه من سوء معاملة الدّيوانيين ، ولما أصابه من إرهاق العيذابيين (112) وآثر مصاحبة الركب العراقي ثم ركوب البحر من عكّة . فكانت فرصة ثمينة مكّنته من دخول بلاد الصليبيين وصقلية فجاءت معلوماته عنهما ذات قيمة وثيقية ليس لَهَا ما يعوّضها لأنّها شهادة عيان مباشر ولأنّها تكشف عن حدّة الصّراع بين الصّليبيين والمسلمين ، وعن الحِيَل التّي اتبعها النّرمانديون في استيعاب مَن تبقّى من المسلمين في الجزيرة . والّذي يهمّنا الآن هو التّعرف على موقفه من حكام النّصارى .

كان يحكم المدن الصليبية في الشام عدّة ملوك حدثنا ابن جبير عن اثنين منهم بإيجاز . فذكر ملِكَة حصن تبنين (113) دون أن يعرّف بها (114) واكتفى بنعتها بالخنزيرة والدّعاء عليها بالتدمير (115) . وتوسّع الحديث شيئا ما عن ملك عكة فقال « هذا الخنزير صاحب عكّة المسمّى عندهم بالملك

(111) انظر المقدمة ، الباب 3 ، الفصل 34 ، في مراتب الملك والسلطان وألقابها ، قيادة الأساطيل ص ص 453 ـ 454 .

(112) كان العيذابيون يقومون بعملية نقل الحجيج من عيذاب الى ابحر عبورا بالبحر الأحمر على نوع من المراكب اللينة الخطرة المهدّدة بالموت غرقا في كل لحظة . انظر الرحلة ص ص 47 ـ 52 .

(113) هذا أحد الحصون الصّليبية الفاصلة بين الممالك الصليبية وبلاد الشام الإسلامية وصفه ابن جبير بقوله « حصن كبير من حصون الإفرنج . . . وهو موضع تمكيس القوافل » مكس العبور . انظر الرحلة ص 274 .

(114) هي إجنيس كورتناي Agnès Courtenay وُلدت على الأرجح سنة 1133 م ، تزوّجت إملريك ملك يافا وعسقلان سنة 1157 م وانجبت منه بلدوين (الرابع) وسبيلا . وقد عُرفت بسوء الخُلق وحبّ الرجال والمال ويذكر وليام الصوري أنها كونتسة يافا وعسقلان ولم تكن مطلقا ملكة ولم تعرف قط بهذا اللقب . انظر عنها : س. رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية (بالإنكليزية) تعريب سيد الباز العريني ، دار الثقافة بيروت ط 1981/2 ، الفهرس .

(115) ص 274 .

محجوب لا يظهر ، قد ابتلاه الله بالجذام (116) فعجّل له سوء الانتقام ، قد شغلته بلواه في صباه عن نعيم دنياه ، فهو فيها يشقى ولَعذاب الآخرة أشدّ وأبقى . وحاجبه وصاحب الحال عوضه خاله القومس (117) وهو صاحب المجبى » (118) وذكر أنّه ابن ملكة تبنين (119) .

وما يشدّ الانتباه في قول رحالتنا ملاحظتان : الأولى أنّه لم يسمّ أحدًا من حكام الصّليبيين باسمه . وهذا على عكس عادته . فالمعروف عنه أنّه يستقصي البحث ، ويدقّق الأخبار ويسمّي الأشياء بأسمائها ، والثانية أنّه نعت الملكة وابنها الملك باسم الحيوان المحرّم أكل لحمه في الإسلام (120) . وهذا ينمّ على الشّعور الذي يحمله ضدّ الصّليبيين فهو حاقد عليهم ليس لأنّهم احتلّوا أرض الإسلام فحسب بل وكذلك لأنّهم دنّسوا المقدّسات في بيت المقدس (121) . وذهب به حقده الى الدّعاء على كل مدينة كانت تحت حكمهم بالدّمار (122) .

إلاّ أنّه رغم هذا الهياج العاطفي ، لم يغفل ملاحظة سلوكهم إزاء المسافرين المسلمين في ممالكهم . فانتبه الى أنّهم كانوا يحسنون معاملتهم

(116) هذا الملك هو بلدوين الرابع وهو صاحب عكة لأنّها كانت تتبع القدس كرسي المملكة تولّى الحكم ولم يتجاوز الثالثة عشرة سنة 1174 م ومات بسبب مرضه الطويل سنة 1185 م انظر عن اخباره ، رنسيمان : تاريخ ، فهرس الجزء الثاني .

(117) ترسم أيضا القمس أو القمص ، جمعها قوامس : كلمة لاتينية Comes وتعني في الأصل نديم الملك . ثم أطلقت على من كان من وجوه القوم ، ثم تطوّرت معنى ومبنى في اللغات الاروبية فهي في الإسبانية Conde وفي الإنكليزية Count وفي ايطاليا Conte وفي الفرنسية Comte وكلها تعني حاكم منطقة يتمتع باستقلال ذاتي أوتام، أو هي بمعنى الرجل الشريف. وكانت هذه اللفظة مألوفة عند الأندلسيين . انظر على الحجي : جغرافية الأندلس ص 99 . تعليق 1 .

(118) ص 282 .

(119) ص 274 .

(120) انظر سورة البقرة (2) الآية 173 ، المائدة (5) الآية 3 ، الانعام (6) الآية 145 ، النّحل (16) الآية 115 .

(121) الغريب أنّ ابن جبير - رغم دخوله الممالك الصّليبية - لم يزر هذه المدينة المقدّسة .

(122) انظر مثلا دعاءه على مكة ، ص 276 ، وصور ، ص 277 .

ويلينون معهم ويلطفون ويلاطفون . فمن إحسانهم لهم أنهم أعدّوا خانا خاصا ينزل فيه التجّار ، وأنّهم يمكّسونهم في الخان تجنّبا للإرهاق واختلاط السّلع ، وأنّهم أطلقوا سبيل سائر المسافرين للنزول حيث شاؤوا « كل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل » (123) ولا شكّ في أنّ ابن جبير كان يدوّن ملاحظاته هذه تحت وطأة ما انطبع في ذاكرته من سوء تصرّف الدّيوانيين المصريين إزاء المسافرين المسلمين . فلقد كان من المفروض أن تحسن معاملتهم هناك وتُساء هنا .

وعندما دخل ابن جبير صقلية أقبل يتعرّف عليها ، ويحدّثنا عن ملكها حديثا وافيا .

كان ملكها يسمّى « غليام » (124) ، وسنّه نحو الثلاثين سنة ، وسلوكه « عجيبا » وسيرته حسنة. وكان على شبابه مدبّرا حكيما ، وداهية عظيما . وهو ما يدلّ عليه نظام حكومته . فقد ركّز سياسته على دعامتين لا بدّ منها لتستقيم أحوال دولته وهما :

أ ـ استعمال المسلمين : واصل هذا الملك سيرة أجداده (125) في الاستفادة من خبرة المسلمين المتبقين في الجزيرة . فاطمأنّ إليهم وتوكّل عليهم في عدّة وظائف منها (126) :

---

(123) ص ص 275 ـ 276 .

(124) هو غليام الثاني ، ويُلقب بالحسن ، حكم بين 1166 م ـ 1189 م . قام بعدّة حملات على مصر سنة 1174 ، 1175 ، 1177 ، 1185 ، قصد الاستحواذ على دلتا النيل . انظر عنه Guillaume II : Grand Larousse V/712

(125) نذكر مثلا روجار الثاني مؤسس الدولة النّورمانية في صقلية (حكم بين 1111 م ـ 1154 م) عمل على تكوين أسطول عظيم هاجم به السواحل الإفريقية وجمع حوله علماء كثيرين نذكر منهم الشريف الإدريسي (ت 560/1185 ؟) صاحب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . عن روجار . انظر أحمد عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية (بالإنكليزية سنة 1975) نقله الى العربية أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، تونس 1389/1980 ص ص 64 ـ 68 .

(126) للتعرّف على أخبار غليام . انظر الرحلة ص ص 297 ـ 299 .

- وزراءه وحجّابه ، فتيان (127)
- طرّازه ، فتى
- ناظر مطبخته رجل من المسلمين
- عبيده وقائدهم من المسلمين
- جواريه وحظاياه في القصر مسْلمات كلّهن

ولم يكتف غليام باستعمال المسلمين والتعويل عليهم في المهمّات فحسب بل صار يتشبّه بملوكهم . فقد وعى أنّ الحكام المسلمين قد أدركوا شأوًا في سياسة الدّول وتدبير أمور الرعية ، وإقامة العدل . فسار سيرتهم ونهج نهجهم في المجالات التالية :

- ترتيب القوانين .
- وضع أساليب الحكم .
- تقسيم مراتب أعوانه .
- تفخيم أبّهة مُلكِهِ بجمع الأطباء والمنجّمين حوله و « الحرص عليهم حتّى أنه متى ذكر له أنّ طبيبا أو منجّما اجتاز ببلده أمر بإمساكه وأدر له أرزاق معيشته يُسليه عن وطنه » .
- الانغماس في نعيم الملك ببناء القصور والتأنّق في البساتين (128) .
- اتخاذ العلامة وهي « الحمد للّه حقّ حمده »

وجملة القول إنّه « كثير الثقة بالمسلمين وساكن إليهم في أحواله والمهمّ من أشغاله » . هذا ما يدلّ ـ فعلا ـ على حنكته وتبصّره بالسّياسة . فلم يَجْن

(127) يطلق ابن جبير هذه الصفة على المسلمين السّنّيين الذين يفعلون خيرا فهو يقول في فتيان صقلية « ولهم في فعل الجميل أخبار مأثورة ، وفي افتكاك الأساري صنائع عند الله مشكورة » (الرحلة ص 300) ويقول عنهم في المشرق « سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها . . . » (الرحلة ص 252 ـ ولزيادة الاطلاع على الفتوة . انظر فصل : Futuwwa . EI2. 11/983 - 7 (Cl. Cahen) .

(128) ذكر ابن جبير أن له قصرا أبيض بمسّينة (الرحلة ص 298) وقصورا ببلارمة (الرحلة ص 303) .

من المسلمين المتبقين في الجزيرة فوائد مباشرة في تدبير أمور البلاد والعباد فحسب بل أبعد خطر ثورتهم عليه أيضا .

ب ـ تقوية الدولة : كانت صقلية دولة فتيّة ، وتواجه منافسة قوية من الجمهوريات الناشئة مثل البندقية وبيزة وجنوة ، وتتصدّى لخطر مهدِّد من الموحّدين المغاربة أخطر قوة ضاربة في البحر الأبيض المتوسّط وقد أدرك حكّام الجزيرة هذه الحقائق وقدروها حقّ قدرها فسبقوا الأحداث واستعدّوا للطّوارىء فجسّموا هذه الإرادة في مجالين :

أوّلا مجال الاقتصاد : كان الاقتصاد ـ في ذلك العصر ـ مرتكزا على التجارة وتبادل السلع . وكان على الحكام الصّقليين أن ينافسوا الجمهوريات الإيطالية وغيرها من الممالك الأوربية في تكوين أسطول تجاري كثير القطع والفوز بإبرام اتفاقات مع المسلمين يضمنون بها التّزوّد من سلع الصين والهند وإفريقيا . وقد شاهد ابن جبير في صقلية ما يدلّ على أنّ حكام صقلية ـ وخصوصا غليام ـ قد حققوا الفوز على القوى التجارية المنافسة بجعلهم مدن الجزيرة مدن صدور وورود وعبور بين البلاد الإسلامية والبلاد الأوربية . وكفانا دليلا على ذلك وصفه لمدينتين هما :

مسّينة (129) : قال عنها « هذه المدينة موسم تجّار الكفّار ، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار (. . .) ومُرساها أعجب مراسي البلاد البحرية لأنّ المراكب الكبار (130) تدنو فيه من البرّ حتّى تكاد تمسّه وتنصب منها الى البرّ خشبة يتصرّف عليها . فالحمّال يصعد بحمله إليها ولا يحتاج لزوارق في

(129) تقع هذه المدينة على مضيق مسينة بين صقلية وإيطاليا ، أسسها القراصنة منذ القديم ، ومرّت بتطوّرات مختلفة حتّى أخذها العرب سنة 842/228 ، ثم استردها البيزنطيون سنة 1038/430 . ويعتبر ميناؤها من اعظم مواني أوروبا في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي . انظر عنها فصل : Messine : Grand Larousse VII/290 .

(130) حسب ابن جبير ، السفينة الكبيرة هي التي تحمل « أزيد من ألفي إنسان » (الرحلة ص 283) . ويبدو ـ حسب الدراسات الحديثة ـ أن هذا الرقم مبالغ فيه لأنّ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، لم يعرف بعدُ هذا النوع من السفن الضخمة .

وسقها ولا في تفريغها » ولم يجد أفضل من تشبيه هذه السّفن الجواري بالجياد في عظَمتها وانتظامها واستقرارها فقال « تراها مصطفّة مع البرّ كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها وذلك لإفراط عمق البحر (. . .) وهو زقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة بمقدار ثلاثة أميال » (131) . وقد كان مرسى مسينة يستقبل السّفن من بلاد الشّام ، ومصر ، وتركيا ، ومنه تصدر إليها . ولم يكن يوجد مرسى ينافسه (132) .

أطرابنش (133) : تحدّث ابن جبير عن مرساها بقوله « مُرساها من أحسن المراسي وأوفقها للمراكب . ولذلك يقصد الرّوم كثيرا إليها ولا سيّما المقلعون الى برّ العدوة » . وبرّ العدوة يعني تونس ـ فإن بين المدينتين « مسيرة يوم وليلة . فالمسافر منها إليها لا يتعطّل شتاء ولا صيفا إلاّ ريثما تهبّ الرّيح الموافقة فمجراها في ذلك مجرى المجاز القريب » (134) ـ وسائر مدن الجزائر والمغرب والأندلس وأوربّا الغربية .

ثانيا مجال العسكر : لقد استغلّ الصّقلّيون موقع جزيرتهم في بناء أسطول تجاري قوي وتجهيزات ملاحية هامّة . ولكنّهم لم يكتفوا بالعناية بهذا المجال لأنّهم أدركوا أنّ التجارة لا بدّ لها من الحماية فضلا عن الوقاية . فالبحر الأبيض المتوسّط كان يعجّ بالقراصين، والأعداء متربّصون بهم . وزيادة عن ذلك كانوا يتوقعون تدخّل الموحّدين لاسترداد الجزيرة وإخضاعها من جديد لسلطة الإسلام . كل هذه العوامل أجبرتهم على الاهتمام بتكوين أسطول

(131) ص 296 .

(132) كانت السفن الاوروبية تتجمّع في مرسى مسّينة في شكل قوافل للإبحار نحو المشرق وكانت لها سفرات معينة ومحدّدة بحسب حركة الريّاح . وقد حدثنا ابن جبير عن هذه الرّياح في هبوبها من الشرق أي أثناء سفر السفن من عكة وصور وغيرهما الى مسّينة انظر الرحلة ص 284 .

(133) تقع على لسان من اليابسة داخل في البحر ، فجاء مرساها طبيعيا ممّا جعلها مدينة تجارية وجسرا بين أوربّا وافريقيا ، انظر عنها فصل : Trapani : Grand Larousse X/459

(134) ص 308 .

عسكري عتيد قادر على صَدّ أيّ عدوان ، ولِمَ لا يكون قادرا على الهجوم وهو أحسن مذهب عسكري في حماية النّفس وإرهاب العدوّ ؟

لقد اهتمّ ابن جبير بهذا الجانب لأنّه كان واعيا بالصّراع بين الصّليب والإسلام ، فحدّثنا عن عناية غليام ـ مثل أجداده ـ بصناعة السّفن فله في مسّينة « دار صنعة البحر تحتوي من الأساطيل على ما لا يُحصى عدد مراكبه ، وله بالمدينة (135) مثل ذلك » (136) كما ذكر أنّه أعدّ أسطولا لبعض هجوماته (137) عدد أجفانه ، فيما يقال ثلاثمائة بين طرائد (138) ومراكب ، ويُقال أكثر من ذلك ، ويستصحب معه نحو مائة سفينة تحمل الطّعام » (139) هذان الرّقمان يدلّان على أنّ غليام تجاوز مرحلة الدّفاع الى مرحلة الهجوم ، وأن صقليّة هذه الجزيرة الصغيرة صارت قوة بحرية ، لها دورها في البحر الأبيض المتوسط .

إن هذه المعلومات الكثيرة عن غليام وحكمه تدلّ على اهتمام ابن جبير به لأسباب عدّة منها حبّ الاطلاع على نظام حكمه ونوع سياسته ، ومنها واجب الكشف عن حال المسلمين المتبقّين في الجزيرة في ظلّ دولته ، ومنها الإعجاب . فقد وجَد فيه ملكًا حازما يحسن التّدبير ، ويتدفّق حيوية وذكاء ، محسنًا لرعيته خيّرا (140) ، حليما (141) عدلا (142) . ولولا أنّه « مشرك »

(135) المدينة هو اسم بلارمة ، بلارمو اليوم ، عاصمة صقلية .
(136) ص 300 .
(137) لم يقع الإعلان عن هذا الهجوم ووجهته فاختلفت فيه الظنون « فمنهم من يزعم أن مقصده الإسكندرية (. . .) ومنهم من يقول إن مقصده ميورقة (. . .) ومنهم من يزعم أنّ مقصده إفريقية (. . .) ومنهم من يرى أنّ احتفاله إنّما هو لقصد القسطنطينية العظمى . . . » . ابن جبير الرحلة ص 310 . وفي هذه الفقرة ما يؤكد الصّبغة العسكرية لحكام صقلية .
(138) مفرده طريدة وهي سفينة مفتوحة المؤخرة يستطيع الفارس ركوبها على الفروس . فهي اذن سفينة حربية . انظر ابن بطوطة : الرحلة 651/2 .
(139) ص 310 .
(140) ص ص 295 ـ 296 .
(141) ص 299 .
(142) ص 304 .

(143) لأثنى عليه ومدحه ، وحشره في زمرة الملوك العظماء عصرئذ ولأنّه مشرك رأى فيه الخطر على الإسلام ، وعلى من تبقّى من المسلمين في الجزيرة ، باستيعابهم شيئا فشيئا مع الانتفاع بهم (144)،وعلى المسلمين في المدن الواقعة على البحر الأبيض المتوسّط (145) فكان يعبّر عن وعيه هذا بمثل هذه الجمل « واللّه يُعيذ المسلمين من الفتنة به » و « كفى اللّه المسلمين عاديته وبسطته » (146) و « أباده اللّه » (147) و « اللّه يعين عليه ولا يعينه » (148) .

وصفوة القول انّ ابن جبير لم ينظر الى السّياسة على أنّها نظريات وقوانين ومبادىء من وضع الكتّاب والمفكرين والمنظّرين بل هي في رأيه عمل وممارسة وسلوك . ولهذا أقبل على أعمال الحكام بمختلف أصنافهم يصفها كما هي ، وعلى أقوالهم ينقلها بدون تحريف . وهو لعمري أسلوب إخباري واقعي لا يبعد بالقارىء عن العيان المباشر والتصوّر الصحيح .

والعمل السّياسي ـ عند رحّالتنا ـ يقوم على ثوابت منها العدل والقوة في الحقّ ، ومباشرة الرعيّة . ولهذا كان منشغلا بإبرازها أثناء وصفه لأعمال الحكّام الذين تحدّث عنهم. وكان يمدح من تتوفر فيه ويثني عليه مثلما أشاد بصلاح الدين ونعت غليام . كما كان يذمّ مَن لم تتوفّر في سياسته هذه المقوّمات مثلما فعل مع الخليفة العبّاسي .

(143) ص 299 .

(144) لقد أشار ابن جبير الى الوسائل التي استعملها حكّام صقلية لاستيعاب المسلمين المتبقين مثل تكليفهم بالأعمال ، ومنع الجمعة ، وإغراء الزعماء الرّوحيين المسلمين ، وإثارة الفتنة بين الآباء والأبناء وحصر المسلمين في أماكن خاصة ـ للاطلاع على وضعية المسلمين في صقلية انظر الرحلة ص ص 297 ـ 316 . ونلاحظ أنّ م. أماري قد نقل قول ابن جبير عن صقلية في كتابه : المكتبة العربية الصقلية ، ليبسك 1857 ص ص 76 ـ 104 .

(145) تحدّث التجاني عن هجومات روجار على السواحل التونسية مثل المهدية وقابس وصفاقس وطرابلس ، انظر رحلته .

(146) ص 299 .

(147) ص 305 .

(148) ص 310 .

وقد تميّز ابن جبير ـ في مواقفه السّياسة ـ بالموضوعية والوضوح فلم يتعصّب إلّا لما يراه الحقّ . فلئن أعرض عن الدّعاء للخليفة العبّاسي ـ وهو خليفة المسلمين شرعيا ورسميا ـ فلأنّه غير جدير بالثناء . فما قولك بخليفة « معتقل » لا يباشر الرعية ، وحتّى إن خرج فإنّه يعمد إلى التّعمية ؟ وإن أظهر حبّا كبيرا للموحّدين واعتبر خليفتهم « أمير المؤمنين » ، فما ذلك لعصبية أو هوى ، وإنّما لعقيدة اعتقدها ، ولحقّ آمن به ، ولصواب رآه ، فقد جسّموا : العدل والقوة في الحق ، ومباشرة الرّعية .

وحتّى في نظرته الى النصارى لم يكن ابن جبير متعصّبا أكثر من اللازم فقد أثنى عليهم حين وجب الثناء مثل لينهم في التّمكيس ، أو مثل اعجابه بغليام لحسن سيرته . ولم يترك التعصّب الديني يطغى عليه الى درجة إغفال قول الحقيقة .

وهكذا ، نكون قد حاولنا الكشف عن جانب آخر من جوانب طرافة رحلة ابن جبير ، وعبقرية صاحبها .

أحمد الشتيوي

الأسْر والسّجْن في شعر العرب

« تاريخ ودراسة »

تأليف : الدكتور أحمد مختار البزرة
الطبعة الأولى ، مؤسسة علوم القرآن
دمشق ـ بيروت . 1405 هـ/1985 م
781 صفحة
تقديم : مبروك المنّاعي

كثيرة أغراض الشّعر العربي ، غزيرة معانيه غزارةً تتأبّى على كل حصر ، فكلّما ظن النقاد أنهم أتوْا على أغراض الشعر القديم درسا وتمحيصا عنّ غيرها ، ممّا قد يجعل المسألةَ قِصَرًا في الوسيلة وقصورا في النظر لا غير ، لأنّ حقيقةَ هذا الشعر أنهّ فعلا معينٌ لا ينضب : فقد كشف الدكتور أحمد مختار البزرة مؤخرا ـ في بحثه الذي نقدّم ـ عن غرضٍ قائم في أغراض الشعر برأسه لم تقع دراسته هو غرض « الأسر والسجن » وأثبت أنّه « ظاهرةٌ ضخمة في شعر العرب » (ص 5) . وقد جعل الدكتور البزرة بحثه يمتدّ من الجاهليّة الى القرن الثامن الهجري وقسّمه قسمين متكاملين متساندين : قسما تاريخيا وقسما أدبيا وفصل في القسم التاريخي بين الأسر والسجن ولكنّه جمع بينهما في الدراسة

الأدبية لتشابه مشاعر الأسارى والمساجين في رأيه ، فجاء كتابُه في مقدّمة وأربعة فصول كبرى هذه تفاصيلها :

* فصل أوّل : الأسر في الجاهلية والإسلام (ص ص 13 ـ 93) اشتمل على أربعة مباحث هي :

- كلمتا الأسر والسجن : الصورة والمدلول .
- آلات الأسر وأمكنته .
- منزلة الأسير .
- الطرق الى الأسر (أسبابه ودواعيه) .

* فصل ثان : السجن في الجاهلية والإسلام (ص ص 95 ـ 371) اشتمل على ثلاثة مباحث هي :

- السجون : أماكنها وأنواعها .
- مجتمع السجن .
- الطرق الى السجن (أسبابه ودواعيه) .

* فصل ثالث : شعر الأسر والسجن ، مصادره وحجمه (ص ص 373 ـ 449) جعله في ثلاثة مباحث هي :

مصادر شعر الأسر والسجن .
- حجم هذا الشعر ومقداره .
- الموضوع والمنحول منه .

* فصل رابع : أغراض شعر الأسر والسجن وخصائصه (ص ص 450 ـ 675) جعله في مبحثين هما :

- أغراض شعر الأسر والسجن .
- خصائص هذا الشعر .

ثم وضع لبحثه خاتمة عامّة وقائمة للمصادر والمراجع رتبها ترتيبا أبجديًّا وأربعة فهارس : فهرس للأعلام وفهرس للبلدان والأماكن وفهرس للأيام والمعارك وفهرس للموضوعات .

ولقد تتبع المؤلف في الفصل الأوّل من بحثه ، ظاهرة الأسر في الجاهلية والإسلام فبدأ بتحليل معجميّ لكمتيْ « الأسر و « السجن » أفضى به الى أنّ « الأصل اللغوي لكلمة » « أسير » أنّه المشدود بالإسار ، ويستتبع الشَّدَّ بالقيْد الخضوع المطلق لسلطان الآسر (. . .) وهذا المعنى يتصل بالصّورة الخارجية وهي صورة عامّة مجملة لا توضّح ما يعانيه المأسور من أحوال العنْف والتّضييق والمهانة وما يكون عليه من أوْضاع تتفاوت أذى وشدّة . . . » (ص 19) ، وربط بين « أسير وسجين » بمعنى سلب الحريّة وتعطيل الحركة والإقامة الإجباريّة (ص 23) ، واعتبرهما مترادفتين في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأمويّ « أمّا في العصر العبّاسي فإنّ لفظة أسير بدأت تختصّ بالذين يُؤخذون حربًا والسجين أو الحبيس هو من تعتقله السلطة » (ص 25) .

ولكنّنا على استجادتنا للمَنْحى الذي نَحَاه هذا الباحث في انطلاقه من الجذور اللغويّة نراه لم يستفد من ذلك بما فيه الكفاية لأنّه ـ في اقتصاره على « مخصّص » ابن سيده و « تاج العروس » الذي اعتمده في بحثه ولم يذكره في مراجعه ـ لمْ يتدبَّر كامل الحقل المعجميّ لمادّة (أ. س. ر) . وقد عُدْنا الى « لسان العرب » (I/77 ـ 78 . ط. دار المعارف . د. ت) فوجدنا أنّ من معاني « الأَسْرِ » و « الأُسْرِ » احتباسُ البوْل : يقول ابن منظور « والأسر تقطير البوْل وحزّ في المثانةِ وإضاضٌ كَإضَاضِ الماخِض » ولعلّ هذا يكمل ما بدا لنا ناقصا في هذا المستوى من بحث الدكتور البزرة بما يُضيفُ الى معنى الشدّ والتقييد معنى الضّيق والألم الجسمي والنفسي وهو الجامع بين حَالَيْ المقيَّدة حرّيته والمحتبس بوْلُه . ويضيف « لسان العرب » الى هذا معنًى تحقيريًّا يتضمنه الجمْع أسْرى « الذي كسر فيه أسيرٌ على « فَعْلَى » وهو من أوْزان

العاهات كـ « حَمْقى » و « وغرْقى » و « صرْعى » و « مرْضى » : « قال ثعلب . . . ولكنّه لّما أصيبَ بالأسْر صار كالجريح واللّديغ فكسِّرَ على فَعْلَى » ويضيف « اللسان » في مادّة (ح. ب. س. II/753) : « والحُبْسَةُ والاحتباسُ في الكلام التوقُّفُ ، وتحبّس في الكلام تَوَقَّفَ . قال المبرّد في باب « علل اللّسان » : الحُبْسة تعذّر الكلام عند إرادته » ؛ وقد فات هذا المعنى صاحب البحث أيضا .

وانتقل المؤلّف ـ بعد محاولة تدقيق المفاهيم ـ الى ذكر آلات الأسْر بادئًا بأقدمها فذكر القدَّ الجلدي والقدَّ الذي يُتخذ من الحبال والقدّ الحديدي ، وذكر في هذا الإطار كلاما بديهيا لاحاجة للقارىء به حين أخذ نفسه بتعريف « السلسلة » قائلاً : « والسلسلة حبلٌ لينٌ من الحديد ذو حلقات تدخل كلّ حلقة بما بعدها . . ! » (ص 27) ، وذكر الغلّ والكبل ، وهو أثقل القيود ، « ومهما أختلفت أشكالُ القيود وأنواعها يجمعها أسم الوثاق » (ص 31) . وبيّن أنّ أماكن الأسر تكون إمّا خيْمة يُوضع فيها الأسير مع مَنْ يوكل به أمره أو حفرة كالبئر تمنعه الأغلال من ارتقاء جوانبها أو حِصنًا أو حظيرة ، في حالات الأسر الجماعي ؛ « وكان الرّجال يقومون على حراسة الأسير ومراقبته إذا كان غاليا فداؤه ، وقد يُوكلون مراقبته الى عجائزهم » (ص 33) . وتحدّث ـ عند تحليله لمنزلة الأسير ـ عن أثمان الأسرى وأهمّيتهم باعتبارهم جُزْءًا هامًّا من الغنيمة : « فالأسرى » كالسّلع تتفاوت أثمانهم تفاوتها في الجودة والثّمن والنّدرة (ص38). وذكر أنّ العرب اذا رَجَوْا من قوم الأسير فدية رفقوا به واحتاطوا لأنْ يبقى حيًّا ، أمّا إذا قعد قومُه عن فدائه فإنّه يُقتلُ أو يُسخَّر في شؤون آسره . ولم يفقد الأسير بظهور الإسلام قيمته المادّية غير أنّ تبدّلاً طرأ على تقويمه فمن الأسرى مَن لم يكن لتُقبل فديتهم لِمَا سبّبوه لخصومهم من أذًى ، ومنهم من فُدِيَ بغير المال . . . » (ص ص 41 ـ 42) . ثمّ ذكر المؤلّف التحوّلات التي طرأت على نظام الأسر بتوطّد أركان الدّولة وضعف الوازع

القبلي وخصوا في العهد العباسي ممّا أسرى الفِتن والثورات الدّاخلية كُلّ قيمة على عكس أسرى الحروب .

وذكر - في معاملة الأسير - شدّه الى جنب الإبل السّريعة يعدو مكتّفا ، وبيعَ الأسرى وشراءهم ، وإطعامهم خسيسَ الطّعام وحرمانهم من الماء إلاّ الجرعة تبلّ الحلْق ولا تطفىء الظمأ ، وتسييرهم على الجمر حفاةً وامتهانهم والتنكيل بهم وقتلهم فرادى وجماعات . وذكر (ص 56) ما نال الأسرى زمَن الرّسول من معاملة إنسانيّة ، غير أنّه لاحظ أنّ الأمر تغيّر بعد تولّي عهد الرّسول والرّاشدين وأنّ الخلفاء والعمّال عادوا إلى ركوب القسوة طريقًا من حديد زجرًا للثائرين والمتمرّدين وتثبيتا للمُلك : « وكانت الرؤوس تتهاوى والدّماء تسيلُ حتى يسأم القائم على القتل ويعاف رؤية المجزرة » (ص ص 58 - 59) . وختم المؤلف فصله الأوّل بما سمّاه « الطّرُق إلى الأسر » وعنى به أسبابه ودوافعه ، فذكر منها الخصام السياسي والحرب والغزو والسّبي والاختطاف .

ثم انتقل الى الفصل الثاني من دراسته وهو « السجن في الجاهلية والإسلام » فبيّن أنّ السّجون الحقيقيّة بدأت في عهد عمر بن الخطّاب . فقد اشترى عمر من صفوان بن أميّة دارًا جعلها سجنا - وكان قبلها يحبس في الآبار - ثمّ « حملتْ كثرةُ الشغب والعصيان عليّ بن أبي طالب (. . .) على العناية بالسّجن فكان أوّل مَن بنى حبسًا في الإسلام ، بناه في الكوفة وسمّاه نافعًا . . . » (ص 102) . ثمّ أخذت السّجون في التكاثر والانتشار مع تولّي الأمويين الحكم ، وتوسّع هؤلاء في تشييدها لكثرة ما نجم في عصرهم من الخلافات والأحزاب : « فبنى الحجّاج عددًا منها وأطلق عليها أسماء مختلفة (. . .) . واتسعت في العصر العبّاسي مشروعات تعمير السّجون (. . .) واستحدثت حبوس جديدة (. . .) وكانت الحبوس تستزير الشعراء العرب حيثما أُسّست (ص ص 104 - 105) . ودقّق المؤلّف مواقع هذه السّجون

وعرَض أنواعَها وما كان منها سطحيّا وما كان في جوف الأرض على هيئة مطامير ودواميس ، واستقرأ الشعر لمعرفة توزّعها جغرافيّا في البلاد العربيّة قديما ، وذكر اصنافها متوخيا منهجا تاريخيا مبيّنا أنّها كانت ـ قبل العبّاسيين ـ تجمع الناس على اختلاف منازلهم الاجتماعيّة ، ثمّ آل الأمرُ معهم الى التخصّص فوُجدَتْ « سجون الجرائم » و « سجون الزّنادقة » وغيرها ، وما اسْتُحدِثَ بدْءًا من المعتصم ممّا يمكن تسميته بحبس الثوّار على الحكم . . . وذكر أحوال السّجون فقال عنها (ص 123) : « كانت الحبوس الكبيرة ، لا سيما المتأخّرة ، على حال متناهية من السّوء والإيذاء ، يلقى فيها الكثير من المحبوسين هلاكًا لما فيها من الظلام والقذارة (. . .) . وكانت الرّوائحُ الخبثية مناخا ملازما لها ، ترتع فيها الحشرات وهوام الطير وتورث المرض العُضال والموت » .

وانتقل الى ما سمّاه « مجتمع السّجن » فتحدث عن السجّانين مميّزا بين الحرس الذين توكل اليهم حراسة السّجن من الخارج و « الفيوج » و « الأساوير » و « السّبابيج » الذين تُناط بهم أمور السّجن الداخليّة . وقد كان « جُلّ هؤلاء من الفرس والسّند والأعاجم في البلاد المفتتحة أو في جزيرة العرب ، ثم نُسِخت هذه التّسميات وبقيَ للقائم بأمر السّجناء اسم « الجلواز » (ص 127) . وذكر شروط انتدابهم وخصائصهم وصفاتهم وأخلاقهم ، وقد كانوا على الجُملة شرا كبيرا ، وذكر أعمالهم داخل السّجون واختصاصهم في التعذيب وفنونه وبيّن مشمولات ادارة السّجن وموارد السّجون وإنفاق الدّولة عليها وأجور السّجّانين . . . وتحدّث عن السّجناء فذكر أصنافهم ومراتبهم الاجتماعيّة وظروف حياتهم وعلاقاتهم داخل السّجن وحلّل علاقات مجتمع السّجن بالمحيط الخارجي من مراسلات وزيارات ووساطة وشفاعه . . . وحلّل ـ في نطاق هذا الفصل الثاني من بحثه ـ « الطُرق الى السّجن » وجعلها في أربع مقالات كانت أولاها « السّجنُ في السّياسة » وتعرّض فيها للشعراء الذين سُجنوا بوقائع العصبيّة القبليّة أو بمطامح

سياسيّة ، وبينّ تطوّر العصبيّة القبليّة زمن بني العبّاس الى عصبيّة عرقيّة وتحوّل مضمونها من معنى النّسب والقرابة الى المعنى السّياسي . ثمّ تحدّث عن الشعراء الذين سُجنوا بالمعارضة والثوْرة والتمرّد ولا سيما في العراق « وكان وضْع العراق الجغرافي والقبلي يعدّه لأنْ يكون قطر الانتفاض والحروب . . . » (ص 208) . وذكر الثوّار وأتباعهم في البوادي والمدن ، والشعراء الذين سُجنوا بالمؤامرات والمكايد السّياسيّة .

وجعل المؤلّف عنوان المقالة الثانية من هذا المبحث « السّجن في الخيانة والعصيان » وقسّمها قسمين أولهما « السّرقة واختلاس الأموال العموميّةممّا كان يرتكبه الجُباة وحبسُهم بذلك وإرهاقهم بالعذاب و « كثيرا ما كانت أجهزة الحكم مسرحا لكبار المختلسين » (ص 289) . وذكر في القسم الثّاني من هذه المقالة مَن سُجنوا بالصّعلكة وبحث بحثًا طيّبا في اللّصوص المحترفين ممّن كانوا شعراء أو قالوا في حبوسهم شعرا . وكان عنوان المقالة الثالثة « السّجن في مخالفة الآداب والأعراف » وتناولت بالبحث شعراء سُجنوا بتصريحهم ـ في الغزل خاصّة ـ بما ينافي الدّين والأخلاق وكان هذا السبب المباشر في سجنهم ، ولكنّ المؤلف أثبت أن وراء هذا السّجن أسبابا حقيقية غير مباشرة أهمّها سياسي . ومن الشعراء مَنْ سُجن لأسباب أخلاقية صرفة . أمّا المقالة الرّابعة فكانت في « السّجن في المعتقدات » وقد اهتمّ المؤلّف فيها بمَن سُجن من الشعراء بتهمة الزّندقة : « فقد تتبّع الخلفاءُ مَن ظهر الإلحاد في أشعارهم وأقوالهم وكتبهم وسلوكهم وقتلوا مَن امتنع منهم من توبةٍ » . (ص 339) . ومن الشعراء مَن اتُّهم بهذه التهمة لمبالغته في المجون وإيغاله في المُجاهرة به ، ومنهم مَن اتّهم بها وسُجن ممَّنْ كانوا زهادا ومتصوفة أو مشتغلين بالحكمة ، « على أنّ سهولة الاتّهام بالزندقة (. . .) يسّرتْ على ارباب السلطان أن يقذفوا بها مَنْ شاؤوا . . . » (ص 375) .

وانتقل المؤلف في الفصل الثالث الكبير من فصول كتابه ، الى بيان مصادر شعر الأسر والسّجن فذكر وفرتها وصعوبة حصرها وصنّفها تصنيفًا أوّليًا الى مصادر سبقت عصر التّدوين ومصادر تلته ، وذكر شعر القبائل وشعر المدن وما يوجد من شعر الأسر والسّجن في ما بقي من دواوين القبائل ودواوين الشعراء وكتب الوقائع والحروب وكتب التاريخ والنقائض وكتب السّيرة والصّحابة وكتب الأخبار والأدب والتراجم وكتب البلدان وكتب اللّصوص . . . وأورد عناوين لبعض الكتب التي خصّصها أصحابها لهذا الغرض ومنها كتاب « صفة السّجن والمسجون والحزن والمحزون » لابن غصن الحجاري وكتاب « إعتاب الكتّاب » لابن الأبّار : ولكنّنا نراه أخطأ (ص 399) في اعتبار هذا الكتاب « نوعا من التأليف في باب السّجن والحبس » إذ المعروف أنّ كتاب ابن الأبّار إنْ هو إلاّ تأليفٌ في تراجم الكتّاب ممَّنْ غضب عليهم مخدوموهم ، أكثرُهم لم يُسجن وأغلبُ مَن سُجنَ منهم لم يُؤثَرْ عنه قولُ الشعر (1) . وذكر المؤلف فصولا خصّصها أصحابها للسّجن ضمن كتب عامّة مثل فصل « قولهم في السّجن » الموجود في « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، وفصل « ما جاء في الحبس والقيد والضّرب » الموجود في « محاضرات الأدباء » للرّاغب الأصفهاني . واستنتج ـ فيما يتعلّق بحجم هذا الشعر ـ أنّه غزيرٌ لا يأتي عليه حصرٌ و « لهذه الغزارة في تاريخ الشعر العربي أسباب مختلفة (. . .) أشهرُها كثرة مَن دخل الحبوس من الشعراء (. . .) والسّاسة والعلماء والأدباء والقواد والقضاة وأصحاب المذاهب ، وكان الكثير منهم عالي الطبقة في الثقافة الأدبيّة وله في الشعر محاولاتٌ مرضية » (ص 402) ؛ ومن أسباب الغزارة طولُ مُدَدِ الحبس وكوْن الشعر من أقوى الذّرائع للخروج من السّجن يقدّمه الرّجل بين يدي حاجته الى ذويه وقومه كيْ ينهضوا بأمره عند السّلطان أو يبعث به الشعراءُ الى الحكّام .

(1) انظر : « إعتاب الكتّاب » . تحقيق صالح الأشتر ط 1 . مجمع اللغة العربيّة بدمشق 1961 .

وأشار المؤلف الى ضياع جانب هامّ من هذا الشعر وبيّن أسباب ضياعه ، وقد كانت جغرافية ودينيّة وسياسيّة ، ونبّه الى ما كان من وضْع ونحل في شعر الأسر والسّجن وذكر أسبابه المتمثّلة في « العصبيات القَبَليّة واختراع القُصّاص الخبر ليُناسب الشعرَ أو الشعر ليُوافق الخبر أو الشعر والخبر معًا . . . » (ص 449) .

ثم انتقل الى آخر فصول كتابه وأهمّها حجمًا وهو « أغراض شعر الأسر والسّجن وخصائصه » فجعله في مبحثيْن : الأغراض ثم الخصائص الأسلوبيّة وصنّف أغراض هذا الشعر الى ثمانية أوّلها ما سمّاه « الجوانب النفسيّة » وخصّصه للبحث في مواقف الشعراء من السّجن ، وقد بيّن أن الشعراء المسجونين لئن اتفقوا في اعتبار السّجن محنة وعذابا فقد وقفوا منه موقفيْن : موقف ضعف وتصاغر وتذلّل سلك أصحابه فيه مسلك الخوف والشكوى والانهيار المفضي الى التّعبير عن التّوبة والتماس الغفران ممّن سجنوهم ومدحهم بعكس ما به يتّصفون ـ « وما المدْح في هذه الحال إلاّ الوجه السّلبي للسّياسة العامّة في الحكم التي فرضت على النّاس التّصاغر وانتحال العبوديّة قولا وشعورا » (ص 543) ـ وموقف ثبات ومكابرة وتحدٍّ يعتبر السّجن مثوى الأحرار ومُعتَصَم الأشدّاء والأجلاّء لا يزيدهم عذابُه وضيقُه وظلامُه وقيودهُ إلاّ عنادا وإصرارا وثباتا على المبدإ . وقد دلّل المؤلّف على هذيْن الموقفيْن تدليلا حسنا لوْلا ما أطلقه (ص ص 540 ـ 544) ـ في شأن أصحاب المؤلف الثاني ـ من أحكام أخلاقية لا نُقرّها كرميه إيّاهم بالتمويه والادّعاء والكذب : فكلا الموْقفيْن من السلطة ومن السّجن يبدو لنا طبيعيًا عند استقراء علاقة المثقفين بالسّلطة . وأضاف المؤلف الى « الجوانب النّفسيّة » ما توحي به أجواءِ السّجن من نظرة خاصّة الى الموت والقدر . ثم أشار الى غرض من أغراض شعر الحبوس جمع فيه منه ما يتعلّق بالتعبير عن اليأس والأمل والشوق الى الأهل وذكر البرْق والنّيران والطيْر وسمّاه « الجوانب العاطفيّة » غير أنّ فصله

بين ما هو « نفسي » وما هو « عاطفي » بدا غير واضح وغير مقنع خصوصا وأنّه تحدّث في الجوانب النفسيّة (ص ص 471 ـ 472) عن الهموم والآلام والبكاء والذلّ والغربة والصبر، وهي أمور عاطفيّة في المقام الأوّل، ثم كرّر الكثير منها في العنوان الثاني حين ذكر (ص 488 وما بعدها) الحنين والبكاء . وحلّل أغراضا أخرى من هذا الشّعر ضمن ما سمّاه « الجوانب الفكريّة » فذكر معنى الاعتبار والحكمة الذي سيطر على الكثير من شعر السّجن وورد غالبا في شكل استنتاجات توصّل اليها مَن نُكبُوا بعد مجدٍ وذلّوا بعد عزّ . وحلّل المؤلّف (ص ص 508 ـ 552) غرضا بدا له من أهمّ أغراض هذا الشعر وهو « وصف المعتقلات والعذاب » فألّف من شتات المقول الشّعري صورة لمنظر السّجن الخارجي وصُورة للسّجّانين وصورا للتعذيب وفنونه . . . وبيّن (ص ص 523 ـ 544) ما يتّصل من هذا الشعر« بمواقف السّجناء من السّلطان » وهي مواقف تتردّد بين العتاب والاعتذار والاستعطاف والاستغاثة والعبوديّة وبين السّخط والعناد والتحدّي « فالثائر الحقّ قد يُعارض روح عصره بما فيه من قوّة نفسيّة (. . .) وإذا استسلم استسلم مكرها استسلام الأبطال لا العبيد . . . » (ص 535) .

وجاء جانب من شعر السّجن والأسر في ما سمّاه المؤلف بغرض « القرابة » أي ما قيل في الأهل والأقارب ، ولاحظ ضعف هذا الغرض قبل القرن الثاني الهجري وقوّته بعده ، وعزا القِلّة الى طبيعة هذا الغرض الذي لم تكن له صلة بالدّواعي القبليّة والسّياسية والتاريخيّة إذ كان لها دورٌ كبير في بقاء الأثر الأدبي أو اختفائه أو تحويره » (ص 545) . وفسّر قلّة ظهور الزوجة في شعر الأسر والسّجن بما سمّاه (ص 547) « الخجل الاجتماعي » ؛ وهو تفسيرٌ لا نوافقه عليه تمام الموافقة إذ تبدو لنا المسألة ذات صلة ـ فيما يتعلّق بالجاهلية وبداية العهد الإسلامي ـ بنوع التركيب الاجتماعي العربي الذي كان تركيبا قبَليّا ، وقد أفادتنا المباحث الاجتماعيّة والأنتروبولوجيّة بأنّ التركيب

الاجتماعي القبلي ينفي العلاقات الزوجيّة لأنّها تنقضه وتنخره من الأساس ، ولذلك انعدم أوْكاد ـ فيما نعلم ـ ذكرُ العلاقات الحميمة التي تكون بين الزّوجين في الشعر الذي بقي لنا من هذا الطوْر : ولنا في هجاء الفرزدق لجرير برثاء زوجته خير مثال على ذلك (2) . . . وآخرُ أغراض هذا الشعر الغزل « ومن اليسير تمييز أنماط من هذا الغزل يتّصل كلّ نمط منها في خصائصه ومضامينه العاطفية والجمالية بذوق عصره (. . .) ولكنّه غزل صادر عن دوافع وحاجات نفسيّة نجمتْ في محنة الحبس ، وليس تقليدا فنيا فحسب » (ص 564) .

وأنهى الدكتور البزرة دراسته هذه بالبحث في خصائص شعر الأسر والسّجن وسماته الفنيّة فقسّمه قسمينْ معتمدا في ذلك مقياسا كمّيا هو عدد الأبيات، مميّزا فيه بين القصائد الطوال ـ وقد سمّاها الحبْسيّات ـ وبين المقطوعات وصغار القصائد . وقسّم الحبسيات الى ثلاثة أنواع هي : « حبسيّات المدح » وهي القصائد التي يمدح فيها المسجون ذا السّلطان والشأن طالبا إعتاقه من سجنه . وقد بيّن المؤلّف طرافة هذه المدحيات بمقارنتها بالمدحيات العادية المنظومة خارج السّجون : ومن مميّزات المدحيّة طول المقدمة وقلّة أبيات المدح بعدها . غير أنّ المؤلف لمْ يُقنعنا ـ في هذا المستوى من دراسته ـ بالتصنيف الذي أجراه في هذه الحبسيات فلم نتبيّن مثلا الفرق بين ما سمّاه الحبسيات ذات المقدمة التقليديّة وما سمّاه الحبسيات ذات المقدّمة الذّاتية

---

(2) انظر قصيدة جرير في رثاء زوجه خالدة التي يقول منها :

لـولا الحيـاءُ لـعـادني استـعْـبـارُ ولَـزرتُ قـبـركِ والحـبـيـبُ يُـزارُ »
« ولَهِـتِ قـلبـي إذْ عـلـتـني كَـبْـرَةٌ وذوو التّـمـائم من بنيـكِ صِـغَارُ »

ديوانه ط. دار صادرودار بيروت 1964 ص ص 154 ـ 160 .

وانظر نقيضة الفرزدق لها التي يقول منها :

« أبكى الإلاهُ عـلى نَبيشةَ مَن بكى جَـدَفًا يـنـوحُ عـلى صـداهُ جِمارُ »
« تبكي عـلى امـرأةٍ وعنـدك مثلمهـا قعسـاءُ ليس لهـا عليـك خِمارُ . . . »

« نقائض جرير والفرزدق » II/866 ـ 879 ط. ليدن . 1907 .

وما سمّاه الحبسيات ذات المقدّمة الغزليّة ، خصوصا وهو يتحدث عن النّوع الأوّل (ص 583) فيقول : « وهي تبدأ بمقدّمة الغزل » وعن النّوع الثاني فيقول (ص 584) « ويجعل بعضها من الغزل مقدّمات » وعن الثالث فيقول (ص 592) : « فالغزل في المطلع رسم معروف . . . » .

والنّوع الثاني من الحبسيات هو « الحبسيات القبليّة » ، وهي تختلف عن الشعر القبلي عامّة بحضور ذات الشاعر فيها حضورا هاما . أمّا خاصّيتها التركيبية فكوْنها ذات نظام ثنائي : قسم ذاتي وقسم قبلي . والنّوع الثالث من الحبسيات هو « الحبسيات الوجدانية » والمراد بها « تلك الصّادرة عن الذّات تعبيرا عن المعاناة والضّواغط النّفسيّة التي لابست السّجين ولم تتناول موضوعا آخر خارجا عن الذات » (ص 616).أمّا المقطوعات فهي أكثر ما نُظم في الأسر والحبُوس ، وهي « موافقة للخواطر والمشاعر التي تُلمّ بالسّجين فيصوغها في أبيات موجزة معبّرة » (ص 637) . وأمّا قصارُ القصائد فقد جمعت فضائل المقطوعة وفضائل القصيدة الطويلة : « تركيز في غير اقتصاد وإشباع في غير إسراف » (ص 641) .

وبعد أربع وستين صفحة تفصل هذا المستوى من البحث عن عنوانه وهو « خصائص شعر الأسر والسّجن وسماته الفنيّة » وضع المؤلف هذا العنوان « خصائص الأسلوب » ، وانتهى الى أنّ أبرز خصائص هذا الشعر الصّدْقُ « فالصّدْقُ هو الطابع المميّز لشعر السّجن » (ص 646) ، وأوّل مظاهره « البوْح » و « النّجوى » و « الوصف » ، « وأوّل سِمةٍ في هذا الوصف هي الواقعيّة والحوارُ » (ص 652) . غيْر أنّ القارىء الذي له حظّ يسير من معرفة بالأسلوب واطّلاع على الدّراسات الأسلوبيّة الحديثة يستغرب هذا الكلام ويلاحظ بُعْدَهُ تماما عن موضوعه : فما معنى قول المؤلف إنّ الصّدْق من خصائص شعر السّجن الأسلوبيّة ؟ وما معنى واقعيّة الصّدْق . . .؟

وقد لاحظنا أنّ المؤلف اكتفى في هذا الفصل المطوّل من بحثه ـ وهو فصل من المفروض أن يكون أهمّ فصوله ـ بدراسة بنية القصائد ومعانيها الكبرى ، وقارن بين التقليدي منها وغيره ، معتمدا مقياس المحتوى فحسب ، فلم يدرسْ خصائص هذا الشعر المعجميّة والصّوتية وحقوله الدّلاليّة وصوره وأخيلته وأساليبه البلاغيّة في صلتها بالسّجن . . وهي أمور كفيلة بإبراز « خصائص » هذا الشعر فعلا . أمّا الحديث عن « حبسيات المدح » و « الحبسيات القبليّة » و « الحبسيات الوجدانيّة » فهو، في رأْنا، مواصلة للاهتمام بالأغرض والمعاني لا بحثٌ في السّمات الفنيّة والخصائص الأسلوبيّة. والأدلّة على هذا الخلط بين المعاني والسّمات الفنية كثيرة جدا، نورد منها قول المؤلّف (ص 595) : « لا يفوت ابنَ زيدون شيءٌ من معاني المدح المطروقة ، ولكنه يولي عنايته المعاني التي تروق رجل دولة صغيرة (. . . .) وهي معان تدور حول ألمعية الحاكم ونباهته » وقوله (ص 616) : « والموضوع الأساسي في هذه القصائد هو الهموم والآلام . . . » وللمؤلّف في هذا الفصل أيضا أحكامٌ ارتسامية قيميّة تصف الأسلوب وصفا غير علميّ مثل قوله (ص 597) ، في الاستشهاد بشعر أبي الحسن التّهامي : « كان التضخّم ضعفا جنح فيه الشاعر الى إطالات تافهة فيها من الإساءة أكثر ممّا فيها من إحسان » أوْ قوله (ص 613) : « أمّا الشاعر المحرزي فقد كان ذا قدرة حسنة على التصرّف في فنون القول . . . » .

ولكنّ المؤلّف قد أصاب في ملاحظات جزئيّة كثيرة وخصوصا حين ربط (ص ص 654 ـ 656) بين ذاتية الشّعر وعناصر الجدّة والطرافة ، وحين ربط (ص ص 662 ـ 667) ما سمّاه « اللّفاظية والبديع » بحبسيات المدح إذْ فسّر مظاهر التّقليد والصّنعة بالمقام وبنوع المخاطَب الذي إليه يتوجّه الشاعر : « وأكبر العوامل تأثيرا في اللّفاظيّة البلاطُ الخلافيّ ، فقد كان يطلب الشعر الرّقيق الأنيق . . . » (ص 663) . وختم المؤلّف دراسته بخاتمة عامّة

جاءتْ قصيرة قِصرا مُخِلًّا إذْ لم تتجاوز الصفحتين ، ولعلّ هذا عيب منهجي كبير في بحث يربو على السّبعمائة صفحة .

هذه هي جملة الملاحظات التي أردنا إبداءها ونحن نعرّف بدراسة السيد أحمد مختار البزرة . وإنّا بعدُ لَواثقون من أنّ المؤلّف أفاد بهذا الكتاب قرّاء العربية عامّة والمهتمين بالأدب خاصّة. ويكفي دراستَه أنّها ـ رغم اقتضاب الدراسة الاسلوبية واختصار الخاتمة ـ جمعتْ أشتات غرضٍ بدا لنا من أهمّ أغراض الشعر العربي وأثراها وأقربها الى أنفُس قائليها وأبعدها أثرا في قارئيها ، فعكستْ بذلك رهافة حسّ المؤلّف وحُسن اختياره وطول صبره وواسعَ علمه بمظانّ الشّعر القديم ، وكشفتْ كشفا كافيا عن صدى تجربة السّجن في الشّعر العربي .

مبروك المنّاعي

رسائل أبي حيان التوحيدي
مصدرة بدراسة عن حياته وآثاره وأدبه

- عني بتحقيقها ونشرها : الدكتور إبراهيم الكيلاني .
- دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر الطبعة الاولى 1985 .
- 427 صفحة .
- تقديم : محمد البحري .

يحتوي الكتاب على دراسة عامة عن أبي حيان التوحيدي وعلى الرسائل التي عني الدكتور ابراهيم الكيلاني بـ « تحقيقها » ونشرها ، فقائمة لبعض المراجع العربية والاجنبية ففهرس للكتاب .

وتنقسم الدراسة (ص ص 9 ـ 197) الى أربعة فصول خصص المحقق الفصل الاول منها (ص ص 9 ـ 23) لبحث الجوانب السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية لعصر التوحيدي . وقد ركز في دراسته الجانب السياسي على انقسام العالم الاسلامي الى دويلات متنازعة متنافسة ، معتمدا في ذلك على ما كتبه جرجي زيدان في ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ ومحمد الخضري في ـ محاضرات تاريخ الامم الاسلامية ـ وتحدث بإيجاز عن ازدهار

الحياة الثقافية خاصة في العراق زمن البويهيين، ووصف الحالة الاجتماعية والاقتصادية السيئة ، وتعرض بالخصوص لوضع العلماء والأدباء المادي السيء ولأثر هذا الوضع على الادب . (ص ص 25 ـ 69) .

وتناول في الفصل الثاني (ص ص 25 ـ 69) حياة أبي حيان التوحيدي فمر سريعا على نشأته واعتنى خاصة بذكر شيوخه الذين أثّروا التأثير البالغ في شخصيته الفكرية والأدبية . ثم ذكر قصة اتصاله بالوزراء المهلبي وابن العميد وابن عباد وتعرض الى فشله الذريع مع الوزراء الثلاثة وحاول تبيّن أسباب ذلك خاصة مع ابن العميد (ص 47) مستشهدا ببعض ما رواه التوحيدي نفسه (1) . وانتقل الى الحديث عن عودة التوحيدي الى بغداد واتصاله بـ « ابن العارض » (كذا) ثم تناول بالبحث ما عرف عن التوحيدي من ازدواج الشخصية (ص 58) ومن تشاؤم وسوداوية في المزاج ، وذكر تاريخ وفاته قائلا : « ونعلم يقينا أنه مات سنة 414 هـ » (ص 69) . وقد اعتمد في ذلك على عدة مصادر ، منها طبقات الشافعية .

وخصص الفصل الثالث (ص ص 73 ـ 150) لـ « جوانب أبي حيان التوحيدي » فذكر مؤلفاته : الكتبَ منها والرسائل، والمعروفة منها والضائعة، وقد قسمها الى آثار أدبية ومنها الامتاع والمؤانسة وآثار فلسفية ومنها المقابسات وآثار صوفية ومنها الاشارات الالهية وكتب التراجم والجدل ومنها ـ رسالة الامامة ـ ؟ وكتب مجهولة المضمون اكتفى بذكر عناوينها والاحالة على مظانها في المصادر . ولنا عودة الى موضوع مؤلفات التوحيدي .

انتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث في تهمة الزندقة التي رمي بها التوحيدي فأورد بالخصوص آراء ابن فارس والذهبي والسبكي فيه (ص 104) . ولكنه لم يغفل عن إيراد بعض الآراء المنصفة للتوحيدي ومنها رأي

(1) في معجم الأدباء ج 15

محمد كرد علي (2) (ص 106) . وتوسع في موضوع أسباب هذه التهمة فذكّر بتصوّف التوحيدي وموقف الفقهاء من التصوف (اعتمادا على لويس ماسينيون (3)) وبمذهبه المعتزلي وبموقف المعتزلة من الحديث النبوي ، مُنْتَهيا الى أنّ « الخلاصة أن صوفية التوحيدي واعتزاله وموقفه من الحديث الشريف ، هذه الأمور الثلاثة مجتمعة كانت من العوامل التي شجّعت خصومه على الشكّ في عقيدته ونسبته الى الفكر والزندقة ... » (ص 115) .

مرّ المحقق بعد ذلك إلى الحديث عن أدب التوحيدي (ص 115) ليصف أهم خصائصه وبعد أن أورد رأي التوحيدي في فن الكتابة (ص ص 117 ـ 118) استخلص أهم خصائص هذا الفن وهي :

أ ـ التناسب بين الألفاظ والمعاني .

ب ـ حسن الربط بين الافكار .

ج ـ تنوع الثقافة (ص ص 118 ـ 123) .

ولم يغفل المحقق عن الحديث عن تأثير أدب أبي عمرو بن بحر الجاحظ وأسلوبه في كتابات التوحيدي .

ثم عقد فصلا موجزا في المقارنة بين طريقتي الجاحظ والتوحيدي في الكتابة (ص ص 127 ـ 131) ثم تطرق الى فهم التوحيدي للبلاغة فإلى فنّه التصويري والنقدي وقد استشهد ـ بخصوص هذا الفنّ ـ بنصوص من الامتاع صوّر فيها أبو حيان بعض أعلام عصره كابن زرعة والقومسي وغيرهما (ص ص 134 ـ 141) . وانتقل بعد ذلك الى الحديث عن فن الاضحاك عند التوحيدي فحلّل بايجاز أصول هذا الفن وأبعاده بالاعتماد على الفيلسوف

---

(2) في كتابه : أمراء البيان

(3) في كتابه : La Passion d'Alhallaj

الفرنسي هنري برجسون (4) . واستشهد بهجاء التوحيدي لابن عباد كمثال على ذلك (ص ص 145 ـ 150) . وختم هذا الفصل بإبراز المكانة العالية التي تبوّأها التوحيدي (بأدبه وفكره) في الادب العربي (ص ص 150 ـ 152) .

اما الفصل الرابع (ص ص 153 ـ 197) فيشتمل على « نصوص مختارة من كتب أبي حيان التوحيدي » وهي ثلاثة عشر نصّا من مختلف مؤلفاته قصَدَ المحقق بإيرادها الى التعريف بجوانب شخصية أبي حيان الفلسفيّة والعلمية والادبية . وقد قدم لكل نص بمقدمه قصيرة لا تتجاوز في أغلب الحالات سطرين اثنين (5) .

يضم القسم الثاني من الكتاب (ص ص 199 ـ 414) تسع رسائل لابي حيان التوحيدي قال عنها إنه عني بتحقيقها ونشرها . وقد قدم لكل رسالة بتقديم موجز ، وأثبت صورا لبعض صفحات مخطوطات رسائل السقيفة والحياة والعلوم . والرسالة الموجهة الى ابن العميد ، وسنعود الى مسالة هذه الرسائل فيما بعد .

ولعل القارىء أحس ـ من خلال هذا التقديم ـ أن ما قُدّم اليه ليس غريبا عنه ، وفعلا ، فإن « الدراسة عن التوحيدي وآثاره وادبه » التي صدّر بها

---

(4) في كتابه : le Rire وقد طرأ على اسم الكتاب خطا مطبعي (Se Rire)(ص 143)

(5) هذه النصوص هي : أثر الطبيعة والصناعة (من المقابسات) ـ الشوق والحنين (من الهوامل والشوامل) ـ مناجاة صوفية (من الاشارات الالهية) .
ـ دستور الكتابة (من الامتاع والمؤانسة) ـ دستور البلاغة (من البصائر والذخائر) ـ النظم والنثر (من المقابسات) ـ نوادر الحيوان (من الامتاع والمؤانسة) ـ حرفة الشؤم (من مثالب الوزيرين) ـ الصداقة والصديق (من الصداقة والصديق) ـ أحوال المجتمع (من الامتاع والمؤانسة) ـ صورة الصاحب ابن عباد (من الامتاع والمؤانسة) ـ تَفعال (من الامتاع والمؤانسة) ـ سراويل (من الامتاع والمؤانسة) . هذا وقد أورد المحقق عنواني : ـ رسالة الحياة ـ ورسالة السقيفة ـ دون أن يثبت نصيهما ، وإنما أحال عليهما في القسم الثاني من الكتاب .

الدكتور رسائل أبي حيان لم تأت بجديد (6) إنما هي مجرد تكرار للمألوف من المعلومات لدى القارىء العادي ـ فضلا عن الباحث ـ . فكامل الفصل الاول مثلا ليس إلا مجرد تكرار لما ذكرته كتب مؤرخي عصر التوحيدي ، منذ أوائل هذا القرن ، ووصف كتاب الامتاع والمؤانسة (ص ص 78 ـ 79) لا يعدو مجرّد تلخيص لمقدّمة أحمد أمين لهذا الكتاب مع شيء من التصرف . وبالاضافة الى هذا تبقى الدراسة وصفية سطحية بدون تحليل يذكر وتنتفي فيها الطرافة المطلوبة من كل دراسة حديثة الظهور . وإنّا نستغرب صدور مثل هذا العمل من الدكتور ابراهيم الكيلاني هذا الناقد الذي عاشر مؤلفات أبي حيان ما يقارب أربعين سنة (7) .

وهناك ملاحظات جزئية تتصل بمنهجية هذه الدراسة وبعض الافكار فيها يجب الا نغفلها ، ونوجزها في الامثلة التالية :

* خلط المحقق في بعض الاحيان بين أقواله وأقوال التوحيدي (كما في ص 119) ممّا جعل الامر يلتبس على القارىء .

* اتكل في حديثه عن ابن سعدان (وهو يسميه « ابن العارض » (كذا) (8) على قول التوحيدي فيه ، وكان عليه أن يتثبّت علميا ، لأن قول التوحيدي مدح لولي نعمته ، فلا يعتبر وثيقة صادقة يطمئن اليها الباحث (ص 57) .

---

(6) وقد لاحظنا فيها تعثرا في الاسلوب لا يخفى على القارىء ، كقوله في ص 19 في وصف الوضعين الاجتماعي والاقتصادي في عصر التوحيدي « . . . وتباعد في الطبقات الشعبية » (كذا) ولعله يريد التباعد بين طبقات المجتمع . وكذلك الكثير من الاخطاء المطبعية (ومنها ما يغيّر المعني تماما) كقوله في ص 132 : « . . . في ضبط العلوم البلاغية وتعقيدها . . . (كذا) ولعله يريد « تقعيدها » كما يدل عليه السّياق .

(7) يعتبر الدكتور ابراهيم الكيلاني ـ نظرا الى مؤلفاته ـ من « المختصين » في أدب التوحيدي فعلى سبيل المثال لا الحصر : قدم أطروحة دكتوراه عن أدب التوحيدي (بالفرنسية) سنة 1950 وحقق « ثلاث رسائل لابي حيان التوحيدي » سنة 1951 واصدر كتابا بعنوان ابو حيان التوحيدي سنة 1957 ونشر مثالث الوزيرين سنة 1961 والبصائر والذخائر سنة 1964 الخ . . . وتجد تفصيلا عن ذلك في ص ص 78 ـ 103 من هذا الكتاب الذي نقدمه .

(8) انظر ص ص 55 ـ 57 .

* قسم مؤلفات التوحيدي (ص ص 77 ـ 102) الى أدبية وفلسفية وصوفية الخ . . . وهذا التقسيم لا يستقيم ، اذ كيف يمكن حشر « رسالة في علم الكتابة » ضمن الآثار الادبية ؟

وكيف يستقيم حشر المقابسات ضمن الآثار الفلسفية،والحال ان هذا الكتاب متنوع المواضيع كالامتاع تقريبا . الخ . . . ان التقسيم صعب نظرا لعمومية أغلب مؤلفات التوحيدي وتنوع مواضيعها،والمنهج العلمي يحتم الاحتراز في مثل هذه المسألة . وقد قال الدكتور نفسه في ص 95 : « فهو لم يكن فيلسوفا . . . بل هو أديب متفلسف متصوّف . . . » فما الداعي الى هذا التعسف في التقسيم إذن ؟

* اعتبر المناظرة بين أبي سعيد السيرافي ومتّى بن يونس القنائي « رسالة » وأفرد لها عنوانا بين مؤلفات التوحيدي (ص 102) كأنها أثر مستقل ، وذلك لان مارغليوث نشرها بالمجلة الآسيوية سنة 1905 ، والحال أنها موجودة ضمن كتاب الامتاع والمؤانسة .

* ذكر ان طرائق الكتابة أربع منها طريقة القاضي الفاضل (ص 124) ثم تساءل : « الى أيةّ من هذه الطرائق الاربع ينتسب التوحيدي ؟ » (ص 125) والمعروف ان القاضي الفاضل عاش بعد التوحيدي بحوالي قرنين فهل كان لطريقته مفعول « رجعي » ؟ (9) .

* ذهب الى أنّ من بين المؤثرات في نثر التوحيدي علم النحو (ص 121) ولا ندري باي وجه من الوجوه يؤثر النحو في أسلوب الأديب أو لغته وبصفة خاصة أسلوب التوحيدي .

---

(9) التصنيف نفسه (أربع طرائق) فيه تعسّف كبير . ومن ناحية أخرى ، لِمَ اهمل ذكر عبد الحميد الكاتب والهمذاني والحريري . . . ؟ . هذا وقد قال في حديثه عن طرائق الكتابة « ولأن الاسلوب هو الكاتب (كذا) كما يقول Buffon . . . » . والمعروف أن عبارة بوفون هي الاسلوب هو الانسان نفسه . Le style est l'homme même) (انظر ص 124)

* ذكر في ص 139 أنّه « . . . من كمال هذا الفنّ (إبراز العيوب) عند التوحيدي استعماله أدوات الاستدراك والتمنّي التي من شأنها إظهار العيوب وتغليبها على الصفات الحميدة . . . » فهل هذه الادوات من خصائص الهجاء ؟ ألا يرى القارىء أن الاستدراك والتمنّي يستعملان في الاساليب الانشائية اكثر مما يستعملان في الأساليب الخبريّة (10) ؟

* على ان الملاحظة الاساسية تتعلق بالكتاب ككل . فمنهجيا ، بما أن الكتاب « تحقيق » لرسائل ، كان يحسُن بالمحقق أن يتناول في تصديره مسألة الرسائل وفنّ الترسل وخصائصه ومنزلة التوحيدي منه ، لا أن يلمّ إلماما بأدب التوحيدي دون أية إشارة الى فنّ الترسّل . وكان يمكنه أن يستغني عن إيراد « النصوص المختارة من كتب أبي حيان التوحيدي » فهذه النصوص تجعل الكتاب في مصاف المنتخبات المدرسية ، في حين يطمح الكتاب لأن يمدّ الباحثين بمادة تراثية كما يدل عليه عنوانه . وبعد ، هل « حقّق » الدكتور الكيلاني الرسائل في هذا الكتاب ؟ لا ، في الواقع ، فهذه الرسائل سبق أن حُقّقت . حَقّق منها الدكتور نفسه ثلاثا سنة 1951 . ونشرت رسالة في العلوم مع الصداقة والصديق سنة 301 هـ . ونشرت رسائل أبي حيان الى أبي الوفاء المهندس والوزير ابن سعدان في كتاب الامتاع والمؤانسة (11) ونشرت رسالته الى القاضي ابي سهل علي بن محمد في معجم ياقوت . . . فلماذا لم يدمجها إذن مع المختارات التي سبق الحديث عنها ؟ قد يكون لاعادة التحقيق هدف هو التحقيق العلمي الذي يتدارك نقاط الضعف فيما سبق . لكننا بمقارنة

(10) لم نعثر في الامثلة التي أوردها على ما يفيد التمني . والحرف ـ لولا ـ الذي ورد في ص 139 حرف شرط يفيد الامتناع . ويُفهم من سياق النص أن المحقق يعتبره أداة تمنّ .

(11) تصرّف الدكتور في ترتيب رسالتي التوحيدي الى ابن سعدان . فجعل الثانية قبل الاولى ، رغم أن التوحيدي نفسه نصّ على ترتيبها (الامتاع ج 3 ص 210) . وقدّم عليهما رسالته الى أبي الوفاء ، رغم أنها تليهما إذ هي خاتمة الامتاع ، ولا ندري ماذا قصد الدكتور بذلك .

النصوص وجدنا انه ليس هناك اي فرق بينها ، فقد اكتفى المؤلف بإعادة طبع هذه الرسائل طَبْعًا متسرعا جعلها تعج بالاخطاء .

ولنأخذ على سبيل المثال الرسائل التي سبق له أن حققها . فتقديم رسالة السقيفة ورسالة في علم الكتابة هو هو . وصور المخطوطين هي هي . ونصوص الرسائل الثلاث هي نفسها . (عدا الشروح الطفيفة لبعض الالفاظ في الكتاب الجديد (12) .

وقد اثبت المحقق قائمة بمصادر الكاتب ومراجعهِ (وقد سمّاها كلّها مراجع) بتواريخ طبعاتها وعند الرجوع الى هذه المصادر تبين لنا كثير من الاخطاء في الاحالات ، وتصرّفٌ في نصوص المصادر والمراجع أساء إليها :

في « رسائل ابي حيان التوحيدي » الصواب

ص 20 هامش 1 : المصدر : الامتاع والمؤانسة 130/1 ــــ الامتاع 31/1

ص 20 هامش 4 : المصدر معجم الادباء 151/19 ــــ معجم الادباء 152/19

ص 22 هامش 1 و 2 : المصدر الامتاع 11/1 ــــ الامتاع 7/1 الى 11

ص 28 هامش 4 : بدون إحالة ــــ البصائر 475/2

ص 30 هامش 2 : وفيات الاعيان 130/1 ــــ معجم الادباء 149/8 (وعبارة « يريد أنه سهله » لياقوت وليستْ للمحقق)

ص 30 هامش 4 : بدون إحالة ــــ معجم الادباء 172/8

---

(12) في مجموع ثلاث رسائل . . . ورد في رسالة السقيفة اسم هشام بن عروة ، فترجم له المحقق . وفي « رسائل أبي حيان التوحيدي » لم يرد هذا الاسم في الرسالة لان سلسلتي الإسناد مختلفتان في الكتابين (ولم يشر المحقق الى ذلك) ومع ذلك عرّف المحقق بهشام بن عروة ! (انظر ص 6 من مجموع ثلاث رسائل و ص 245 من رسائل ابي حيان التوحيدي) . هذا « والتحقيق » الجديديفتقر الى مقومات التحقيق العلمي فقد أغفل الكاتب مثلا ترجمة كثير من الاعلام الواردة في الرسائل وشرْح بعض المصطلحات الفنية الخاصة بعلم الكتابة الخ . . . ، هذا فضلا عن كثرة الاخطاء في هذه الرسائل .

ص 33 هامش 2 : الامتاع 133/1 ـــ العبارة في الامتاع : (الطريقة المتبعة من علم واضع المنطق) ـــ طريق واضع المنطق

ص 37 هامش 1 : تاريخ الحكماء 186 ـــ وردت العبارة في الامتاع 29/1 ، (والمصدر أولى بالاعتماد من المرجع)

ص 42 هامش 1 : معجم الادباء 28/15 ـــ معجم الادباء 13/15

ص 45 هامش 1 : وفيات الاعيان 58/2 ـــ الامتاع 5/1

ص 45 هامش 2 : الامتاع 66/1 ـــ وفيات الاعيان 75/2 ـ 76 (ولم يجزم ابن خلكان بان القصة المذكورة جرت لابن نباته)

ص 47 هامش 1 : وفيات الاعيان 75/1 ـــ وفيات الاعيان 95/1 (ويبدو ان المحقق اعتمد على الهامش في معجم ياقوت 6 : 168 وفيه خطأ)

ص 48 هامش 1 : معجم الادباء 28/15 ـــ معجم الادباء 13/15

ص 48 هامش 2 : معجم الادباء 28/15 ـــ معجم الادباء 31/15

ص 49 هامش 2 : معجم الادباء 186/6 ـــ معجم الادباء 187/6

ص 50 هامش 1 : معجم الادباء 7/15 ـــ معجم الادباء 32/15 ـ 33

ص 56 هامش 2 : وفيات الاعيان 82/2 ـــ وفيات الاعيان 106/2

ص 56 هامش 4 : الفهرست 394 : (وله عدّة كتب في العدديّات والحسابيات) .

والعبارة في الفهرست : « قرأ على عمّه ما كان من العدديّات والحسابيّات »

ص 65 هامش 4 و 5 : الامتاع 36 ـــ هـ 4 : الامتاع 35/1 ـ هـ 5 : الامتاع 45/1

ص 66 هامش 2 : معجم الادباء 16/15 ـــ معجم الادباء 20/15 (أو رجاء حال جديد) (أو رجاء حال جديدة)

ص 80 هامش 1 : الامتاع : 2/ظ ـــــ الامتاع : 1/2

ص 88 هامش 1 : وفيات الاعيان 60/2 ـــــ وفيات الاعيان 75/2

ص102 هامش 4 : معجم الادباء 7/15 ـــــ معجم الادباء 8/15

ص 109 هامش 1 : الحضارة الاسلامية 74/2 (لأن فيه آثار أنسبائه كيف لا يقطع نفسه هواه) ـــــ العبارة في الحضارة الاسلامية 74/2 « . . . لان فيه آثار أنبيائه كيف لا يقطع نفسه وهواه . . . »

ص117 سطر 13 : « وآيات من القرآن ـــــ في الامتاع : « الى سعته فيها » « مضمومة الى سمته فيها . . . »

ص 118 سطر 1 : « والمجالس المشهورة » ـــــ في الامتاع : « والمجالس المشهورة » (100/1)

ص 119 هامش 1 : الامتاع 64/1 ـ 65 ـــــ الامتاع 64/1 فقط

ص 120 هامش 1 : الامتاع ظ/101 ـــــ الامتاع 101/1

ص 126 هامش 1 : الامتاع 5/1 ـــــ معجم الادباء : 27/3 ـ 28

ص 130 هامش 3 : الحضارة الاسلامية 295/1 (وانقاذ للقرّاء من طريقة العلماء الذين كانت لهم السيطرة الى ذلك الحين والذين كانت كتابتهم ثقيلة) ـــــ العبارة في الحضارة الاسلامية : « . . . بانه إنقاذٌ لهم من طريقة العلماء السائدة الى ذلك الحين والتي كانت ثقيلة . . . »

ص 133 هامش 1 : البصائر والذخائر 364/1 ـــــ البصائر والذخائر 1/من 364 الى 367

ص 137 هامش 3 : غير موجود ـــــ هـ 3 : الامتاع 141/1

ص 138 هامش 1 : الامتاع 141/1 ـــــ الامتاع 43/1 ـ 44 (وتصرفه في النص غير موفق . . .)

ص 138 هامش 2 : الامتاع 43/1 ـــــ الامتاع 44/1

ص 140 هامش 12 : الإمتاع 323/1 ـ 34 : وما يضيفه . . .
وفي الإمتاع : وما يصفيه (بالصاد) .

ص 146 هامش 1 : معجم الادباء 365/6 ـــــ معجم الادباء 264/6 ـ 265

ص 146 هامش 2 : الامتاع 64/1 ـــــ الامتاع 59/1

ص 147 و 148 ـــــ تصرف أفسد نص ياقوت (النص في معجم الادباء 26/15)

ص 148 هامش 3 : معجم الادباء 213/6 ـ 214 ـــــ معجم الأدباء 26/15

ص 177 هامش 1 : البصائر والذخائر 369/1 ـــــ البصائر والذخائر 361/1 ـ 367

ص 215 هامش 1 (ترجمة هشام بن عروة) ـــــ هشام بن عروة لم يذكر في الرسالة

ص 217 سطر 11 : « عنادا الله ولرسوله ـــــ « عنادا لله ولرسوله ولدينه » ولديته »

ص 221 سطر 5 : وقلّسْ إليه أردانك ـــــ وقلّصْ اليه أردانك

ص 225 هامش 1 : الاسرار ـــــ (سورة) الاسراء

ص 250 هامش 1 : وفيات الاعيان 12/1 ـــــ وفيات الاعيان 14/1

ص 345 هامش 1 : 70 ـ 20 سورة المعارج ـــــ سورة المعارج الآيات 19 و 20 و 21

ص 441 سطر 8 : الآية : « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » (38/12) ـــــ « ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعلى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ (38/12) .

محمد البحري

القياس في النحو

تأليف د. منى الياس

نشر دار الفكر

دمشق ـ الطبعة الاولى 1985

تقديم : أحمد حيزم

يتصل موضوع القياس بأصول الدرس النحوي عند العرب ولقد وجد فيه الدارسون المحدثون ما يمكنهم من تتبع قضايا النحو في التراث العربي . وما من شكّ في أنّ الدراسات والفصول التي حاول فيها أصحابها الإلمام بهذا الموضوع لم تذلّل جميع ما يعترض الدارس من العقبات . فمفهوم القياس متشعب وصوره في أعمال النحاة متعدّدة والكثير من آثار النحويين ما بين مفقود أو مخطوط ، لذلك اقتصرت المؤلفة على عمل كبار الائمة فيه . وقد توخّت بعد تردد منهجا تاريخيا سمح لها بتتبّع صور القياس من مرحلة نشأة النحو الى النصف الأوّل من المائة الثامنة . فشمل بذلك عملها العديد من كتب التراجم والطبقات وكتب المنطق فضلا عمّا ألّفه المحدثون من الدراسات والفصول . وقسمت دراستها الى سبعة فصول وسمت أوّلها بعنوان « القياس من بدء نشأته حتى الخليل » تتبعت فيه أقيسة عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي فاهتمت بمعنى القياس في هذه المرحلة ومحاولة أئمتها الكشف عمّا ينتظم من جزئيات اللغة في قانون جامع يستنبط ممّا يقفون عليه من كلام العرب واتضح اطراده في

استعمالاتهم . فدلّ القياس بذلك على التأمل في « واقع الكلام » لاستخراج قوانين تضبط أوضاعه ، على أنّ هذا القياس لم يسلم من الخلل تجلى مثلا في إغفال أئمة هذه المرحلة لبعض اللغات الخاصة في ما جروا عليه من الأصول واستنبطوه من الاحكام (1) أو في تسرعهم في اتهام العرب بالخطأ في ما خالف من كلامهم القياس . وتردّ المؤلفة هذا التسرع الى تداخل معرفة اللغة بالسليقة ومعرفتها بالصناعة وحرص أئمة هذه المرحلة على أن يكون القياس أسلوبا في معرفة العربية . ولئن كان القارىء يؤيّدها في التنبيه إلى ما قد ينشأ من تعثر في اللسان نتيجة تداخل نمطين في تعلم اللغة لا سيما إذا لم يكن أسلوب السماع قد استحكم في نفس المتعلم ، فإنّه لا يمكنه أن يذهب مذهبها في إقامة القياس إبّان نشأة النحو ، دعامة لتعلّم العربية وطريقا لمعرفتها .

وعقدت الفصلين ، الثاني والثالث ، للخليل بن احمد الفراهيدي واعتبرت « الكتاب » المصدر الأوّل الذي يفصح عن صور القياس في عمله لأنّ « الكتاب معقود » بلفظه ولفظ سيبويه . وقد حاول الخليل أن يستنبط القواعد والقوانين التي تنظّم مفردات اللغة وتراكيبها . ويقوم منهجيه على ثلاثة مبادىء ، مبدأ تصنيف الكلام ومبدأ العامل ومبدأ الاصول والفروع .

أمّا المبدأ الاول فقد روعيت فيه عدة أسس منها ما يتعلق بسائر زمر الكلام (2) ومنها ما يتعلق بالاسماء (3) ومنها ما يتعلق بالأفعال (4) ومنها ما يتعلق بالحروف (5) . وأمّا المبدأ الثاني فإنّه يسمح بتفسير ظاهرة التصرف الإعرابي فضلا عمّا يفيده من قوانين تأليف الكلام . وأمّا المبدأ الثالث ، وهو مبدأ الأصول والفروع وما ينجر عنه من التعليل فهو عماد القياس في نظر

(1) القياس في النحو ـ ص 14 و ص 15 .
(2) الاعراب والبناء .
(3) الاولية ، التحديد والشيوع ، الجنس ، العدد ، ما هو جامد وما هو مشتق .
(4) زمن الفعل ، عمله في الجملة ، عدد احرفه ، طبيعتها ، ما هو جامد وما هو متصرف .
(5) معاني الحروف ، ما اهمل وما عمل منها ، نوعية عملها .

المؤلفة . ويقوم هذا المبدأ على افتراض : وهو أنّ الظاهرة اللغوية تنظّمها خطوط كبرى هي أصوًل تتشعّب عنها خطوط صغرى هي فروع . وانبثقت عن إعمال هذا المبدأ في التأمّل اللغوي جملة من الأسس كانت بأيدي النحويين مقاييس يعلّلون بها أحكامهم في الكلام . وليست هذه الاحكام في نظر المؤلفة ناشئة عن تسليط اعتبارات عقلية على الظاهرة اللغوية وإنّما هي وليدة استقراء الواقع اللغوي ومحاولة الوقوف على ما يجمع شتات جزئياته وينظّمها .

أمّا الفصل الرابع فقد عقدته للعلّة وهي على مختلف صورها في عمل النحويين مرتبطة بمعنى السببية . وأكثر ما جاء من العلل يدور على أصلين : الثقل والفرق . ويشمل الأصل الأوّل ، أي اجتناب الثقل وطلب الخفة ، العلل الصرفية ، من ذلك ما يتعلّق به في الإعلال والإبدال . إلاّ أنّ هذا الأصل يتجاوز الأحكام الصرفية الى كثير من الأحكام النحوية لا سيما ما ذهب اليه النحويون في تعليل الحذف وترتيب عناصر الكلام وسائر العلل التي روعي فيها مبدأ تفاوت عناصر الكلام في التمكّن .

أمّا الاصل الثاني وهو الفرق فيتعلّق بباب الاعراب ـ وترى المؤلفة أنّ النحويين في ما استقبحوا وما استحسنوا وفي ما جوّزوا حذفه أو منعوه وفي ما علّلوا به تقديم عناصر الكلام أو تأخيرها إنّما هم يرصدون صور الكلام ويحاولون استظهار القانون الكلي الذي جعل علة لما تناثر منه . وهو إجراء يحيل على بدائه الحسّ وتقبله النفس . وهذا معنى قول ابن جنّي « اعلم ان علل النحويين . . . أقرب الى علل المتكلمين منها الى علل المتفقهين » (6) ويلاحظ الدارس أنّ الخليل وصاحبه وجمهرة النحاة من بعدهما قد ذهبوا الى تعليل أحكامهم بعلل عقلية مثل امتناع الاقتصار على أحد مفعولي الافعال القلبية بدعوى أن المتكلّم يعلم بالمفعول الثاني عمّا استقر عنده من حال المفعول الأول

(6) الخصائص 1/48 .

فلا غنى له لذلك عن ذكرهما . إلّا أنّه من التعسف في نظر المؤلفة ان يقع عزل هذا التعليل العقلي عمّا تقتضيه شروط تبليغ المعنى المقصود أو عمّا تحسّه النفس بداهة حين يتعلق الامر بمعقولية الكلام . إنّ مثل هذا الحكم قد يقنع القارىء حين يتعلّق الامر بالصوتيات ولكن ما صلة ما وقع الاعتلال به في الكثير من القراءات الشاذة بما تحسه النفس بداهة ؟ وقد عوّلت المؤلفة علي ابن جنى للدفاع عن رأيها هذا والبرهنة على أنّ « جميع علل النحو مواطئة للطباع (7) » فشمل بذلك هذا الفصل الكثير من نماذج التعليل ومن نصوص التراث إلّا أنّ مجهودها فيها لم يتجاوز التلخيص والعنونة . وقد طرأ على هذا الفصل خطأ مطبعي غريب تمثل في تكرار صفحات برمتها. فما ورد بين الصفحات 64 و 67 قد أعادته المؤلفة في الصفحات 73 حتّى 75. واهتمت في الفصل الخامس من دراستها بصور القياس موكدة على ما بين فكرة الأصول والفروع وبين التعليل والقياس من صلة . وعدّت « القياس اللغوي » أول صور القياس ، وهو مستنبط من استقراء الكلام . وهذه الصورة تجلّت أكثر ما تجلت في أعمال الطبقة الأولى من النحويين فقد وضعوا لها شروطا نبهت لها المؤلفة ولم يغفلوا في عملهم عن طبيعة اللغة واستحالة جريان قوانينها على نحو آلي فحاولوا استنباط قوانين تنظّم الشاذ ، لا سيما ما تعلق بالضرائر الشعرية . أمّا الوجه الثاني من القياس فهو « قياس التفسيري » ويقوم على معاينة الشبه بين الظواهر المتجانسة ومحاولة النفاذ الى ما وراء الواقع اللغوي للظفر بالضوابط التي تحكم تنظيمه . وأمّا الوجه الاخير من القياس فهو قريب من عمل أهل المنطق ويتمثل في « الحكم بجواز شيء لم يرد به السماع » (8) تعلّلا بسقوط المانع مثل إجازة الاخفش حذف همزة الاستفهام اذا أمن اللبس (9) أو توسيعا

(7) الخصائص 51/1 .
(8) المرجع ص 109 .
(9) مغني اللبيب 15/1 .

لقاعدة حتى تشمل ما لم يرد به السماع مثل إجازة الاخفش تعدية « أفعل » من حسب وظنّ الى ثلاثة مفاعيل (10) وتذهب المؤلفة في هذا مذهب ابن جني في تغليب السماع على القياس .

هذا الفصل أيضا ثريّ بالشواهد والأمثلة إلّا أنّ المؤلفة لم تحرص فيه على شكلها لا سيما ما كان منها موضوع خلاف . وما من شك في أنّ هذا النقص يكلّف القارىء عناء جديدا ينضاف الى عناء مجهود فهم النص .

واهتمت في الفصل السادس بالبحث عن صلة المنطق بالنحو باعتبار المنطق « يبحث في قوانين الفكر الذي يعبر عنه باللغة (11) وباعتبار النحو يمثل التعبير العلمي عن القوانين التي يتبعها كل قوم في صوغ ألفاظهم وفي تركيب عباراتهم لاداء المعاني المركبة (12) » . وعلى قدم هذه القضية في الثقافة العربية فقد كثر خوض المحدثين فيها وذهب جلّهم الى القول بتأثر النحو العربي ابان النشأة بالمنطق الارسطوطاليسي . ويعدّ « مركس » أكثر من اهتمّ بهذه القضية . وقد عوّلت المؤلفة في تقسيم حججه ومناقشتها من وجهة المقارنة ومن الوجهة التاريخية تعويلا كاملا او يكاد على مقال الأستاذ عبد الرحمان الحاج صالح وانتهت الى أن النحويين الاوائل قد أقاموا عملهم « على اعتبارات لغوية خالصة ناظرين إلى الغرض من علم النحو » (13) مدركين الفواصل القائمة بين صناعة المنطق والنحو العربي . إلّا أنّ من تلاهم من النحويين قد ظهر في مناهجهم النحوية بعض التأثر بالمنطق لا سيما عند الفرّاء وابن السراج والرمّاني والأنباري . ويتجلّى هذا التأثر في مستوى المصطلحات وصياغة الاحكام وفي تصنيف العلل وفي الجنوح إلى علل عقلية ليس من شأنها أن تعلّل « نظم

(10) الشافية 84/1 .
(11) المرجع ص 119 .
(12) المرجع ص 120 .
(13) المرجع ص 130 .

عناصر العبارة » (14) وكذلك في نمط صياغة المسائل . ولا يمكن مجاراة المؤلفة في اعتبار صياغة الأنبارى لمسائل النحو وأحكامه تمثل مظهرا من مظاهر تأثر النحو بالمنطق وإنّما هي صياغة تترجم عن تطور منهج البحث والتأليف عموما . ولا يمكن ايضا الا التحفظ ازاء ما ابدته من اطمئنان الى رأي عبد الرحمان بدوى في نحو ابن يعيش حين وسمه بالنحو الفلسفي (15) . ففي المفصل أكثر من دليل على مراعاة مؤلفة وشارحه لأوضاع اللغة واعتمادهما المقاييس السياقية لا سيما في حدود أقسام الكلام فضلا عن كون الكتاب لم يصنف « على أساس الانتقاءالنقدي وإنّما على أساس جمع المادة المتراكمة عصرا بعد عصر » (16) . ويبدو ان مراجع المؤلفة في هذا الفصل غير مواكبة لتطور البحث العلمي فضلا عن اقتصارها على اللسان العربي . وما من شك في ان الانكباب على هذه المسألة ، وهي على ما هي عليه من وثوق الصلة بالدراسات المقارنية ، يستوجب الاطلاع على الدراسات الاعجمية . وقد عاد المُستَشرق « كاتر » الى هذا الموضوع في مجلة الدراسات الاسلامية (17) فنظر في المؤثرات التي عملت في النحو العربي ووضح ما تتميز به مصطلحات « الكتاب » سواء ما تعلق منها بتقسيم الكلام وتصنيفه أو ما تعلّق منها بوصف عناصره وضبط وظائفها وأحكامها ، ووازن بين المنطق اليوناني والنحو العربي في مستوى المنهج والغاية فبرهن بذلك كلّه على استقلال النحو العربي عن المنطق اليوناني واختلافه النوعي عن النحو اليوناني وأثبت أنّ الدراسة المقارنية ينبغي أن تهتم بعلاقة النحو العربي بأعمال الفقهاء والقضاة المسلمين . كذلك نشر « ج. اندريس » فصلا في « المناظرة بين المنطق الفلسفي والنحو العربي في عصور

---

(14) المرجع ص 139 .

(15) المرجع ص 140 .

(16) الاستاذ عبد القادر المهيري : خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة ـ حوليات الجامعة التونسية 1973 عدد 10 ص 28 .

(17) M. G. Carter — Les origines de la grammaire arabe R. E. I. - XL 1972 - (69-97)

الخلفاء » (18) ثم عاد الى نفس القضية بنشر « مقالة يحيي بن عدى بن حامد بن زكريّا في تبيين الفصل بين صناعتي المنطق الفلسفي والنحو العربي » (19) . ولئن لم يتح لنا الاطلاع على هذه المقالة فإنّ جمال العمراني قد ترجمها الى الفرنسية في فصل له بمجلة Arabica (20) ونبه الى دورها في توسيع المعرفة بهذا الموضوع وفي تبديد ما علق بالذهن من أوهام تاريخية وأصولية حول علاقة النحو العربي بالمنطق اليوناني ـ ولنفس المؤلف فصل اعتمد فيه كتاب « المسائل والأجوبة في النحو » للبطليوسي أورد منه نصّ مناظرته مع أبي بكر بن الصائغ (ابن باجة) (21) وهي مناظرة تكشف عن رفض النحويين إدخال مصطلحات منطقية في صناعة النحو وتظهر وعيهم بتميز الصناعتين بعضهما عن بعض. وله أيضا دراسة مطولة بالفرنسية (22) استعرض في قسمها الاول وجهات النظر التي تدافع عن اطروحة تأثر النحو العربي بالمنطق اليوناني وتناولها بالنقد . وما من شك في أنّ الاطلاع على مثل هذه الفصول والدراسات وغيرها مثل اعمال G. Troupeau و J. B. Fisher من شأنه أن يوسع آفاق الدرس ويبرّر العودة اليها من جديد . وإنّ القارىء ليشك في اطلاع مؤلفة هذه الدراسة على كتابات « ارناس جيدى » و « مركس » و « لشتانستادر » و « سارثون » وغيرهم ممن نقدت كتابتهم في هذا الموضوع . فان مجاراتها « عبد الرحمان الحاج صالح » فيما توخّاه من الترتيب والاحتجاج تبعث على الظن بأنها ممّن يكتفي بنقل أصداء الدراسات لا الانتهال من معينها رأسا .

(18) G. Endress. Journal for the history arabic-science-university of Alep, Syria Mai I 977 Vol I — 2 .

(19) نفس المجلة ، السنة 1978 ، المجلد 2 ، العدد الاول .

(20) A. Elamrani - Jamel, grammaire et logique d'après le philosophe arabe chretien Yahya Ibn ᶜAdi - Arabica XXIX - fas I - Fev 1982 - P I - 15

(21) A. Elamrani Jamel, Les rapports de la logique et de la grammaire Arabica - vol XXVI - P 76 - 89

(22) A. Elamrani Jamel; Logique aristotélicienne et grammaire arabe. Etudes musulmanes Paris 1983 - 237 p.

ويتعلق الفصل الاخير من الدراسة « بالثورة على مبدا التعليل والقياس » لا سيما عند متأخرى النحويين ببلاد الاندلس . وقد اهتمت فيه المؤلفة بنشأة ابن مضاء القرطبي وثقافته وما يكون قد أثر في توجيهه الى الثورة على مناهج النحويين فدعا الى اطراح « العامل » مبرهنا على بطلان القول به عقلا وشرعا فضلا عمّا ينجرّ عنه من « فساد » في التقرير والتأويل ودعا الى اسقاط العلل الثواني والثوالث وابطال القياس والعزوف عن التمارين غير العملية .

ولئن كانت المؤلفة تؤيد ابن مضاء في موقفه من التمارين غير العملية وفي ما يؤدي اليه الإسراف في التعليل من أحكام لا تحتملها طبيعة اللغة فانها تتحفظ إزاء الكثير من آرائه لا سيما أن الكثير من علل النحويين مدارها على الثقل والفرق وليس من سداد الرأى دفع ما كان من هذا القبيل ، ثم إنّ جلّ أقيسة النحويين تندرج في صلب « القياس التفسيري » - تصرح المؤلفة بهذا الرأي ولا تقدم حججا لدعم هذا الحكم الكمّي ولا يبدو من تحفظاتها وعيها بما تمثّله دعوة ابن مضاء من خطر تفقير الدرس النحوى مما فيه من مجهود فكري - ثم انتقلت الى تتبع صدى ثورة ابن مضاء في أعمال ابي حيان النحوى (ت . 745 هـ) فأظهرت انه لا يرى مبرّرا لتعليل ما تلقي بالسماع شأن من بحث في علّة حروف المضارعة ولا يجد جدوى لتعليل إلّا متى كان على ما استعمله العرب ولا يعدّ من الأحكام النحوية إيجابيا إلّا ما كان يؤدي الى فائدة عملية . وعموما فإنّ منهجه بصري في أسسه الكبرى قد امتدت اليه آثار المذهب الظاهري (23) وقد عولت المؤلفة في هذا الفصل تعويلا كبيرا على مقدمة شوقي ضيف لكتاب « الرد على النحاة » وعلى دراسة د. خديجة الحديثي لأبي حيان النحوى - ولا يبدو انها قد توفقت في فصلها الى استنتاجات

(23) المرجع ص 158 .

طريفة أو الى ما من شأنه ان يعطي عملها سمة التميز ، وانما هي في ما تكتب تردد آراء شائعة وأفكارا مبتذلة ، وهذا شأنها في سائر الكتاب على الجملة . وقد أفضى بها بحثها الى الحكم بأنّ ما غلب على النحويين في أقيستهم وما اتصل بها من وجوه التعليل « انما هو محاولة استظهار القوانين التي تحكم تصرف العرب في لغتهم » (24). ولئن كان هذا المنهج يتعارض مع النزعة الوصفية في الدرس اللغوي الحديث فان ما يلحظ من قصور في تصور مسائل اللغة عند الإسراف في اعتماد المنهج الوصفي ، قد أدّى في نظر صاحبة هذه الدراسة الى ظهور مدرسة جديدة بعيدة عن المنهج الوصفي ، تلتقي مع منهج الخليل لا سيما في فكرة الاصول والفروع وتذهب في التعليل الى ما تمليه « بداهة العقل ويصدقه الحس » (25) .

وذيّلت المؤلفة عملها بنشر باب « الشاذ من المسائل العسكريات » لأبي علي الفارسي ـ وهكذا تكون قد تدرجت في بحثها من محاولة رصد مختلف صور القياس لتحديد مفهومه واستكناه طبيعته ثم تقويمه (26) فضمّ بذلك الكثير من النقول . بيد أنها لم تحرص في كلّ الحالات على النقل الدقيق . فهي تغفل أحيانا عن رسم علامات تفيد بداية النقل ونهايته (27) أو هي تحيل على مرجع ولا تضبط موقع الاحالة فيه (28) أو هي تخطىء في الاحالة (29) أو تختصر والنقول عموما مستخرجة من بطون مصادر هامة إلاّ أنّ المؤلفة أسرفت في نقل شواهد مطوّلة منها ، وهي شواهد مألوفة متواترة لا تكسبها فضل التنبيه الى

---

(24) المرجع ص 165 .
(25) المرجع ص 166 .
(26) المرجع ص 10 .
(27) انظر نقلها عن ابن جنى من ص 68 الى ص 75 وانظر أيضا نقلها عن عبد الرحمان الحاج صالح في الفصل السادس من الكتاب .
(28) انظر الإحالة رقم 1 من الصفحة 110 ـ ينبغي أن تضاف اليها : ص 1/15 .
(29) أرجعت المؤلفة في الاحالة رقم 1 ص 61 الى الخصائص 3/20 والصواب هو 163/1 .

نصوص قديمة طريفة فضلا عن عدم توفّقها الى ما يكسب استنتاجاتها طابعا متميّزا . ولئن كانت وفرة الأمثلة من مزايا مثل هذه الدراسة فلقد كان خليقا بصاحبتها الّا تعتمد منها إلّا ما له فائدة عملية وما كان من شأنه أن يوسّع آفاق البحث . وهي الى ذلك لم تتمكن عند استعراضها لتاريخ القياس من أن تكشف عن الأحداث النحوية الكبرى وعمّا تضافر على ظهورها من مختلف العوامل .

وتبدو المؤلفة ، في خضم هذه النقول ، مدافعة عن تصوّر في الدراسة اللغوية ، تصوّر يقوم على الجمع بين فكرة الأصول والفروع وما يتصل باعتبارات النفس البشرية في الظاهرة اللغوية . وقد صرحت برأيها هذا في خاتمة الدراسة (30) وهي ، على امتداد الفصول ، تحاول أن تقنع القارىء بوجاهة هذا المنهج وبأنّ ما سلف عن الاوائل في هذا المجال مناسب لما أثبتته البحوث التجريبية والدراسات النفسية للغة (31) . ولئن أفضى بها البحث الى نتائج واضحة في ما يتعلق بقيمة القياس ومدى ملاءمته لمناهج البحث اللغوي الحديثة فانها لم تقدّم تحليلا دقيقا للعوامل المؤثرة في تطور القياس وتفاوته من مدرسة الى اخرى وما اقترن به من صراع عنيف أحيانا بين « أنصار الاستقراء وأنصار القياس الشكلي » (32) .

وعموما فان هذا الكتاب ثري بما يقدّم من المادة غير طريف في ما انتهت اليه صاحبته من النتائج يتّسم ببعض التسرع في الأحكام والتحرير .

أحمد حيزم

(30) المرجع ص 166 .
(31) المرجع ص 28 ، 35 ، 49 ، 53 ، 78 .
(32) علي أبو المكارم ، أصول التفكير النحوي ، ص 88 .

مدخل الى دراسة المدارس الادبية
في الشعر العربي المعاصر

تاليف الدكتور نسيب نشاوي
ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر 1984
623 صفحة
تقديم احمد حيزم

لعل النقاد لم يختلفوا اليوم اختلافهم في تقييم الشعر العربي المعاصر، فهم بين متحمّس أو رافض أو متحفظ، والدراسات الاكادمية هي أهمّ ما يسمح بتحديد معالم الطريق وتوضيح الرؤية. فهي التي توفر المداخل النظرية والدراسات القطرية المنهجية تمهيدا لدراسة شاملة على غرار عمل « د. نسيب نشاوي » وقد نال به دكتوراه دولة في الآداب بجامعة القديس يوسف. ولست أعرف دراسة شملت من تراجم الشعراء المعاصرين ما شملته ولا ضمت من الشعر المعاصر (1) ما ضمت على امتداد ثمانين سنة (1900 - 1980). وقد حاول صاحبها أن يبين ما يتميز به شعر هذه المرحلة من خصائص فنيّة وفكرية ووجدانية. ولعمري إنّه لمشروع طموح يقتضي من القارىء كل الجدّ في متابعة هذا العمل.

1) نشرت مجلة الموقف الادبي عدد 119 مارس 1981 مقالا نقديا يتعلق بهذه الدراسة يرى فيه صاحبه انها تمثل برهنة على وحدة الثقافة العربية - ص 89.

حدّد المؤلف في مقدمته موضوع دراسته ومبرراتها لا سيما ما يتصل منها بالوضع النقدي الراهن مبينا مزايا تناول الشعر المعاصر في إطار مدارسه الكبرى وهي الاتباعية (2) والإبداعية (3) والواقعية والرمزية . لذلك قسّم دراسته على أربعة أبواب تناول فيها من الشعراء « من حكم لهم النقد الحديث بنضجهم الفني » (ص 20) ، وافرد الباب الأول منها للمدرسة الاتباعية اهتم في فصله الأول بجوانب نظرية توضح خصائصها في الغرب وعند العرب وتعلّل نشأتها هنا وهناك وتبيّن ما بينهما من وجوه الالتقاء والافتراق . وقد بدا المؤلف في هذا الفصل متسرعا في بعض ما رأى من الرأي وفي ما اعتمد من مناهج العمل . فكأنه حين قضى بأن الكلاسيكية الغربية معترضة على الأحاسيس والأخيلة قد غفل عن سلطان المشاعر على « هرميون » أو « فيدر » أو « روكسان » (4) أو عمّا بحث عنه أدباء هذه المدرسة من توازن بين قوى الادراك والشعور في غير تنكّر لهذه أو تلك (5).نعم إنّ هذه المدرسة تقوم على فكرة النظام وتؤثر القواعد على حرية الإلهام على أنها قواعد لا تخمد لهب المشاعر ولا تسم الأسلوب بالتحجّر . ولعلّ من شأن هذا التسرّع في فهم الكلاسيكية الغربية وقد حمل المؤلف نظيرتها العربية محملها ـ أن ييسّر ما قصده من تبرير لتدرج الأدب العربي من الكلاسيكية الى الرومنطقية حينما سطعت على العرب شمس الغرب ورققت عواطفهم على حدّ نظره (ص 582) . أمّا التسرّع المنهجي فيتمثل في تعجله استنباط خصائص الكلاسيكية العربية على ضوء خصائص الكلاسيكية الغربية قبل استقراء المدونة النصية أي أشعار

---

(2) الكلاسيكية .

(3) الرومنطيقية .

(4) Hermione — Phedre — Roxane .

(5) قال بوسوي Bossuet يوم استقباله عضوا بالاكاديمية الفرنسية :

« vous prenez garde qu'une trop scrupuleuse régularité et qu'une delicatesse trop molle éteigne le feu des esprits et n'affaiblisse la valeur du style » Universalis-V 4 : classicisme.

الكلاسيكيين العرب في العصر الحديث . ويبدو هذا التسرع صادرا عن موقف نقدي للمؤلف . فهو في الباب الرابع من دراسته يعيب على درويش الجندي عدم أخذه بهذا المنهج قائلا « والثغرة في أعمال الدكتور الجندي تظهر . . . في عدم معاملته الشعر العربي الذي رآه رمزيا وفق منطق الرمزية الغربية ومفهومها الفني الذي حدّده » (ص 479) وقد حاول غير مرة ان يحقق هذا المنهج حين أشار الى اشتراك الكلاسيكيين الغربيين والعرب في محاكاة النماذج التقليدية وفي حدّهم أسباب الجمال في الشعر (ص50) والحقيقة انه يعسر على المرء أن يطمئن إلى هذا المنهج إذ على فرض التسليم بوجود مدارس أدبية في الشعر العربي المعاصر على غرار الغرب فإنّ مساحات الالتقاء الثقافي تتنزّل بها روافد جامعة وروافد مفرقة أيضا ومن الخلط إخضاع الواحدة لمنطق الاخرى وليس استعراض قائمة طويلة من الشعراء كفيلا بالبرهنة على وجود هذه المدرسة وقد لاحظ المؤلف نفسه تفاوت انتمائهم تفاوتا يجعل « دراسة آثارهم مجتمعة في بحث موحّد » (ص 45) أمرا متعذّرا . وليس من شأن هذا الاعتذار أن يشفع له ما اتّسم به هذا الباب من تفكّك واستطراد حتى غدا مجموعة مقالات ومختارات شعرية عجز جامعها عن استخلاص الكلّيات التي تمثّل سداتها . على أن القارىء يمكنه بعد جهد أن يستخلص نظام هذه « المدرسة » فالشاعر قد يكون كلاسيكيا بعامل النشأة والثقافة (ص 107) ولكنه قد يكون كذلك بعامل الجهل وقلة المطالعة (ص 129) أو بعامل الشيخوخة فجورج صيدح بدأ رومنطقيا ثم تحوّل الى الكلاسيكية حين أدرك الثمانين (ص 205) .

وتتمثل عناصر الكلاسيكية في ثقافة الشعراء التقليدية ومعارضتهم القدامى وطرقهم ما طرقوا من الأغراض واستعمالهم ما استعملوا من الأخيلة ووسائل الوصف والعبارة كما تتمثل في الحنين العميق الى المجد القديم (118 + 133) واعتناق ما اعتنق القدامى من القيم ، بحيث إنها تتمثل في نظام قيمي ونسق جمالي . ويبدو هذا الحديث مقنعا شاهدا على توفر الانتماء المدرسي

لهذه المجموعة بيد أنّ التأمل يكشف عمّا فيه من الخلط بين أغراض الشعر وأساليبه وبين المعاني القيمية المتجلية فيه . فقد حمل المؤلف القيم الاجتماعية المنبثقة عن عوامل متعددة محمل الشاهد على الانتماء المدرسي وكأن تطور الأخلاق والسلم القيمي في المجتمع العربي مواز لتاريخ المدارس الأدبية فيه أو أنّ العوامل المؤثرة في هذا وذاك عوامل متماثلة . وعموما فإنّ فائدة هذا الباب تتمثل في ما جمعه صاحبه من المادة .

أما الباب الثاني فقد افتتحه على غرار الباب الأول بخطاب نظري امتد فصلين بيّن فيهما خصائص الرومنطقية الغربية ، في مستوى المضمون والصياغة الفنية واستعرض تاريخها وأبرز اعلامها ثم بيّن خصائص الإبداعية العربية والتيّارات الممهدة لظهورها ولا سيما الاحداث الثقافية والسياسية (ص 167) . أمّا ما بقي من فصول هذا الباب فمجموعة مقالات تختص بشعراء هذه المدرسة واحدا فواحدا . ويرى المؤلف أنّ الرومنطقية قد تدرّجت عبر مراحل ثلاث : مرحلة الدعوات التجديدية ، ويمثلها جبران خليل جبران فمرحلة الوصل واليها ينتمي خليل مطران والياس ابو شبكة ، فمرحلة « تبلور هذا المذهب وتألقه » ، وفيها يتنزل الشابي وسعيد عقل (؟) وطاهر زمخشري . وجعل خليل خوري (6) ممثلا لمرحلة ما قبل الرومنطقية لا سيما وقد كان على صلة تراسلية بلامارتين (ص 165) . ولا يظفر قارىء هذه الدراسة بتعليل وجيه لهذا التبويب المرحلي سوى ما يلاحظه المؤلف من أن من الشعراء من يخرج عن زمنه (ص 267) . ولعلّ ما حمله على هذا الاضطراب في التبويب اعتماده مقاييس كمية في تصنيف الشعر والشعراء . فسعيد عقل « رومنسيته أكثر من رمزيته » (ص 268) والشابي « تتكرّر » في شعره صور الرومنطقيين ومعانيهم (ص 289) و « الصفة الغنائية العذبة طاغية على معظم » (286)

(6) (1863 - 1907) .

انتاج عمر أبي ريشة . وطبيعي أن يقصر هذا المنهج عن إدراك مظاهر تطوّر الرومنطقية العربية وتعليل هذا التطوّر . فما عده المؤلف مرحلة « وصل » قد تجلت فيه بوادر التجديد والتقليد (7) هو مظهر وليس مرحلة وهو أبرز مظهر تتجلّى فيه الرومنطقية العربية متينة الصلة بالتراث قد تلقت رياح الرومنطقية الغربية على تنوعها ـ فرنسية وانجليزية والمانية ـ فاستساغت بعضها واعرضت عن البعض الآخر (8) وأجرت ما استساغته في جهاز مفاهيمها وأنماط تعبيرها ووسمته بأحوالها الحضارية (9) . فما ظنه المؤلف تردّدا بين التقليد والتجديد هو نموذج للقاء أدبي بين الشرق والغرب (10) . وهذا المظهر هو خصيصة من خصائص الرومنطقية العربية . ولنسلم للمؤلف ـ إن شاء ـ بحقّه في تقسيم تاريخ الرومنطقية العربية الى مراحل ، فما هي السمات التي تميّز المرحلة الجبرانية ـ وهي المرحلة الأولى ـ عن المرحلة الشابية ـ وهي المرحلة الثالثة ؟إن الشابي وجبران هما صورتان لمظهر واحد ، والرومنطقية العربية قد تألقت في النثر بكتابات الأوّل وفي الشعر « بأغاني » الثاني ثم انحسرت بموتهما ولموتهما ، وجلّ من أسهموا فيها من بعدهما قد ردّدوا صدى هذا أو ذاك . فأي تطور طرأ على المضمون الرومنطقي في شعر عمر أبي ريشة أو طاهر زمخشري أو غيرهما ممن نسبهم المؤلف الى المرحلة الأخيرة ؟ ففي أشعار شعراء هذه المدرسة يتجلى على امتداد أطوارها الثلاثة ما قد طفح به الأدب المهجري من المعاني ولا مبرر ـ بهذا الاعتبار ـ للحديث عن أطوار الشعر العربي الرومنطقي . ولقد وقع المؤلف ، باعتماده القراءة التاريخية ، في الاستطراد والتكرار غير مرة

---

(7) الاطروحة ص 254 + 262 + 265 .

(8) انظر ما وجه لالياس أبي شبكة من النقد وانظر كتابه « روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة » الطبعة الثانية 1945 ص 117 وانظر أيضا ما علل به النقاد ثورة شعراء المهجر على رجال الدين ـ الاطروحة ـ ص 180/179 .

(9) روابط الفكر والروح ـ ص 132/131 .

(10) اعتمدت في هذا التحليل دروس الاستاذ منجي الشملي في قسم التبريز 1985/1984 .

وبدت الرومنطقية العربية في نصّه شتاتا من المعاني الوجدانية (11) وخلا العمل أو كاد من محاولة استخلاص كلّيات هذه المدرسة لا سيما ما اتصل منها بالصياغة الفنية غير ملاحظات انطباعية أو أحكام اعتباطية لا تساهم في تقدّم البحث ـ فالموسيقى عنده « متماوجة » (ص 197) والنغمة « شـجـيـة » (ص 204) أو هي « عذبة وان كانت حزينة » (ص 306) أو فيها « رنة موسيقية حالمة » (ص 250) . وليس لهذه الأحكام ما يؤهلها لأن تساهم في الكشف عن خصائص الايقاع في الشعر الرومنطيقي العربي . وهل يزداد المرء معرفة بالنظام المعجمي في شعر شعراء هذه المدرسة حين يعلم أنّ لجورج صيدح « عبارات رومنسية حالمة » (ص 204) . وليس له إلاّ أن يبقى على ظمئه إن هو رام دراسة أساليب الوصف والتصوير عند الرومنطقيين العرب . فالمؤلف يحكم بجدّة الصور (ص 264) وقيامها على الخيال (ص 250) وتلاحمها مع العناصر الانفعالية (ص 231) وتعاقبها « في حركة توليدية » (ص 269) إلاّ أنّه لا يحقّق هذه الأحكام بما يقتضيه القارىء من التحليل والبرهنة . وهل من سبيل له مع القارىء غير تلك وقد تعهّد على نفسه الشمول والإلمام بالخصائص ؟ (ص 20) وكيف يمكنه أن يبرهن على وجود مدرسة أدبية إذا لم يكشف عن كليات المضمون فيها وعن قوانينها الجمالية وعلاقة هذه بتلك ؟ ولقد وردت مع ذلك ملاحظات في هذا الباب كان من شأنها أن تحفز المؤلف إلى معالجة النصوص لا تلخيصها إلا أنّه اقتصر على إرسالها : من ذلك حديثه عن التجديد في الشكل قبل نازك الملائكة بثلاثين سنة (ص 229 + 276) أو تعليله نقلا عن شوقي ضيف ـ غنائية علي محمود طه بإعجابه المزدوج بموسيقى شوقي وموسيقى الشعراء الفرنسيين (ص 282) . فلقد كان من شأن هذه الملاحظة لو اعتمد صاحبها الممارسة النصية أن تقوده إلى تحديد معنى

(11) يبدو أنّ المؤلف يماثل بين الرومنطقية والوجدانية . فهو يقول في معرض حديثه عن شعر خليل مطران « انه مضمون رومانسي أي وجداني » (ص 245) .

« التطور » وظروفه (12) . والحقيقة أنّ الممارسة النصية غريبة عن منهج المؤلف . فهو بمقدار ما حاول إرجاع الرومنطقية العربية الى مصادر تأثرها (13) أهمل المقارنة النصّية والبرهنة واكتفى بذكر أعلام الشعر الغربي . وعموما فإنّ أهداف المؤلف في هذا الباب قد تمثلت في البرهنة على امتداد هذه المدرسة إلى كلّ الأقطار العربية (ص 277) وهي مدرسة معرضة عن الأغراض التقليدية مطبوعة بالآداب الغربية والتجربة الذاتية (ص 316) ـ تطوّرت عبر مراحل حتّى قام مقامها المدّ الواقعي ، كانت الحرب العالمية الأولى تاريخ انبعاثها وحرب فلسطين تاريخ أفولها .

وفي الباب الثالث بيّن خصائص الواقعية الغربية وتاريخها وعوامل ظهورها ثم تدرّج الى النظر في ما كان للمناخ السياسي والثقافي بالبلاد العربية من أثر في ظهور الواقعية في الشعر العربي المعاصر لا سيما عند مطلع النصف الثاني من هذا القرن . وعلى غرار المعارك التي خاضتها الرومنطقية ضد الكلاسيكية فقد خاضت الواقعية معارك ضدّ « المدارس الادبية القائمة حولها » (ص 339) وتطوّرت عبر مراحل هي أيضا (390) . فقد انفجرت الواقعية في خضم معارك التحرّر في اليمن والجزائر و « تألقت في الربع الثالث من القرن العشرين » (ص 389) و « عانقت » الوجدان الرومانسي بعد الستينات (ص 449) وهي في هذه الاطوار الثلاثة « متأثرة بالواقعية الأوروبية حينا والواقعية الاشتراكية حينا آخر » (447) ويطفح الشعر الواقعي بالمعاني الوطنية والقومية ويؤمن أصحابه بأن من شأن الأدب أن يعمّق قيما جديدة عصرية (14) وفي أشعارهم تتجلّى مقولات الأدب الواقعي التي تبرّر نسبتهم إلى هذه

---

(12) غالي شكري ـ شعرنا الحديث . . الى أين ـ مصر 1968 ـ ص 148 + 154 .

(13) لم يثبت المؤلف بقائمة المراجع الأجنبية أي نصّ إبداعي كتب بغير اللسان العربي وظهر اثره في الشعر العربي الحديث .

(14) 332 ـ وانظر أيضا ص 374 .

المدرسة مثل التنبؤ بالاحداث واستباق الزمن (15) أو اهتمامهم بالقضايا التكوينية وايمانهم بأثر البيئة في تكوين الشخص (16) أو عرضهم نماذج انسانية هي مضرب للامثال (366) . وهو عموما شعر عقيدة وكفاح يلبّي توصيات الندوات الثقافية (422) ولا يخلو هذا الشعر في مرحلته الأولى من طرق أغراض تقليدية . وقد تميّز عندها بكثافة الأساليب الحماسية وبقسوة الخطاب وعنفه (17) وكذلك بارتباطه بالصياغة الفنية الكلاسيكية . فشعراؤه يتقيدون بالأوزان الخليلية وظاهرة التصريع تكاد لا تفارقهم (ص 354) وهم يرصّعون أشعارهم بالمحسنات البديعية (355) ويعارضون القدامى في قصائدهم (18) . ويرى المؤلف أنّ مرحلة الواقعية الجديدة قد أفضت « الى التفجّر الفنّي في الأوزان والقوافي والصيغ والاشتقاقات والصور الفنية » (ص 391) ـ على أنه يمكن الاعتراض بأن هذه الظاهرة تتعلّق بالشعر العربي المعاصر عامة ولا تختص بها المدرسة الواقعية ولا يمكن أن تفضي إلى القول بأنّ التطوّر في الموضوع قد أدّى إلى تطوّر في الصياغة الفنية (19) . ومهما يكن من أمر فإنّ المؤلف قد أصدر هذا الحكم ولم يحققه وكأنّه في ظنه من البديهيات واكتفى بتتبع مظاهر « تعانق النزعة الابداعية مع الواقعية » (ص 408) فيما تجلّى في شعر هذه المرحلة من معاني الشعر الرومنطقي . وأجرى احصاء معجميا شمل نصين لصلاح عبد الصبور بغية البرهنة على هذا التزاوج (20) بين المدرستين . ولئن كان الإحصاء المعجمي أداة عمل ممكنة فانّها تفقد كل جدوى حين تتأسّس على نصين منفردين ، بمعزل عن كامل المدونة النصّية وعن سائر الجداول المعجمية فيها ولا سيما اذا لم يحرص القائم بها على تبرير هذا

(15) 355 ـ 365 .
(16) 397 ـ 423 .
(17) 349 ـ 353 .
(18) 357 ـ 358 .
(19) غالي شكري ـ شعرنا الحديث . الى أين ؟ ص 154 .
(20) « رحلة في الليل » + « هجوم التتار » انظر الاطروحة ص 409 .

المعجم باعتبار غرض الخطاب وسائر وسائل التعبير عنه . ولا يمكن لمثل هذا العمل إلّا أن يفضي الى تفتيت لحمة الديوان وطمس مظاهر التحوّل فيه فضلا عن كونه لا يسمح بالوصول الى نتائج تتّصل بمدرسة كاملة أو بتيّار ضمنها . ولعلّ حرص المؤلّف على التصنيف المدرسي هو الذي حمله على تبرير هذه الظاهرة فيها وسمه بالواقعية الجديدة . فالانتماء المدرسي لا يتحقّق في كل الحالات . وقد تجتمع في شعر الشاعر روافد ثقافية متنوعة اجتماعا يستحيل معه نسبة هذا الشاعر الى مدرسة معينة (21) . ويبدو أنّ هذه الظاهرة الثقافية قد رافقت أشعار الفيتوري وصلاح عبد الصبور وعبد المعطي حجازي وغيرهم ممن تستعصى نصوصهم عما رسمه المؤلف من ضوابط تحدد الانتماء الى المدرسة الواقعية . فتعثّر المؤلف في ضبط أطوار المدارس الأدبية الحديثة وتردّده في تصنيف شعرائها (ص 31) يعود أساسا الى ما اتسمت به مشكلية الروافد الثقافية في الشعر العربي المعاصر من لبس في هذه الدراسة . وهل من مبرّر لإعجابه بشعر الميداني بن صالح . غير ما يتّسم به هذا الشعر من طواعية للتشريح واستجابة لمقولات الواقعيين استجابة بلغت من الالتزام ما جعلت المؤلّف يرى في هذا الشعر نموذجا « لتطابق الكلمة والفعل » (ص 422) . ولئن كان من الطبيعي أن يتحمّس الباحث ، أيّ بَاحث للبرهنة على رأيه ، فليس طبيعيا أن يختار لذلك ردىء الشعر وأبعد ما فيه « عن حذاقة الفنّ ودقّته » (22) . ولعمري إنّ اقتضاء الموضوعية والالتزام بمباحث الأدب لمطلب عسير ـ فما معنى قول المؤلف « إنّ المثل العليا الموضوعية الحياتية وحبّ الانسان والتعلّق بالشعب أمور مخلصة أبدا للأطر الفنية » (422) . وهل من مباحث الأدب أن يتتبع الناقد صلة الكلمة بالفعل في الاثر الفني أو أن يبرّر تبويبه

(21) احسان عباس ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر ـ سلسلة عالم المعرفة عدد 2 الكويت 1978 ص 72 وانظر ايضا ص 73 ، ففيها تعليق على قول سميح القاسم : « وصوت الآلة الحسناء يدعونا » . وقد أورد نسيب نشاوى هذا البيت في ص 437 من أطروحته وسكت عنه .

(22) احسان عباس ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر ـ ص 6 .

لأدب قومي معيّن بمقصد سياسي ؟ (23) وعموما فإنّ هذا الباب غلب عليه التكرار والاستطراد وتسرّبت اليه الكثير من النماذج الشعرية الرديئة .

واهتم المؤلف في الباب الرابع من هذه الدراسة بالمدرسة الرمزية العربية . ومهّد له بفصل طويل رسم فيه حدّ الرمزية الغربية وخصائصها العامة وعرض لتاريخها وأبرز اعلامها ثم تدرّج الى الرمزية العربية فأبرز ما تقوم عليه من اعتبار القراءة الشعرية إبداعا متجدّدا وما تتّسم به من إلحاح على الوحدة العضوية وتميّز في عد الرمز أداة تعبير تجاوزي . فهو عميق ومعقد في آن ، يذلّل النغم الموسيقي غموضه . أمّا مصادره فمتنوعة : فهو مستمدّ من الأسطورة أو هو ينتمي الى شخصيات تاريخية أو هو من مجال الكون والطبيعة . ويعرض الشعر الرمزي صورا متلاحقة لهندستها ايحاء بعيد . ولم تتأسّس هذه الخصائص في نظر المؤلف على نظر فلسفي وإنّما هي مستقرأة من النصوص الشعرية . وهو يرى ان الرمزية قد بدت في البلاد العربية محتشمة في النصف الأوّل من هذا القرن (24) ثم تطوّرت بفضل ما كان لإبداعات سعيد عقل (25) وصدور مجلة « شعر » والدراسات النقدية من الاثر . ثم عقد في ما بقي من الباب مقالات أفردها لشعراء هذه المدرسة . ويتبين منها القارىء ما يطفح به هذا الشعر من معان كان المؤلف نزّل بعضها في باب الرومنطقية وبعضها الآخر في باب الواقعية على أنّ ما يتميز به هذا الشعر هو صدوره عن رؤيه فنية تعدّ الشعر « ضربا من المجازفة في تيّار اللاوعي » (ص 587) وتقيس عظمة القصيدة « بمدى طاقتها الخرقية أو الانتهاكية ومدى استعصائها على التأطير

(23) قسم المؤلف الأدب الفلسطيني على ما كتب داخل الأرض المحتلة وما كتب خارجها وما كتب قبل النكبة وما كتب بعدها متعلّلا بما يسمح به هذا التقسيم من إظهار تطوّر النكبة الفلسطينية ص 426 .

(24) ينقل المؤلف هنا عن الياس ابي شبكة في شيء من السطو : قارن بين الصفحات 160 + 161 من روابط الفكر والروح وهي ص 474 + 475 من الاطروحة .

(25) سبق درسه في باب الادب الرومنطقي .

المدرسي » (ص 501) والقصيدة الرمزية عند المؤلف قائمة على وحدة عضوية متنامية (ص 488) تتداعى فيها الاحساسات والأفكار (ص 536) ويلفّها ضباب كثيف تعمدّه أصحابها بفرط اقتصاد العبارة أو بتحررهم أحيانا من « الصيغ النحوية » (ص 491) وهم يعلّلون ما قصدوا إليه بقصور اللفظ عن استيعاب الإحساسات الوجدانية (ص 553) وباعتقادهم أنّ الألفاظ « تصدأ وتحول » (ص 513) . فكان لا بدّ أن يتجاوزوا دلالاتها الأولى فانهمرت الرموز في أشعارهم وتراكمت الصور وتلاحقت « تشد بعضها الى بعض حتمية داخلية » (ص 499) وإن كان قارئها يجد فيها إخلالا بالعلاقات المنطقية (ص 508) . ويرى المؤلف أنّ ما يلقاه هذا الأدب من المقاومة يتنزل في إطار الصراع بين نزعتين « تعتزّ (الاولى) بالتراث العربي وتدعو الثانية الى تمثل التجربة الحضارية الأدبية في صورتها العالمية » (ص 579) على انّه لم يفصّل القول في هذا الموضوع ، على أهميته .

ولا ريب في أن الرأى الأول لا يناقض الثاني . « فعلاقة الشاعر المعاصر بهذا التراث هي علاقة استيعاب وتفهّم » (26) والشاعر المعاصر على صلة بجمهوره وهذه الصلة هي التي تحدّد « مدى تراثيته أو تجاوزه التراث » (27) والشاعر أسير الكلمات وأسير الذاكرة الادبية مهما حاول التحرّر . إذ « الكلمات ذات ذاكرة عجيبة يتردّد صداها في خضمّ الدلالات الجديدة » (28) . فارتباط الشاعر المعاصر بالتراث قدر أدبي لا مفر له منه.على أنّ هذا الارتباط لا يعني التحجّر وإنّما المبدع ـ ساعة الإبداع ـ يثري التراث بما يتحقّق له من لقاء أدبي بمصادر تأثّر حديثة . ويبدو أن قلّة اهتمام المؤلف بهذه المشكلية

---

(26) عز الدين اسماعيل ـ الشعر العربي المعاصر : قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ـ ط 2 بيروت 1972 ـ ص 30 .

(27) احسان عباس ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر ـ ص 149 .

(28) R.Barthes : Le degré zéro de l'écriture — Points 1972 — P 16 .

هي التي تفسّر تقييمه السطحي لأزمة الشعر الرمزي العربي (ص 483) إذ ليس المهمّ في هذا المجال أن يضبط الدارس قائمة في مصادر التأثّر على غرار ما يتّضح في هذه الدراسة وإنما المهم هو أنّ يقيّم الباحث هذا التأثّر ويبرز مدى استساغة الذهن العربي له واتساقه مع المصادر العربية القديمة . فالرموز مثلا قد مثّلت مساحة لقاء أدبي (29) وقد أقرّ السياب أنّ بعض الشعراء المعاصرين قد تنبّهوا ـ حين قرأوا « اليوت » الى ما في شعره من رموز شرقية كانوا يجهلونها مثل « تموز أو أوزيريس » . وهكذا عادت اليهم محملة بروافد « اليوتية » (30) . فالرمز يعتريه تطوّر وإثراء تلتقي فيه الروافد القديمة المختلفة مع الروافد الحديثة المتنوعة (31) وتتطوّر فيه دلالة النماذج البشرية (32) . وعموما فان المؤلف لم يتدبر الرمز في سياقه النصي والحضاري وانما اقتصر على شرحه نقلا (33) او اجتهادا شخصيا . وليست هذه الثغرة على أهميتها وحيدة في هذا الباب . فما اتصل من استنتاجاته بمعجم الأدب الرمزي محدود لا يتجاوز الحكم بغموض هذا المعجم أو إشعاعه أو ما حققه الرمزيون من تفجير « طاقات اللفظ العربي » (ص577) . ولا تكفي هذه الملاحظات للحكم بما قد يكون حقّقة هذا الشعر من معجم متميّز . وحديثه عن موسيقى الشعر الرمزي غير مقنع هو الآخر . فهي عنده « دالة على المعاني » (ص 559) ولكن « ما هي الأسس التي تقوم عليها ؟ » (34) وما هي أوجه اختلاف النسق الموسيقي في القصيدة الجديدة عما كانت عليه في القصيدة القديمة ؟ كذلك شأن

---

(29) أفدت في هذا التحليل من دروس الاستاذ منجي الشملي في قسم التبريز 1983 ـ 1984 .

(30) Some aspects of the influence of english poetry on some modernn arab Poets. Mohammad Asfour - in - Dirasat - Humanities Vol VI/n° I Mai 1979 - P 41.

(31) نفس المرجع ص 44 .

(32) نفس المرجع ص 44 ـ وانظر أيضا عز الدين اسماعيل ص 212 في تعليق على رمز « السندباد » .

(33) عز الدين اسماعيل ص 22 ـ 203 + احسان ص 160 الى 166 وانظر ايضا الاحالة رقم 26 ص 493 من الأطروحة .

(34) عز الدين اسماعيل ص 64 .

تحليل الصورة . فالقارىء لا يدرك بوضوح مظاهر الحداثة فيها ومدى توفّق الشعراء في إقامة الرمز بديلا عن الاستعارة والتشبيه . فهذا إحسان عباس يشهد بأنّ « الشاعر الحديث قد اقتصر في استعمال الرموز رغم كثرتها ـ على دلالات محدودة » (35) وأنّ وظيفتها لا تختلف اختلافا كبيرا عن التشبيه في الشعر القديم (36) . وعموما فقد غلب على هذا الباب الجمع والتلخيص ولم يتوفّق صاحبه الى نتائج طريفة .

وفي خاتمة الدراسة لخّص المؤلف ما انتهى اليه من النتائج محاولا البرهنة على « منطق » تطور المدارس الادبية في الشعر العربي المعاصر ، معتمدا الحدث السياسي عاملا حاسما في منعرجاته (37) وذيّل دراسته بقائمة في مصادر البحث ومراجعه (38) والأعلام الذين ورد ذكرهم في ثنايا الكتاب .

والكتاب في الجملة محاولة للبرهنة على وجود مدارس أدبية في الشعر العربي المعاصر . وتتمثّل المدرسة عند المفكرين في التمذهب المشترك في صلب جمعية يدافع أفرادها عن معتقد فلسفي مشترك أو هم قد تبنّوا على الأقل طرحا فلسفيا يعدّ جامعا لمذهبهم (39) . أمّا في الفنون الجملية فانها تتمثل في اعتناق جمع من الفنّانين رؤية جمالية موحدة وفنا مشتركا في التعبير (40) . والمدارس الأدبية في الغرب واسعة الامتداد ، ضمت من الفلاسفة من ضمّت فنظروا لها وشارك أفرادها في الأحداث السياسية وتحمّلوا أعباءها فتشربت المؤسسات الثقافية انتماءاتهم ، وامتدت الى العديد من مجالات التعبير الفني ، في الرسم

---

(35) احسان عباس ص 167 .

(36) احسان عباس ص 167 .

(37) الحرب العالمية الأولى ـ حرب فلسطين ـ نكسة حزيران .

(38) يلاحظ القارىء أنّ ما اعتمد المؤلف من مراجع اجنبية محدود فضلا عن اقتصاره على الدراسات التي تتعلق بالمدارس الأدبية دون نصوص المبدعين فيها . وما من شكّ في أنّ هذا النقص يجرّد أحكامه المقارنية من كل قيمة .

(39) Dictionnaire philosophique (Lalande) : Ecole .

(40) Robert (Ecole) .

وفي الموسيقى وفي الهندسة الجميلة ، وتلونت في كل قطر من أقطار أروبا بألوانه وتلبّست بأحواله الحضارية وأثمرت عن كل ذلك نتاجا غزيرا خصبا تكاد لا تمثل مدوّنة الشعر العربي المعاصر شيئا كبيرا بالقياس إليه إذا ما عولج من زاوية الانتماء المدرسي . وكأنّ المؤلف قد شعر اثناء التحليل بهذه الفوارق - أي في حجم هذا الانتاج ونوعه وظروفه وبواعثه ومبرّرات تصنيفه - فظهر عليه بعض التردد في استعمال مصطلح « مدرسة » فدلّ عليها حينا بعبارة « مذهب » (41) أو « نظرية » (42) أو « مفهوم (43) وحينا آخر بكلمة « اتجاه » (44) أو « نزعة » (45) أو « حركة » (46) . ولا يخفى على القارىء ما بين هذه المصطلحات من الاختلافات الاساسية . ولعلّ هذه الدراسة لو اتجهت الى النظر في توجّه الشعر العربي المعاصر ونزعاته أو الى صدى المدارس الغربية فيه لكانت أكثر إقناعا . ولقد أوقعه هذا التردّد في حيرة كبرى عند تصنيف الشعراء المعاصرين وكأنه لم يقتنع بان ريح الغرب لم تهبّ على الشرق مصنفة حسب انتماءاتها المدرسية وإنما نفخت في ديار العرب جملة في غير تفصيل وأخذ العرب يتنسّمون رياح ما هبّ وما دبّ منها (47) وينزلونه الى جانب محفوظهم الأدبي وما استقر في ملكة التعبير الفنّي عندهم ثم انتجوا شعرا عربيا معاصرا له خصائصه وله جمهوره. لذلك ينبغي أن يحلّل هذا الشعر باعتماد أوضاعه وظروفه لا بإسقاط أوضاع الحضارة الغربية عليه .

ولقد حاول المؤلف تجاوز هذا التردّد بتنزيل الواقعية منزلة الشجرة التي التفت حولها المدارس الأدبية الاخرى ، فامتدت الى الرومنطقية بعد الستينات

(41) ص 484 .
(42) ص 392 .
(43) ص 424 .
(44) ص 349 - 390 - 423 - 484 .
(45) ص 362 - 408 .
(46) ص 391 - 479 .
(47) روابط الفكر والروح ص 111 .

(ص449) والى الرمزية بعد السبعينات (ص485) . ولا أظن هذا التبرير مقنعا بالتطور المدرسي في الشعر العربي المعاصر لا سيما وقد اعتمد المؤلف منهجا في التحليل لا يسمح باستخراج الخصائص ومبرّرات الانتماء .

والحقيقة أنّ المؤلف اعتمد منهجا يثير العجب في أكثر من موضع لا سيما في ما انتهى اليه من الاحكام . فهو لا يتحدث عن النقاد الا بعبارات الإطراء أو القدح ـ والناقد عنده « كبير » (390 + 472) أو « واضح النباهة » (ص 390) أو « له حظوة » (ص 417) أو « حاذق » أو « حاسد » (ص 63) ـ وعنده تصوّر « خاص » للجمال في الشعر . فهو مشروط بتصوير الانكسار أو الانتصار (ص410) أو بمدى ملاءمته لفرضيات أخلاقية . فهو معجب « بالشعر الرصين » (ص 63) يدعو « للاتزان الكلمي » (ص 414) في الشعر ويدين من « يعبث بالألفاظ عبثا قبيحا » (ص 414) ويثير « الاشمئزاز » (ص 411) . وهو لا يتردّد في السخط على « فرلين » لأنه « داعر خبيث » (ص 465) وعنده أنّ « أسباب الجمال » في التصوير تتمثّل في « الرقة والروعة والعذوبة والدقة » (ص 219) .

ولعلّ هذه الرؤية للأدب وللممارسة النقدية هي التي تفسّر انتشار الأحكام الانطباعية وضعف معالجة المدونة النصية . وما من شك في أنّ ما بلغته هذه المدونة من الحجم يجعل السيطرة عليها أمرا عسيرا . فقد جاوز فيها صاحبها ألفين وخمس مائة من الأبيات أو الأسطر الشعرية وليس من اليسير تحليل مثل هذا القدر من النصوص . على أنّ الصعوبة لا تبرّر التلخيص .

وعلى كلّ فان المؤلف قد بذل جهدا جبارا في جمع شتات مدونّة الشعر الحديث ومحاولة تصنيفه وفهم العناصر المشتركة فيه إلّا أنه لم يوفق في استخلاص خصائصه ولا يزداد قارىء هذه الدراسة إلّا اقتناعا بضرورة الانكباب على هذه الظاهرة .

أحمد حيزم